

أحسن تفسير للقرآن الكريم في تاريخنا
بفضل من الله عز وجل

مَجَالِمُ الْإِسْلَامِ فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ

سورة الفاتحة

المرجع الديني للمسلمين
الشيخ صالح آل صالح
أسد الفقه والأصول والتفسير والأخلاق

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقدمة

الحمد لله الذي ﴿ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا ۖ ۞ ﴾^(١)، وجعله سبيل هدى وحاجزاً عن الضلالة ونوراً سماوياً في ربوع الأرض يضيء دروب السالكين إلى الله ويبدد الظلمات، وآلة للعصمة من الزلل، وإماماً يقود إلى النعيم الخالد في الآخرة.

لقد جعل الله القرآن ﴿ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ ﴾^(٢)، فكان للمسلمين فخراً وعزاً إذ أصبحوا به أغنياء وبالتمسك بأحكامه وسنته يطردون جميع وجوه الفقر وأبوابه المختلفة، وهو وثيقة سماوية تهدي إلى سبل الصلاح والفلاح وأسباب التوفيق في ميادين الحياة المختلفة.

ومن خصائص القرآن المباركة تضمنه لأسرار العلوم وخزائن المعرفة ومنار الحكمة، وفيه أمران:

الأول : علم الله تعالى بأهلية المسلمين واستحقاقهم لنعمة القرآن ومقدرتهم على تعاهد أعظم نعمة عند أهل الأرض .

الثاني : ضرورة إرتقاء المسلمين إلى مستوى الجدارة في المحافظة على القرآن وحمل لوائه ليؤدي وظائفه بين الناس باعتباره جبلاً مباركاً ممدوداً بين السماء والأرض.

والقرآن ميزان أعمال الناس وبه تستمر الحياة على الأرض وتوجه التطورات العلمية السريعة في العالم ويواجه جانب الشر من الإختراعات،

(١) سورة الزمر ٢٣.

(٢) سورة النحل ٨٩.

وتمنع قوة السلاح والعدد من الطيش المبيد، وتبقى العودة إلى الدين ومبادئه قائمة في النفوس ومتعارفة في الأنظمة، وبديهيّة في الأحكام ومنبع القرار.

لقد كانت بداية خلق الإنسان وطرو الحركة فيه بان نفخ الله فيه من روحه، وبما ان حاجة الإنسان كممكن الى الله سبحانه لا تنحصر بالخلق الابتدائي بل تستمر وتتصل مستديمة بالنشأة والحياة والى ما بعد الممات تفضل الله سبحانه مرة أخرى وجعل الكتاب الموحى به إلى الرسول الأكرم محمد صلى الله عليه وآله وسلم متوارثاً عند المسلمين وفي إستطاعة كل إنسان سماع آياته وتدبر معانيه والتفكر فيما يدعو إليه وتلك رحمة متجددة على أهل الأرض، وأبقى الله باب التوبة مفتوحاً والتزود من المعارف الإلهية ممكناً بالغوص في كنوز القرآن ومناهل آياته بغية إبانة وكشف المغطى من الجواهر في كل آية ومعرفة الظاهر منها لتبقى الأفهام الثاقبة والأبصار النيرة سائحة في خزائنها.

ففي القرآن محكم ومتشابه، ومجمل ومبين، وناسخ ومنسوخ، وآيات للأحكام، ومواعظ وحكم وأبواب لمختلف المعارف إلى جانب الأهمية الخاصة لأسباب النزول والمقاصد الشريفة وإشراقات البيان في القرآن التي لها تأثير كبير في الإستفادة من علومه وأحكامه كما إنها تمنع الناس من التورط في المهالك ومن خلط الإباحة بالخطر.

فكان ((علم التفسير)) حاجة وبصيرة، ووسيلة إلى التزود النافع من الفيض الرباني والوحي الجامع لما فيه صلاح الفرد والجماعة، فلا غرابة من ظهوره منذ السنين الأولى من نزول الوحي إلا أنه لم يكن واسعاً أو شاملاً لجميع الآيات والسور النازلة آنذاك لأسباب من أهمها معرفة العرب الذين نزل القرآن بين ظهرانهم بمعاني آياته ومقدرتهم على تدبر بلاغته وقوام فصاحته وعلو حكيمته، الأمر الذي يكون أحد أبرز وجوه إعجازه آنذاك وحجة ونصراً مباركاً ودعوة إلى الإسلام وميل العرب إليه والتسليم

بالنبوة والتصديق بما جاء به النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم من عند الله وكان واقية لمنع أذى المشركين إذ أقر أقطابهم مدعين بهذا الإعجاز. وهناك قانونان :

الأول : قانون آيات القرآن خزائن سماوية.

الثاني : قانون كل آية من القرآن مدرسة مستقلة للعلوم والمبادئ.

فصار من الضروري الاجتهاد في السعي لبيان ما فيها من الجواهر والأحكام والأسرار وبرز في مقدمة العلوم الإسلامية علم التفسير الذي يكتسب أهميته ومكانته العالية بين العلوم وأفراد المجتمعات من شرف موضوعه وعظيم منفعته في صلاح الأمم وإعانة الناس في التفقه في أمور دينهم ودنياهم وإرشادهم إلى الطرق المؤدية إلى الفلاح والسبل المؤدية إلى الخلود في جنات النعيم.

ولقد تصدى نفر من رجال الإسلام لتفسير القرآن وسوره وموضوعات آياته وتناول بعض منهم جوانب محددة من بحار أنواره، ودرس آخرون بعض علومه بصورة خاصة كالجانب اللغوي أو المباحث العقلية أو آيات الأحكام أو علم البديع في نظمه ونحوها مما يستحق بحوثاً مستفيضة متصلة متجددة فيما تبعته من أنوار ملكوتية تتماشى مع حاجات كل زمان وجيل وتكون مبشرة بأفاق المستقبل باستنباط من آيات القرآن ينبىء عن أمور ووقائع وأحداث واقعة أو إثبات إنها لم تكن غريبة عن عالم القرآن .

فيجب ان يرتقي علم التفسير إلى مستوى وظائفه الحقيقية التي تشمل كل الميادين وهي في توسعة وازدياد مطرد ليصبح قادرا على سد جانب من حاجات الناس وأهل الإيمان خاصة في هذا الباب ويسهم في توسعة وبرز وظائف آياته، هذا مع الإقرار بملازمة القصور للعلوم الانسانية عامة، وعلم التفسير خاصة عن سبر أغوار القرآن وآلائه ودرره الظاهرة

والخفية ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾^(١).

لقد جعل الله عز وجل كلمات القرآن المحدودة والتي تبلغ نحو (٧٧٤٣٠) كلمة محيطة بالعالم اللامحدود في آية تحت أهل العلم والمعرفة والإيمان على تثوير القرآن وإستظهار علومه وإستخراج كنوزه وما فيه من المعارف في مختلف أبواب العلوم وما يتفرع عنها في كل زمان.

ومع ما في هذا التفسير من السعة وبلوغه مراتب لم يصلها علم التفسير تفسيراً وتأويلاً وبياناً وعدد اجزاء فانه خال من الإطناب، ولا تجد فيه الأخبار والقصص والحوادث إلا على نحو محدود وبإيجاز غير مخل وبقدر تعلقها بموضوع الآية أو أسباب النزول، مع مبادئ في تنقيحها عند الحاجة خصوصاً عند ما تذكر مطلقة وكأنها من المسلمات وتصل أجزاء هذا التفسير إلى أكثر من ثلاثة ملايين جزء إن شاء الله وفق منهجية سياق الآيات، يبحث الصلة بين كل آية قرآنية والآية الأخرى منها ليكون مجموع العلوم حسب هذا العلم المستحدث كثيراً وهي توليدية وإنشطارية وبه هدى ورشاد وفلاح، قال تعالى ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾^(٢).

وقد صدرت أجزاء من هذا السفر بالصلة بين آيتين أو أكثر وهي :

أولاً : الجزء الرابع والثمانون ، ويختص بصلة الآية ١١٠ بالآيات ١٠١-١٠٩ من سورة آل عمران.

ثانياً : الجزء الخامس والثمانون ، ويختص بصلة الآية ١١٠ بالآيات ٩٤-١٠٢ من سورة آل عمران.

ثالثاً : الجزء السادس والثمانون ، ويختص بصلة الآية ١١٠ بالآيات ٨٥-

(١) سورة يوسف ٧٦.

(٢) سورة الاسراء ٩.

- ٩٣ من سورة آل عمران.
- رابعاً: الجزء السابع والثمانون ، ويختص بصلة الآية ١١٠ بالآيات ٧٨-٨٤ من سورة آل عمران.
- خامساً: الجزء الثامن والثمانون ، ويختص بصلة الآية ١١٠ بالآيات ٧٠-٧٧ من سورة آل عمران.
- سادساً: الجزء الثالث والتسعون ، ويختص بصلة الآية ١١٠ بالآيات ٦٤-٦٩ من سورة آل عمران.
- سابعاً: الجزء العشرون بعد المائة ، ويختص بصلة الآية (١٥٢) بالآية (١٥١) من سورة آل عمران.
- ثامناً: الجزء الثاني والعشرون بعد المائة ، ويختص بالقسم الأول من تفسير ١٥٣ وهو بصلة شطر من الآية ١٥٣ بشطر من الآية ١٥١ من سورة آل عمران.
- تاسعاً: الجزء الخامس والعشرون بعد المائة ويختص بالقسم الأول من تفسير الآية ١٥٤ وبصلة شطر من هذه الآية بشطر من الآية ١٥٣ من سورة آل عمران.
- عاشرأ: الجزء الرابع والأربعون بعد المائة ويختص بصلة شطر من الآية ١٦١ بشطر من ١٦٤ من سورة آل عمران.
- حادي عشر: الجزء السادس والثمانون بعد المائة ويختص بالصلة بين الآية ١٨٠ والآية ١٨١ من سورة آل عمران .
- لتكون تأسيساً لهذا العلم، ونسال الله عز وجل أن يوفق علماء الإسلام في الأجيال اللاحقة لإتمامه، بجهود تكافلية متآزره بأن يشترك في تفسير كل آية عالم التفسير، واللغة، والقانون، والتاريخ، والبلاغة، والنحو، والفقه، والأصول والكلام والفلسفة والأخلاق والاقتصاد والطب، والجغرافية، والفلك، والهندسة والرياضيات والزراعة، والجيولوجيا، وسائر العلوم.

أسأل الله عز وجل أن يهديني في هذا الكتاب المبارك إلى التعرض لتفسير آيات القرآن وألفاظه من جوانب وأبواب متعددة وفي فروع متشعبة والإهتمام بتفسير القرآن بالقرآن وبالسنة الشريفة التي هي بيان عملي لآيات القرآن وأحكامه وأن يتفضل علي بالإعانة والمدد لإتمام أجزائه التي أكتبها بأفاضات من الله تعالى ظاهرة وباطنة ، كما تتجلى في مضامينه وقوانينه ، ليكون شفاء وهبة وصلة مودة مع كل مسلم ومسلمة وطمعاً في دعاء الموجود منهم والذي يأتي في قادم الأيام ، وتنقيحاً لفلسفة الأخوة الإسلامية ، وفي التنزيل ﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾^(١).

وإذا كان موضوع علم الفقه هو فعل المكلف وفق الأحكام التكليفية الخمسة وما فيها من الأوامر والنواهي ، وهي لواحق ذاتية لما فيها من الإقتضاء والتخيير والترك والوجوب والحرمة ، وموضوع علم النحو الكلمة والجملة أي المفردات والمركبات من جهة الإعراب والبناء والحيثيات المناسبة لموضوعات المسائل فبلحاظ الفاعلية تكون الكلمة مؤهلة للرفع ، وبلحاظ المفعولية للنصب ، والجر بالنسبة للمضاف اليه ونحوه من عوارض الكلمة التي هي موضوع علم النحو^(٢).

والموضوع في علم المعقول مثلاً هو الوجود ، وينقسم الى واجب الوجود والممكن ، والممكن ينقسم الى الجوهر والمقولات العرضية ، اذ ان الممكن اذا استغنى في وجوده عن الموضوع فهو جوهر ، والا فهو عرض لأن العرض قائم بالموضوع^(٣).

وموضوع علم الأصول هو العلم بالدليل وما يقع في طريق إستنباط الحكم الشرعي ، وموضوع علم المنطق هو التعريفات والحجج ، وموضوع

(١) سورة هود ٨٨.

(٢) معراج الأصول ١٢.

(٣) معراج الأصول ١٢.

علم التأريخ هو دراسة الحوادث والوقائع في الزمن الماضي والإعطاء منها، والتدبر في سنن الحياة، قال تعالى ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾^(١)، ليكون آلة للقياس والفصل بين الصحة والفساد.

وموضوع علم الفيزياء هو الطبيعة وقوانينها العامة وقد يتحد موضوع علمين أو أكثر ولكن التباين بينها بلحاظ الجهة والحيشة فالكلمة موضوع لعلم اللغة والنحو والصرف، فيلاحظ في اللغة معنى الكلمة وفي النحو الإعراب والبناء، وفي الصرف تصريف ووزان الكلمة وهكذا باقي العلوم، ولكن موضوع آيات القرآن يستغرق هذه العلوم كلها فهي رشحة من رشحاته، وهو يشمل عمل الإنسان في الدنيا وعاقبته في الآخرة، وعلة إستدامة الحياة في الأرض، ومقدمات الرزق الكريم وإكتناز الصالحات ونزول البركات.

ولقد أنعم الله علي بإتمام مائتين وستة وأربعين جزءاً من هذا التفسير، وأتولى بمفردي والحمد لله التأليف والتصحيح والمراجعة والإشراف على الطباعة لا يؤازرنى إلا ولدان في التنضيد يعملان بصبر وجد في النهار والليل مع إنشغالي بالتدريس اليومي للبحث الخارج في الفقه والتفسير والأصول، أسأل الله التخفيف والسعة بما يجعلني أصدر الجزئين والثلاثة بدل الجزء الواحد.

وأسعى في هذه الطبعة للتوسعة والإضافة في الأجزاء ومنها الأبواب التي تم تأسيسها في الأجزاء الأخيرة مثل الآية لطف، إفاضات الآية، علم المناسبة، والصلة بين أول وآخر الآية، ومن غايات الآية.

فالآيات التي يتضمنها جزء واحد صارت في ثلاثة أجزاء أو أكثر، وهو من لطف الله ونعمه العظيمة علي وعلى المؤمنين في زمن العولة وتداخل الحضارات بإخراج شذرات من ذخائر القرآن من مضامين الآيات ذاتها،

ومن هذا التفسير أربعة أجزاء خاصة بتفسير قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾^(١)، وثلاثة أجزاء خاصة بتفسير قوله تعالى ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾^(٢).

وقد صدرت أجزاء خاصة بكل من :

أولاً : قانون (لم يغفر النبي محمد (ص) أحدا) وصدرت بخصوصه أجزاء

هي :

الأول : الجزء التاسع والخمسون بعد المائة .

الثاني : الجزء الستون بعد المائة .

الثالث : الجزء الواحد والستون بعد المائة .

الرابع : الجزء الثالث والستون بعد المائة .

الخامس : الجزء الرابع والستون بعد المائة .

السادس : الجزء الخامس والستون بعد المائة .

السابع : الجزء السادس والستون بعد المائة .

الثامن : الجزء السابع والستون بعد المائة .

التاسع : الجزء التاسع والستون بعد المائة .

العاشر : الجزء الواحد والسبعون بعد المائة .

الحادي عشر : الجزء الثاني والسبعون بعد المائة .

الثاني عشر : الجزء الثالث والسبعون بعد المائة .

الثالث عشر : الجزء الخامس والسبعون بعد المائة .

الرابع عشر : الجزء السادس والسبعون بعد المائة .

(١) سورة آل عمران ١٣٠.

(٢) سورة آل عمران ١٣٥.

- الخامس عشر : الجزء السابع والسبعون بعد المائة .
السادس عشر : الجزء الثامن والسبعون بعد المائة .
السابع عشر : الجزء الثامن والسبعون بعد المائة .
الثامن عشر : الجزء الثاني والثمانون بعد المائة .
التاسع عشر : الجزء الخامس والثمانون بعد المائة .
العشرون : الجزء الثامن والثمانون بعد المائة .
الواحد والعشرون : الجزء الثاني والتسعون بعد المائة .
الثاني والعشرون : الجزء المائتان .
الثالث والعشرون : الجزء الثامن بعد المائتين .
الرابع والعشرون : الجزء الثاني عشر بعد المائتين .
الخامس والعشرون : الجزء الثامن عشر بعد المائتين .
السادس والعشرون : الجزء السادس والعشرون بعد المائتين .
السابع والعشرون : الجزء الثامن والعشرون بعد المائتين .
الثامن والعشرون : الجزء الثامن والثلاثون بعد المائتين .
ثانياً : قانون (آيات السلم محكمة غير منسوخة) وصدرت بخصوصه
أجزاء هي :

- الأول : الجزء الثاني بعد المائتين .
الثاني : الجزء الثالث بعد المائتين .
الثالث : الجزء الرابع العاشر بعد المائتين .
الرابع : الجزء الحادي عشر بعد المائتين .
الخامس : الجزء الواحد والثلاثون بعد المائتين .
السادس : الجزء الأربعون بعد المائتين .
السابع : الجزء الواحد والأربعون بعد المائتين .
الثامن : الجزء الثاني والأربعون بعد المائتين .
التاسع : الجزء الثالث والأربعون بعد المائتين .

ثالثاً: قانون (التضاد بين القرآن والإرهاب) وصدرت بخصوصه الأجزاء

وهي

- الأول : الجزء التاسع والسبعون بعد المائة .
 - الثاني : الجزء الثمانون بعد المائة .
 - الثالث : الجزء الثالث والثمانون بعد المائة .
 - الرابع : الجزء الحادي والتسعون بعد المائة .
 - الخامس : الجزء الرابع والتسعون بعد المائة .
 - السادس : الجزء الخامس والتسعون بعد المائة .
 - السابع : الجزء الثامن والتسعون بعد المائة .
 - الثامن : الجزء السادس بعد المائتين .
 - التاسع : الجزء السابع بعد المائتين .
 - العاشر : الجزء السادس عشر بعد المائتين .
 - الحادي عشر : الجزء الرابع والثلاثون بعد المائتين .
 - الثاني عشر : الجزء الخامس والثلاثون بعد المائتين .
 - الثالث عشر : الجزء السابع والثلاثون بعد المائتين .
 - الرابع عشر : الجزء الثالث والأربعون بعد المائتين .
- رابعاً : قانون (آيات الدفاع سلام دائم) وصدرت الأجزاء بخصوصه

وهي :

- الأول : الجزء الواحد بعد المائتين .
- الثاني : الجزء الرابع عشر بعد المائتين .
- الثالث : الجزء الخامس عشر بعد المائتين .
- الرابع : الجزء الثامن والعشرون بعد المائتين .
- الخامس : الجزء الثلاثون بعد المائتين .

خامساً : قانون (النزاع المسلح بين القرآن والإرهاب) وصدرت بخصوصه

الأجزاء :

الأول : الجزء العشرون بعد المائتين .

الثاني : الجزء الواحد والعشرون بعد المائتين .

الثالث : الجزء الثاني والعشرون بعد المائتين .

الرابع : الجزء الخامس والعشرون بعد المائتين .

الخامس : الجزء السادس والعشرون بعد المائتين .

قال تعالى ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ (١). (٢)



النجف الأشرف

٢٧ رجب ١٤١٥

(١) سورة الإسراء ٩.

(٢) تمت هذه الإضافة يوم ١٦/١/٢٠٢٣ .

**قوله تعالى ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ (١) الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ
الْعَالَمِينَ (٢) الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٣) مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ (٤) إِيَّاكَ نَعْبُدُ
وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (٥) اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (٦) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ
عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ (٧)**

فاتحة الشيء أوله وبدايته وهي في الأصل مصدر بمعنى الفتح كالصادقة
بمعنى الصدق

ثم أطلقت على أول الشيء تسمية للمفعول بالمصدر ، والتاء
للتقل من الوصفية إلى الإسمية كما في النطيحة وإرتكز القول
الأخير على اعتبار قلة فاعلة في المصادر، والفتحة باب المسألة
والطلب إلى الله عز وجل كما في حديث أبي الدرداء: "ومن يأت
باباً مغلقاً يجد إلى جنبه باباً مفتحاً"^(١) أي واسعاً وتأتي بعنوان الحكم
يقال فاتحه مفاتحة فتاحاً.

وفي صفات الله تعالى (الفتاح) وهو الحاكم الذي يفتح أبواب
الرحمة والرزق وفي التنزيل ﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ
الْفَاتِحُ الْعَلِيمُ﴾^(٢) يفتح بيننا أي يقضي بيننا.

والفتح: الحكم والقضاء بين المتخاصمين. وأهل اليمن يقولون
للقاضي: الفتح، ويقول أحدهم لصاحبه عند المنازعة تعال حتى
أفتحك إلى الفتح، والفتاحة بضم الفاء أو كسرهما: الحكومة.

(١) شعب الإيمان ٤٨/٧.

(٢) سورة سبأ ٢٦.

وللفتح في اللغة العربية معان عديدة أخرى فالفتح تقيض الإغلاق، وما يفتح به الباب أو المستغلق من الأشياء فهو مفتاح.

والفتح: إفتتاح دار الحرب^(١)، والفتح: ان تفتح على من يستقرئك ويأتي بعنوان التلقين، والفتح: الماء الجاري في نهر أو من عين أو نحوها والمستعمل للسقي، والفتح: الماء والنهر، وفواتح القرآن: أوائل السور، والواحدة فاتحة، وإفتتاح الصلاة: التكبيرة الأولى، والفتح حركة النصب وفق صناعة النحو.

وقد ورد لفظ (الفتح) في القرآن ثمان مرات بالرفع، وأربع مرات بالنصب، ويوم الفتح هو يوم فتح مكة، قال تعالى ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾^(٢). اليوم غير مجرى التأريخ وقطع فيها دابر الذين كفروا وتعددهم وهجومهم على بيضة الإسلام، فبعد زحف جيوش قريش في معركة بدر وأحد والخندق والنسبة التضادية في عدد أفراد جيشهم ومؤونهم عجزوا عن صد النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه، ثم لم يلبثوا أن دخلوا الإسلام ورسخ الله به مبادئ التوحيد في الأرض إلى يوم القيامة لتشع أنوار الإسلام على القلوب المنكسرة في مشارق الأرض ومغاربها ليتوجه المسلمون منها خمس مرات نحو البيت الحرام على نحو الوجوب العبادي، وليقرأوا في كل ركعة من الصلاة اليومية سورة الفاتحة على نحو التعيين، وسورة وآيات أخرى على نحو التخيير، وكأن الصلة بين سورة الفاتحة ويوم الفتح أعم من التشابه اللفظي، وأنها تتضمن معاني عقائدية في بناء صرح الإيمان.



(١) المحيط في اللغة ٢١٥/١.

(٢) سورة الفتح ١.

فضل الفاتحة

إن المضامين الملكوية الرفيعة التي تشتمل عليها سورة الفاتحة وإفتتاح القرآن بها ينبئ عن أسرار عظيمة في هذه السورة، وقد ورد عن النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم انه قال: "ان فاتحة الكتاب اشرف ما في كنوز العرش"^(١) أي ان للسورة منزلة رفيعة في أرفع مراتب السماء وأنها نعمة تفضل الله بها على المسلمين وفضلهم بها على العالمين وجعلها كنزاً في الكتاب الذي خصهم نبيهم بها لتكون سلاحاً وعوناً ومرشداً، ونزولها وتلاوتها في الصلاة والإنشاع الأمثل منها من عمومات قوله تعالى ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾^(٢).

ولابد أن للفاتحة مضامين قدسية تؤكد افضلية النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم على الأنبياء الآخرين باعتبار انها هبة تفضل وتشريف. ورد عن النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم انه قال: "ان فاتحة الكتاب أفضل سورة أنزلها الله في كتابه وهي شفاء من كل داء الا الموت".

إنها إثبات لعظمة الله تعالى وكمال سلطانه وإنعدام الشريك كما أنها تؤكد ضرورة المبادرة إلى عبادته بإعتبارها وظيفة أهل الارض. لقد كانت سورة الفاتحة محل إفتخار من قبل النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم لما ترمز إليه من عناوين التفضيل في النبوة وما تقابله في المنزلة والدلالة والموضوعية من الكتب السماوية الأخرى، فقد قال النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم: "أعطيت الطوال مكان التوراة، وأعطيت المثني مكان الإنجيل، وأعطيت المثاني مكان الزبور، وفضلت بالمفصل سبع وستين سورة"^(٣).

(١) مجمع البيان ٥١/١.

(٢) سورة الاسراء ٩.

(٣) البحار ٢٧/٨٩.

لقد علم أهل السماء ما لسورة الفاتحة من فضل وإستبشر جبريل بنزولها مخبراً عما لها من الشرف والشأن، فقد ورد عن ابن عباس أنه قال: "بينما رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم جالساً وعنده جبريل إذ سمع نقيضاً من السماء من فوق، فرفع جبريل بصره إلى السماء فقال: يا محمد هذا ملك قد نزل لم ينزل إلى الأرض قط، قال فاتى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فسلم عليه فقال: أبشر بنورين قد أوتيتهما لم يؤتهما نبي قبلك فاتحة الكتاب وخواتيم سورة البقرة لن تقرأ حرفاً منهما الا أوتيته" (١).

وتلقى المسلمون تلك الهالة من التقديس لهذه السورة بإعتزاز وفخر وتعظيم لشأنها وصارت جزء من حياتهم اليومية ، وسلاحاً ملازماً في السفر وباباً للخير وحجة في الإيمان.

عن خارجة بن صلت التميمي عن عمه "أنه أتى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ثم أقبل راجعاً من عنده فمر على قوم عندهم رجل مجنون موثق بالحديد فقال أله إنا قد حدثنا أن صاحبكم هذا قد جاء بخير فهل عنده شيء يداويه قال فرقيته بفاتحة الكتاب قال وكيه ثلاثة أيام كل يوم مرتين فبرأ فأعطوني مائة شاة فاتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبرته فقال خذها فلعمري من أكل برقية باطل لقد أكلت برقية حق" (٢).

ومن أسرار وبركات سورة الفاتحة إنها شفاء وعلاج فبالإضافة إلى الروايات التي تقدمت بالخصوص فهناك روايات أخرى ووقائع تؤكد هذه الخصوصية لها .

أخرج عن رجاء الغنوي: "قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: إستشفعوا بما حمد الله به نفسه قبل ان يحمده خلقه، وبما مدح الله به نفسه، قلنا وما ذاك يا نبي الله، قال: الحمد لله وقل هو الله احد،

(١) السيوطي الدر المنثور ٢/١٥٨.

(٢) مسند أحمد ٤٤/٣٠٤.

فمن لم يشفه القرآن فلا شفاء الله.
أما مصاديق إنتفاع المسلمين من سورة الفاتحة وتلاوتها فهي أكثر من
أن تحصى موضوعاً وحكماً وأفراداً.

إن كل آية من القرآن شفاء وتبعث في النفس الطمأنينة وتنزل السكينة
وتجعل العافية تدب في البدن ولكن ذكر سورة الفاتحة على نحو التعيين في
هذه النصوص يدل على إمتلاكها لأسباب الأولوية والتفضيل في هذه
المسألة الإبتلائية العامة.

وكان النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم يتخذ سورة الفاتحة وقاءً
وعلاجاً ، وفيه دعوة للمسلمين لإدراك موضوعيتها والإنتفاع منها وبيان
المواضع التي يمكن إستحضارها، عن السكوني عن الصادق عليه السلام
قال: "كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذا كسل أو أصابته عين
أو صداع بسط يديه فقرأ فاتحة الكتاب والمعوذتين ثم مسح بها فيذهب عنه
ما كان يجده"^(١).

لقد أشار النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم إلى قانون إتخاذ سورة
الفاتحة حرزاً عند ساعة النوم وعندما يغط الإنسان في سبات وسكون
يجهل معه ما يحدث حوله.

أخرج ابن عساكر في تاريخ دمشق عن شداد بن أوس قال: "قال
رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: إذا أخذ أحدكم مضجعه ليتمد،
فليقرأ بأم القرآن وسورة فان الله يوكل به ملك يهب معه إذا هب".
وروي عن أنس "أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: إذا
وضعت جنبك على الفراش وقرأت فاتحة الكتاب، وقل هو الله أحد فقد
آمنت من كل شيء إلا الموت"^(٢).

إن قراءتها عندما يأوى الإنسان إلى فراشه تدخل ضمن عمومات ما
جاء في قراءة آيات من القرآن عند النوم وأنها تطرد الغفلة خاصة وأن

(١) الوسائل ١ / ٣٧٦ طبعة حجرية.

(٢) الدر المنثور ١ / ١٥. تفسير ابن كثير ١ / ٢٠.

آيات سورة الفاتحة والتوحيد ليست بالكثيرة بالإضافة إلى التخفيف في قراءة القرآن مطلقاً، وقد حث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على قراءتها كل ليلة بقوله صلى الله عليه وآله وسلم: "من قرأ عشر آيات في ليلة لم يكتب من الغافلين"^(١).

لقد أخبر النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم عن شرف سورة الفاتحة قبل نزولها لذا تراه صلى الله عليه وآله وسلم يؤكد على عظيم منزلتها بين سور القرآن لإستثمارها كهبة كريمة انفراد بها المسلمون وليبان بعض أسرار مجيئها في أول القرآن وللإشعار بأنه لم يتم الا بتوقيف ووحى ومقاصد سماوية لتوفيق وفلاح عامة المسلمين وجعل سبل الثواب قريبة متدلية ثمارها.

أخرج الحاكم والبيهقي عن أنس أنه قال: "كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في مسير له فنزل فمشى رجل من أصحابه إلى جنبه فالتفت إليه النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال: إلا أخبرك بأفضل القرآن، فتلا عليه الحمد لله رب العالمين"، وقد تقدم قريباً منه عن عبد الله بن جابر^(٢).

وبينما رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يمشي في بعض فجاج المدينة إذ سمع رجلاً يتهجّد يقرأ بأمر الكتاب فقام النبي صلى الله عليه وآله وسلم واستمع حتى ختم القارئ قراءته فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: ما في الأرض مثلها"، رواه أبو زيد الذي كان ماشياً مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم ساعته.

وفي هذا التوكيد والبيان المتكرر عن فضل الفاتحة من قبل الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم إظهار لبعض وظائف النبوة وفلسفة الرسالة .

ويمكن عدّه مدرسة تأديبية جامعة تساهم في تثبيت حقيقة عقائدية

(١) الوسائل ١ / ٣٧٢ طبعة حجرية.

(٢) الدر المنثور ١ / ١٥.

وترسيخها في أذهان المسلمين من أجل دوام العمل فيها ولتعاهد حفظها وجعلها من التركة العلمية المتوارثة للأمة ومن حق الأب أن يفرح بفضل الله تعالى أن ترك لابنه سورة الفاتحة قراءة وحفظاً مع إظهار العزم على المواظبة عليها.

لقد كان النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم يقرأها عند الشدائد ومناسبات الحاجة لما لها ولقراءتها من منافع ولإرشاد المسلمين لمصالحهم والتماس قضاء حوائجهم من أفضل الأبواب وبأحسن الصيغ والطرق السليمة المعبدة.

روي عن عائشة أنها قالت: "شكا الناس إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قحوط المطر فأمر بمنبر فوضعه في المصلى ووعد الناس يوماً يخرجون فيه، فخرج حين بدا حاجب الشمس فقعده على المنبر فكبر وحمد الله ثم قال: أنكم شكوتم جذب دياركم وإستخار المطر عن أوان زمنه عنكم وقد أمركم الله أن تدعوه، ووعدكم أن يستجيب لكم، ثم قال: الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم، مالك يوم الدين، لا إله إلا الله يفعل ما يريد، اللهم أنت لا إله إلا أنت الغني ونحن الفقراء، أنزل علينا الغيث، وأجعل ما أنزل قوة وبلاغاً"^(١).

وقد تقدم أن بسم الله الرحمن الرحيم شديدة القرب من اسم الله الأعظم وربما يتم بالأسماء الحسنی الأخرى التي تتضمنها السورة وهي الرب ومالك والرحمن والرحيم والكلمات الأخرى التي في السورة، وكان النبي صلى الله عليه وآله وسلم عندما يلقي العدو أثناء الغزو يقول: يا مالك الدين إياك نعبد وإياك نستعين، رواه أنس عن أبي طلحة.

ومع قلة عدد آيات سورة الفاتحة بالقياس إلى مجموع آيات القرآن وهي ٦٢٣٦ آية فإن الله عز وجل عدلها بالقرآن وجاءت السنة النبوية المباركة لتؤكد على عظيم منزلتها، وفيه رحمة بالمسلمين لسهولة قراءتها وحفظها وإستحضارها.

وقد أخرج "عن ابن عباس بسند ضعيف يرفعه إلى النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: فاتحة الكتاب تعدل ثلثي القرآن"^(١).

وهناك وظائف كثيرة لسورة الفاتحة يحتسب فيها لمن يقرأها أجر وثواب عظيم، لتكون منافع قراءة سورة الفاتحة مركبة ومتجددة ومنسبطة على الأزمان المتعددة والمتباينة إبتداء من حال القراءة ونيل ثواب ما إنعدم موضوعه حيثئذ أو قصر القارئ عن إحراز إتيانه فقد أخرج عن أبي قلابة يرفعه إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: "من شهد فاتحة الكتاب حين يستفتح كان كمن شهد فتحاً في سبيل الله، ومن شهد حتى ختم كان كمن شهد الغنائم حتى تقسم"^(٢).

روي أن رجلاً يسمى عبد الرحمن كان معلماً للأولاد في المدينة فعلم ولداً للحسين عليه السلام يقال له جعفر فعلمه الحمد لله رب العالمين فلما قرأ على أبيه الحسين عليه السلام استدعى المعلم واعطاه ألف دينار وألف حلة وحشى فاه درأً فليل له في ذلك فقال عليه السلام واني تساوى عطيتي هذه تعليمه ولدي الحمد لله رب العالمين.

والحديث مدرسة أخلاقية وأدبية واجتماعية تدل على الشأن العظيم لتعلم سورة الفاتحة بالنسبة للصبيان لأنها عون على أداء الصلاة لا بمعنى أنها واجب في الصلاة فحسب، بل لأنها قوام إتيان الصلاة بالنسبة للصبي فإذا حفظ سورة الفاتحة تمكن من أدائها وسهل عليه تعلم أجزائها الأخرى مثل التسبيح وأقبل عليها بشوق وإفتخار وفي أول أوقاتها، وإذا شق عليه حفظها فإنه لا يميل إلى أداء الصلاة أو يشعر معها بالخرج والخوف، خصوصاً وأنها ليست واجبة عليه ولهية وجلالة منزلة الصلاة في نفسه وخشيته من إقتحام هذا الفعل العبادي والدخول فيه.

ولقد أعطى الإمام الحسين للمسلمين درساً في أولوية تعليم الأبناء سورة الفاتحة وإعتباره مدرسة وميداناً للتعلم والسير في طريق الحكمة

(١) الدر المنثور ١٥/١.

(٢) الدر المنثور ١٧/١.

والمعرفة واطهر في هذا الباب كرمًا وجوداً وفرحاً بفضل الله واعتزازاً بمناسبة تعلم أحد أبنائه سورة الفاتحة وما فيها من البشارة وتعظيم شعائر الله، وهي عبرة لبيان عظيم النعمة بحفظ الابن لسورة الفاتحة وما يتعقبه من الخير والفضل والأجر، وتعلم الفاتحة طريق ومدخل لأداء الصلاة فانه حاجة مقصودة ذاتاً، وعرضاً.

وقال الرازي: إن في قراءة الفاتحة إنفتاح أبواب الجنة الثمانية ففي معرفتها وأبوابها باب المعرفة، والباب الثاني هو باب الذكر وهو قولك بسم الله الرحمن الرحيم، والباب الثالث باب الشكر وهو في قولك الحمد لله رب العالمين، والباب الرابع باب الرجاء وهو الرحمن الرحيم، والباب الخامس باب الخوف وهو قولك مالك يوم الدين، والباب السادس باب الإخلاص المتولد من معرفة العبودية ومعرفة الربوبية وهو إياك نعبد وإياك نستعين، والباب السابع باب الدعاء والتضرع كما قال تعالى ﴿أَنْتَ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾^(١)، والباب الثامن باب الإقتداء بالأرواح الطيبة الطاهرة وهو قولك صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين، وقال: بهذا الطريق إذا قرأت هذه السورة ووقفت على أسرارها أنفتحت لك ثمانية أبواب الجنة^(٢).

وقد تقدمت الإشارة إلى قوله بأن ﴿الحمد لله﴾ ثمانية أحرف وأن قارئها يستحق ثمانية أبواب الجنة، ولم يرفع الحديث أو يصرح بجهة الصدور وليس من دليل نقلي أو عقلي عليه. وورد في الخبر عن أنس عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم: "أن للجنة ثمانية أبواب وللنار سبعة أبواب"^(٣).

وقد جاء في الأخبار أن الفاتحة واقية من العذاب الأخروي إكراماً لها

(١) سورة النمل ٦٢.

(٢) مفاتيح الغيب ١/ ٢٧٧.

(٣) الدر المنثور ١/ ٣١٧.

ولعظيم ثواب قراءتها وتعاهدتها بالحفظ والإجلال.
ومما ذكر في فضل سورة الفاتحة وقراءتها أن أبواب النيران تغلق بقراءتها، وكأن قراءتها حرز وأمان من النار أو أن النار لا تصل إلى بدن وأعضاء ولسان من قرأها.

وأخرج عن ابن سيرين أنه قال: "كتب أبي بن كعب في مصحفه فاتحة الكتاب والمعوذتين واللهم أنا نستعينك اللهم إياك نعبد، وتركهن ابن مسعود وكتب منهن عثمان فاتحة الكتاب والمعوذتين".

ومن المستبعد أن يكون مصحف عبد الله بن مسعود خالياً من الفاتحة وهو الذي تلقى القرآن من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهو من السابقين الأولين المستجيبين للدعوة الإسلامية ولقد قال: "لقد رأيتني سادس ستة ما على ظهر الأرض مسلم غيرنا"^(١)، وهو ممن شهد مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بدرأ وبيعة الرضوان وهاجر الهجرتين وصلى إلى القبلتين، وكان من أول الصحابة الذين نزلوا الكوفة حيث وفد عليها أيام عمر بن الخطاب معلماً ووزيراً لعمار بن ياسر، وأخذ منه قراء الكوفة وتمسكوا بقراءته وكان رائدهم في القراءة ومن هؤلاء عاصم وحمزة والكسائي إذ تنتهي قراءتهم إلى الإمام علي عليه السلام وعبد الله بن مسعود.

وأخذ نفر من القراء القراءة عرضاً عن عبد الله بن مسعود مثل مسروق بن الأجدع وعلقمة بن قيس وزر بن حبيش والحارث بن قيس وغيرهم وكلهم يقول بأن سورة الفاتحة من القرآن وليس من مسلم إلا ويقرأها في القرآن، وربما كان مصحف عبد الله بن مسعود مرتبة سوره حسب النزول، والأرجح أن المقصود (بتركهن ابن مسعود) المعوذتان واللهم إنا نستعينك، ولو تنزلنا وقلنا بخلو مصحفه من الفاتحة فإنه يحمل على التسالم على قرآنتها وحفظ جميع المسلمين لها وسيأتي مزيد بيان^(٢)،

(١) ابن حجر العسقلاني / الاصابة في تمييز الصحابة ٢ / ٣٦٩.

(٢) أنظر الجزء الخامس باب: المعوذتان وجزئتهما من القرآن.

وفي المجلس قال ابن حزم في أول كتابه المحلى هذا كذب على ابن مسعود وموضوع وإنما صح عنه قراءة عاصم عن زر بن حبيش عنه وفيها المعوذتان والفاحة^(١).

وورد عن الإمام علي عليه السلام أنه قال: "لو شئت لاوقرت سبعين بعيراً في تفسير فاتحة الكتاب"^(٢).

ولاستبعد بعضهم نسبة هذا الحديث إلى أمير المؤمنين وشكك في صحته وقال أنه من مخترعات غلاة الشيعة، ولكن القول في حال ثبوت نسبته إلى أمير المؤمنين وبمضمونه مستقلاً مفخرة لأهل الإسلام ودرس في تعظيم القرآن وهم آنذاك كانوا يكتبون على الرقاع وسعف النخيل والرق ذي الحجم والسبك العريض.

ولا تزال العلوم المستنبطة من سورة الفاتحة في بدايتها من حيث التفصيل والبيان، لاسيما وأن أمهات العلوم في سورة الفاتحة، أي أنه أمر ممكن دلالة وعقلاً، وفيه دعوة للبحث والتحقيق وإستخراج المسائل من سورة الفاتحة، وبيان الحقائق خصوصاً مع تفرع العلوم وتشعبها في هذا الزمان.

(وعن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: "إن الله عز وجل يستخلص رجلاً من أمتي على رؤوس الخلائق يوم القيامة، فينشر عليه تسعة وتسعين سجلاً كل سجل مد البصر، ثم يقول أتنكر من هذا شيئاً؟ أظلمتك كتبتي الحافظون؟ قال: لا يا رب، قال: أفلك عذر، أو حسنة؟" قال: فيبتهت الرجل فيقول: لا يا رب. فيقول: بلى، إن لك عندنا حسنة واحدة، لا ظلم اليوم عليك. فيخرج له بطاقة فيها: "أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله"

فيقول: أحضره، فيقول: يا رب، ما هذه البطاقة مع هذه السجلات؟

(١) البرهان في علوم القرآن ٢/١٢٨.

(٢) البحار ٤٠/١٥٧.

فيقول: إنك لا تظلم، قال: "فتوضع السجلات في كفة ﴿والبطاقة في كفة﴾، قال: "فطاشت السجلات وثقلت البطاقة" قال: "ولا يثقل شيء بسم الله الرحمن الرحيم" ^(١).

بحث أصولي

إن معرفة أسماء السور والمعارف الربانية الكامنة في كل منها سر من أسرار علوم القرآن وعلم شريف فيه دقائق تستلزم الفطنة والنباهة والتحقيق لاستنباط الدروس والعبر من ذات الاسم ومن صلته مع السورة وموضوعها بالدلالات الثلاث المطابقة والتضمنية والالتزامية وما تكشفه من حقائق الأشياء وبالأخص ما لسورة الفاتحة من الأسماء.

إن كثرة ما لهذه السورة من الفضائل وما تتضمنه من العناوين العبادية والإشارات الدقيقة في عالم التوحيد وكنوزه أضفت عليها قدسية خاصة تجسد جانباً منها بما إنتزعت من أسماء مباركة إنفردت بها إلى جانب تسميتها من قبل النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بعدة أسماء، الأمر الذي يؤكد فضل هذه السورة ووظيفة النبوة في بيان أهميتها ومنزلتها ومنافعها.

لقد تعددت أسماء سورة الفاتحة بصورة تفوق كثيراً حال التعدد للسور الأخرى مع ما لهذه السور من الشرف والخصوصيات والمقامات السامية والمضامين القدسية التي يترشح بعضها من طول السورة أيضاً، فسورة البقرة يبلغ عدد آياتها نحو أربعين ضعفاً من سورة الفاتحة وأكثر من هذه النسبة بلحاظ عدد الكلمات، لأن عدد الكلمات في آيات سورة البقرة إجمالاً أكثر من عدد الكلمات في سورة الفاتحة، بالإضافة إلى إحتواء سورة البقرة على آية الكرسي ^(٢) وهي من أعظم آيات القرآن وفيها الكثير من الأحكام والسنن ومع هذا ليس لها معشار ما لسورة الفاتحة من الأسماء، وصحيح أن هذا يجعلنا نستنبط أمراً وهو أن العبرة ليست بالاسم إنما بالمسمى، وتلك قاعدة عقلية كلية، ولكن إنفراد سورة الفاتحة بهذه الأسماء

(١) تفسير ابن كثير ٢٤٥/٥ .

(٢) الآية ٢٥٥.

يدل على خصوصية وفيه دعوة للبحث والاستنباط ودراسة علل ونتائج إنفراد هذه السورة بهذه الأسماء مجتمعة ومنفردة.

وإذا كانت زيادة المباني دلالة على زيادة المعاني فهل تعدد أسماء سورة الفاتحة دليل على تعدد معانيها وأسرارها القدسية ومنافع تلاوتها والإستماع إليها في النشاطين، الجواب نعم فكل اسم من أسمائها مدرسة في التأويل ومناسبة لإستقراء المسائل، وإستنباط الأحكام ومناسبة للسياحة في عالم الملكوت.

إن تعدد أسماء سورة الفاتحة مناسبة كريمة لتلمس ما فيها من وجوه البركة والإيتاع، وإضافة السورة إلى الفاتحة من إضافة العام إلى الخاص كبلمدة الكوفة مثلاً، ومن أظهر أسمائها:

الأول : فاتحة الكتاب

معنى فاتحة الكتاب أوله، وقالوا إنها صارت بالغلبة علماً لسورة الحمد ووردت الرواية عن النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بهذا الاسم فهو اسم توقيفي وعلم في صيغته الأساسية ومنذ أيام النزول وعهد النبوة المبارك، كما أنه اسم مناسب بلحاظ الدلالة والإعتبار والمناسبة والمقام، فلا بد من خصوصية وأسرار قدسية لإفتتاح القرآن تحظى به السورة التي يبدأ بها وليس من مانع للقول بالأهلية الذاتية لسورة الفاتحة والدلالة العقائدية لكلماتها ومضامينها القدسية التي جعلتها تستحق هذه المنزلة الرفيعة من بين سور القرآن.

وقد وردت روايات عديدة تحمل هذا الاسم (ما روي عن أبي بن كعب قال: "قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: أي مسلم قرأ فاتحة الكتاب أعطي من الأجر كأنما قرأ ثلثي القرآن، وأعطي من الأجر كأنما تصدق على كل مؤمن ومؤمنة")^(١)، وعن أبي سعيد الخدري قال إن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: "فاتحة الكتاب شفاء من

وقد أسسنا في علم الدراية قاعدة رجالية جديدة باسم (التواتر السندي) وهي ان الخبر الضعيف إذا جاء عن طرق متعددة في الإسناد فأن هذه الكثرة جابرة لضعفه كما أن عمل المشهور يجبر الخبر الضعيف، وقد يكون الانجبار بهذه القاعدة من باب الأولوية، وسيأتي تفصيلها في الأجزاء التالية.

وقيل سميت السورة بهذا الاسم لافتتاح المصاحف بها وإن كان اسم المصحف لم يطلق على ما بين الدفتين من كلام الله الا بعد وفاة النبي صلى الله عليه وآله وسلم لما أخرجه ابن أشته في كتاب المصاحف من طريق موسى بن عقبة عن ابن شهاب قال: "لما جمعوا القرآن فكتبوه في الورق قال أبو بكر التمسوا له إسماً فقال بعضهم السفر، وقال بعضهم المصحف" (٢)، وحكاها المظفري بصورة أدق حيث ذكر في تاريخه أن ابن مسعود قال: "رأيت في الحبشة كتاباً يدعونه المصحف فسموه به".

وقد وردت الرواية بأن سورة الفاتحة هي أول سورة في مصحف أبي بن كعب، وذكر ابن أشته في كتاب المصاحف أن محمداً بن يعقوب أنبأه قال: "حدثنا أبو داود حدثنا أبو جعفر الكوفي قال: هذا تأليف مصحف أبي: الحمد ثم البقرة ثم النساء ثم آل عمران ثم الأنعام ثم الأعراف ثم المائة.." الحديث (٣).

وقيل سميت فاتحة الكتاب لأنها أول سورة أنزلت من القرآن ولكن أخباراً وروايات كثيرة تفيد بأن أول سورة نزلت من السماء هي سورة ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ...﴾ (٤).

وفي صحيحة ابن خالد، عن الرضا، عن أبيه عليهما السلام قال : أول

(١) الفضل بن الحسن الطبرسي / مجمع البيان في تفسير القرآن.

(٢) الإتيان في علوم القرآن ٥٩/١.

(٣) السيوطي / الإتيان في علوم القرآن ٦٤.

(٤) سورة العلق ١.

سورة نزلت " بسم الله الرحمن الرحيم اقرأ باسم ربك^(١) .

الثاني : سورة الفاتحة

وهو اسم علم آخر للسورة أما أن يكون إختصاراً لفاتحة الكتاب واللام كالخلف عن الإضافة، وأما أن يكون اسم علم بإعتبار أن اللام لازمة، أو هما معاً وهو الأنسب فهي أول سورة تواجه القارئ، ولورود الأحاديث عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم بتسمية السورة بهذا الإسم، والقول بأن حديث النبي صلى الله عليه وآله وسلم عن تسميتها بهذا الاسم موضوع، تطرده كثرة وشهرة الروايات الواردة بهذا الإسم.

ومنافع هذا الاسم لا تنحصر بتسميتها بل تتعداه إلى ميادين العبادة وسبل التقوى والصلاح وأسباب الإستعانة والإلتجاء، فهي فاتحة القراءة في الصلاة، فعند الدخول في الصلاة والاثيان بتكبيرة الإحرام لابد من قراءة سورة الفاتحة، فاذا كانت الصلاة تفتتح بتكبيرة الإحرام، فإن القراءة تفتتح بسورة الفاتحة، ولا يجوز تقديم السورة على الفاتحة سواء قرأها مرة أخرى بعد الفاتحة أم لم يقرأها، ولو فعله عمداً فعليه إعادة الصلاة، ولو قدمها سهواً وتذكر قبل الركوع قرأ الفاتحة ثم أعاد السورة أو غيرها، أما لو تذكر بعد الدخول في حد الركوع صحت صلاته، وسجد سجدي السهو.

والقراءة في الصلاة واجب ولكنه غير ركني فلو تركها وتذكر بعد الركوع صحت صلاته وسجد سجدي السهو، ولو تركها وتذكر في القنوت أو بعده قبل الوصول إلى حد الركوع رجع وتدارك، وكذا لو ترك الحمد وتذكر بعد الدخول في السورة رجع وأتى بها ثم بالسورة.

ويجوز الإقتصار على الفاتحة من غير قراءة سورة أخرى بعدها في حال المرض والإستعجال وضيق الوقت والخوف ونحوه من أفراد الضرورة.

الثالث : سورة الحمد

سميت بهذا الاسم لأن في أولها لفظ الحمد، ولأنها عنوان الحمد ورمزه. وذكر سبب آخر لتسميتها بسورة الحمد، ولولا ما لها من تسمية في القرآن لكان لهذا الاسم شيوع وانتشار واسع، وهو اسم تميل له نفوس أهل الإيمان لما يحمله من معاني الشكر لله عز وجل، ولما في قاعدة تسمية السورة بأول كلمة من كلماتها من التيسير والتخفيف، بالإضافة إلى الصفات المباركة الخاصة ببداية هذه السورة وما فيها من مضامين الحمد والثناء والشكر لله عز وجل.

ولقد جاءت الرواية أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: الحمد لله رب العالمين، سبع آيات أولهنّ (بسم الله الرحمن الرحيم)، وهي السبع المثاني، وهي أم القرآن، وهي فاتحة الكتاب^(١)، فأصبح علماً عليها خاصة في كتب التفسير وبعض الكتب الفقهية.

بالإضافة إلى مدلولات خاصة تتعلق باختيار الاسم بذكر أول كلمة من السورة وكثيرة هي السور التي سميت باسم أول كلمة منها.

الرابع : الحمد لله رب العالمين

سميت السورة بهذا الاسم عنواناً وإشارة لأول آية تلي البسملة في السورة ولإجتماع الثناء على الله تعالى فيه مع الإقرار له سبحانه بالربوبية، إلى جانب ملاءمته لحال المسلمين في أيام التنزيل وحاجتهم إلى التعليم والبيان والمساعدة على التفقه في الدين والإقبال على القرآن وآياته، فهذا الاسم عون لهم على معرفة المقصود وهو سورة الفاتحة ذاتها.

وقد ورد عن حذيفة بن اليمان أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: "إن القوم ليعث الله عليهم العذاب حتماً مقضياً فيقرأ صبي من صبيانهم في الكتاب الحمد لله رب العالمين فيسمعه الله تعالى فيرفع عنهم بذلك العذاب

أربعين سنة^(١)

وفي هذه التسمية مناسبة للشكر المقرون بالإقرار والتسليم بالربوبية ، انه مدرسة رسالية في التأديب، بالإضافة الى ما فيها من مراتب الثواب فالإتيان باسم السورة وحده ثناء وعبادة ومدخل للهداية والصلاح.

بالإسناد(عن ابن جابر قال: انتهيت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد أهرق الماء، فقلت: السلام عليك يا رسول الله. فلم يرد علي، قال: فقلت: السلام عليك يا رسول الله. فلم يرد علي، قال: فقلت: السلام عليك يا رسول الله، فلم يرد علي. قال: فانطلق رسول الله صلى الله عليه وسلم يمشي، وأنا خلفه حتى دخل رحله، ودخلت أنا المسجد، فجلست كثيراً حزينا، فخرج علي رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد تطهر، فقال: "عليك السلام ورحمة الله، وعليك السلام ورحمة الله، وعليك السلام ورحمة الله" ثم قال: "ألا أخبرك يا عبد الله بن جابر بأخير سورة في القرآن؟" قلت: بلى يا رسول الله. قال: "اقرأ: الحمد لله رب العالمين، حتى تحتها"^(٢).

قال ابن كثير^(٣): وعبد الله بن جابر هذا الصحابي ذكره ابن الجوزي انه هو العبدى ويقال انه جابر بن عبد الله الانصاري البياضي فيما ذكره ابن عساكر وابن حجر في الإصابة.

وأخرج الدارقطني والبيهقي في السنن بالإسناد ان الإمام علياً عليه السلام سئل عن السبع المثاني فقال الحمد لله رب العالمين ليكون هذا الاسم تعريفاً ومشبهاً به وهو أبين من المشبه مما يدل على شيوع هذا الاسم بين المسلمين لأن الحكم في المشبه به أقوى منه في المشبه.

الخامس : أم القرآن

(١)الكشاف ١٠/١.

(٢)تفسير ابن كثير ١٠٥/١.

(٣) إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي توفي سنة ٧٧٤ هجرية / تفسير القرآن العظيم ١٧/١.

لما تتضمنه السورة من الأصول والمعارف الإسلامية من الإلهيات والمعاد واثبات القضاء والقدر لله تعالى ومقاصد عالية أخرى، والعرب يسمون ما يجمع الأشياء المتعددة أماً كما يسمون الجلدة الجامعة للدماغ وحواسه أم الرأس، ويسمى لواء الجيش ورايتهم التي يجتمعون تحتها للجيش أماً، وقد وصف ذو الرمة راية لهم معقودة:

وأسمر قوام إذا نام صحبتي

خفيف الثياب لا تواري له أزرا

على رأسه أم لنا تقتدي بها

جماع أمور لا نعصي لها أمرا

إذا نزلت قيل انزلوا وإذا غدت

غدت ذات تزريق نال بها فخرا

لقد وردت روايات عديدة عن النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم يطلق فيها اسم أم القرآن على الفاتحة مما يؤكد عظمة هذه السورة وقدسيته بالإضافة إلى ما تعنيه من تضمنها لفيض من الأسرار الربانية والمنافع الدنيوية والأخروية.

ومن تلك الروايات ما ورد عن أبي بن كعب أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: "ما أنزل الله في التوراة ولا في الإنجيل مثل أم القرآن وهي السبع المثاني وهي مقسومة بيني وبين عبدي ولعبدى ما سئل"^(١).

وعن أبي سليمان قال: "مر أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في بعض غزوهم على رجل قد صرع فقرأ بعضهم في إذنه بأم القرآن فبرأ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: هي أم القرآن وهي شفاء من كل داء"^(٢).

ولأن أم الشيء تعني أصله فإن تسمية السورة بأم القرآن جاءت لأنها

(١) تفسير ابن كثير ١/١٠٥.

(٢) تفسير أبي السعود ١/٢٠١.

تتضمن العلوم الأساسية في القرآن وهي أربعة :

الأولى : الإلهيات ويدل عليه قوله تعالى ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ *
الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ^(١).

الثانية : المعاد ويدل عليه قوله تعالى ﴿ مَا لَكَ يَوْمَ الدِّينِ ﴾^(٢).

الثالثة : النبوات ويدل عليه قوله تعالى ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ
نَسْتَعِينُ ﴾^(٣)، ويدل على نفي الجبر والتفويض ووجوب الإقرار
بقضاء الله وقدره الذي تثبته أيضاً هذه الآية وآية الصراط من السورة.
الرابعة : الهداية إلى مسالك الإيمان وسبل الرشاد كما يشير إليها قوله
تعالى ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾^(٤).

وتجعل تسمية سورة الفاتحة بأمر القرآن تستحق تقديساً خاصاً وتفتح
الباب أمام دراسات قرآنية وعقائدية في أسباب هذه التسمية والأسرار
الكامنة فيها والدلالات التي تتضمنها ليكون هذا الاسم متعارفاً لها
وملازماً لذكرها، وقد يطلق عنواناً عليها من غير استغراب ، وفيه دعوة
إلى التحقيق والبيان وإستظهار المسائل والأحكام من هذه التسمية وكره
ابن سيرين تسميتها أم القرى^(٥) ، ولا موضوعية لهذه الكراهة إذا ثبت
النص عن النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم .

السادس : أم الكتاب

اسم يبعث في النفس إجلالاً إضافياً وإهتماماً إستثنائياً، لا يمكن تصور

(١) سورة الفاتحة الآيتان ٢-٣.

(٢) سورة الفاتحة ٤.

(٣) سورة الفاتحة ٥.

(٤) سورة الفاتحة ٦.

(٥) المحرر الوجيز ١/١.

منع آثاره من الظهور على الخواص، وسورة الفاتحة أهل لهذه القدسية، وأم الكتاب: "فاتحته لأنه يبتدأ بها في كل صلاة"^(١)، ولكن ليس من دليل شرعي أو لغوي للحصر بهذا التعليل والملازمة لم تثبت عقلاً ونقلاً، لاسيما وإن الموضوع متعلق بالصلاة والتسمية بالكتاب، وكان الحسن البصري وابن سيرين يكرهان أن يقال لسورة الفاتحة (أم الكتاب) لورود هذا الاسم لعنوان آخر أكثر سعة، ولما ورد في التنزيل ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ...﴾^(٢).

وجاء عن ابن عباس أن أم الكتاب القرآن من أوله إلى آخره، كما فسر بعضهم أم الكتاب في قوله تعالى ﴿وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيَّ حَكِيمٌ﴾^(٣) بأنه اللوح المحفوظ، وعن ابن عباس في قوله تعالى ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْكِتَابِ﴾^(٤) أن أم الكتاب: الذكر^(٥)، ولكن الرواية وردت عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم بتسمية هذه السورة بأم الكتاب في أحاديث كثيرة فلا بد من إمضاء تلك التسمية المباركة، خصوصاً وأن النص ورد بتسميتها أم القرآن، وهو لا يتعارض مع المعنى الأعم لأم الكتاب.

وورد(عن العرباض بن سارية قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إني عند الله في أم الكتاب لخاتم النبيين، وإن آدم لمنجدل في طيئته، وسأنبئكم بأول ذلك دعوة أبي إبراهيم، وبشارة عيسى بي، ورؤيا أمي

(١) لسان العرب ١٢/٢٢.

(٢) سورة آل عمران ٧.

(٣) سورة الزخرف ٤.

(٤) سورة الرعد ٣٩.

(٥) الدر المنثور ٦/٢٦.

التي رأت، وكذلك أمهات النبيين يرّين^(١).
ويأتي الكتاب مرادفاً للقرآن في الغالب بالإضافة إلى ان آيات السورة تتعلق مضامينها بأصل الشرائع، وقصور الأوهام عن إدراك كنه وأسرار وجوب قراءتها في الصلاة يجب أن لا يؤثر سلباً في قبول تلك التسمية. وليس هناك ما يمنع من وقوع اسم (أم الكتاب) على عدة مسميات مستقلة تكون أمارات الارتباط والتجانس بينها ليست خافية فيستحق ان يكون من المشترك اللفظي.

وقد روى العياشي مرفوعاً أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال لجابر بن عبد الله: "الا أعلمك أفضل سورة أنزلها الله في كتابه"، فقال: بلى يا باني أنت وأمي يا رسول الله علمنيها، قال: فعلمه الحمد أم الكتاب، ثم قال: يا جابر الا أخبرك عنها قال: بلى يا باني أنت وأمي فاخبرني فقال: هي شفاء من كل داء الا السام يعني الموت^(٢)، ولكن التسمية هنا (قال فعلمه الحمد أم الكتاب) تفيد الظن بان القائل بالتسمية هو أحد رجال الإسناد وان التعليم كان لذات السورة، والظاهر أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قرأها له وهو الأنسب لإرادة التعليم.

والمراد بالكتاب في التسمية هو القرآن لا جنس الكتاب، إذ روي في إسمائها فاتحة القرآن ولما ورد في القرآن من تسميته بالكتاب، قال تعالى ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ﴾^(٣).

السابع : السبع المثاني

لقد إشتهر هذا الاسم للسورة لما يتضمنه من معاني الإجلال والتعظيم المستنبطة من القرآن والسنة، وفي سبب تسميتها بهذا الاسم وجوه:
الأول: إنه اسم توقيفي لما ورد عن النبي محمد صلى الله عليه وآله

(١) الدر المنثور ١/٢٦٨.

(٢) مجمع البيان ١/٥١.

(٣) سورة الانعام ٩٢.

وسلم في تفسير قوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ ﴾^(١) وبيان عظيم إحسان الله تعالى وإنعامه على المسلمين بإنزال سورة الفاتحة وجعل قراءتها واجبة في صلاتهم، ولفت الأنظار إلى أهميتها وإستثمار قراءتها والتماس بركاتها، فقد قال الإمام علي عليه السلام "ان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: "أن الله تعالى قال لي: (يا محمد ولقد آتيناك سبعا من المثاني والقرآن العظيم) فأفرد الإمتنان علي بفاتحة الكتاب وجعلها بأزاء القرآن العظيم وان فاتحة الكتاب أشرف ما في كنوز العرش وأن الله خص محمداً صلى الله عليه وآله وسلم وشرفه بها ولم يشرك معه فيها أحداً من أنبيائه ما خلا سليمان فانه أعطاه منها بسم الله الرحمن الرحيم حكى عن بلقيس حين قالت" ﴿ إِنِّي أَقْبِي إِلَيْكَ كِتَابٌ كَرِيمٌ ﴾ **◆ إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ** ﴿(٢)(٣)﴾.

الثاني: سميت السبع المثاني لأنها سبع آيات، وهذا الوجه لا يتعارض مع الأول ويمكن إعتباره تعليلاً وتفسيراً لهذه التسمية.

الثالث: لأنها مستثناة من سائر الكتب السماوية التي أنزلت قبل القرآن.

الرابع: لأن قراءة كل آية منها تعدل سبع القرآن، فمن قرأ الفاتحة أعطاه الله ثواب من قرأ كل القرآن.

الخامس: للإتيان بسورة الفاتحة مرتين في كل صلاة إذ تقرأ في الركعة الأولى والثانية مما يعني تثنيها وإعادتها، وفي حديث صلاة الليل انها تصلى مثني، مثني أي ركعتين، ركعتين.

السادس: لأنها تثنى مع كل سورة، وأظهر هذه الوجوه هو الأول

(١) سورة الحجر ٨٧.

(٢) سورة النمل ٢٩ - ٣٠.

(٣) تفسير البرهان ٤١/١.

لورود النص به عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وللتعليل فيه بالآية القرآنية، ولا يمنع ان تكون الوجوه الأخرى في طوله ومن باب الجري والتطبيق.

السابع: التحديد بالعدد (سبع) لتخصيص سورة الفاتحة من مجموع آيات الحمد والثناء على الله عز وجل في القرآن.

الثامن : الثاني

تحمل كتب التفسير هذا الاسم عنواناً لسورة الفاتحة وتذكره أيضاً كتب اللغة وقواميسها، وفيه وجوه:

الأول: الثاني لغة جمع مثنى على صيغة المفعول من التثنية وهي التكرار، لأن سورة الفاتحة تتكرر قراءتها في الصلاة وغيرها على نحو الوجوب والإستحباب، وتثنى في كل صلاة.

الثاني: إنه من الثناء لما تتضمنه سورة الفاتحة من الثناء على الله عز وجل بعظيم أفعاله وصفاته الحسنى، وما في سورة من الحمد له وتوحيده والإقرار بالملكية المطلقة له يوم القيامة.

الثالث: سميت به لأن نصفها ثناء العبد للرب، ونصفها عطاء الرب للعبد.

الرابع: لأنها سبع آيات كل آية تعدل قراءتها سُبْعاً من القرآن فمن قرأ الفاتحة أعطاه الله ثواب من قرأ كل القرآن.

الخامس: سميت مثاني لأنها نزلت مرتين^(١) وان لم يثبت تعدد النزول.

ولا تعارض بين هذه الأسباب، ويمكن الجمع بينها ، وإتحادها متضامنة في التسمية مدح وشكر لله تعالى وأمل ورجاء لتوالي إحسانه تعالى وهو الكريم الذي ينفق كيف يشاء.

السادس: في خبر يونس بن عبد الرحمن عن الإمام جعفر الصادق

(١) أنظر مجمع البيان ٥٠/١.

قال: "سميت المثاني لأنها تتثنى في الركعتين"^(١).

وهذا من أحسن وجوه التسمية، وبه تظهر وحدة موضوع التسمية في السبع المثاني والمثاني، وكأن الثاني منهما جاء بحذف المضاف، إلا أن المثاني من المشترك اللفظي ويأتي على عدة معان فيها. السابع: المثاني عدد من السور المتواليات واختلف فيه وانه يبدأ من البقرة وينتهي ببراءة، وقيل ما دون المئين أي أن المثاني هي التي تلتها وجاءت متعقبة لها وتثنى لها.

ويمكن أن نضيف وجوهاً أخرى:

الثامن: بتثنية قراءتها يتجدد العفو وتثنى وتضاف الرحمة الإلهية على العبد.

التاسع: إنها عنوان تثنية الأجر والثواب وكتابة العمل الصالح.

العاشر: بقراءة الفاتحة يثنى ما تكتبه الملائكة للمؤمن من الثواب.

الحادي عشر: ليس لها مثل في القرآن، وينظر لها على نحو مستقل ولها حكمها الخاص في الصلاة إذ تنفرد من بين سور القرآن بوجوب قراءتها.

الثاني عشر: كل آية منها متممة للأخرى، متلازمة معها، لا يمكن إنفكاكها عنها، فالآية الثانية تثنية للأولى، والآية الثالثة تثنية للثانية وهكذا.

وقال الشاعر

الحمدُ لله الذي عافاني ... وكلَّ خيرٍ بعده أعطاني

مِنَ الْقُرْآنِ وَمِنَ الْمَثَانِي^(٢)

الثالث عشر: اختلف علماء المسلمين في الاجتهاد في قراءة السورة

فشطر منهم ذهب إلى وجوب قراءة سورة بعد الفاتحة ولا تقل عن ثلاث آيات، وليس من سورة في القرآن أقل من ثلاث، وشطر آخر قال بجواز

(١) تفسير البرهان ٤١/١.

(٢) تفسير الطبري ١١٠/١.

قراءة ثلاث آيات بعد الفاتحة من آية سورة، أما قراءة الفاتحة فالنص وإجماع علماء المسلمين على وجوب قراءتها كاملة فيصدق عليها أنها مثاني كل آية تأتي ثانية بعد الأخرى ولعل فيه توكيداً بأن البسملة جزء من سورة الفاتحة، فأية (الحمد لله رب العالمين) ثانية بالنسبة للبسملة.

الرابع عشر: ورد في حديث عبد الله بن عمرو: إن من أشراط الساعة أن توضع الأخيار وترفع الأشرار، ويفتح القول، ويخزن العمل وتعمل المثناة في الملأ ليس فيهم لها مغير، قيل: وما المثناة؟ قال: من اكتسب شيئاً ليس في كتاب الله^(١).

كأنه جعل ما إستكتب من كتاب الله مبدأ وهذا مثني.

التاسع : الصلاة

وفي تسمية هذه السورة المباركة الصلاة وإختصاصها بهذا الاسم من بين سور القرآن مسائل:

الأول: لمنزلة السورة في الصلاة إذ أنها أهم جزء من واجب غير ركني وهو القراءة.

الثاني: تدل بالدلالة الإلتزامية على أن الدعوة الخلقية لكل إنسان لإتيان الصلاة والتقيد بأحكامها.

الثالث: لزوم الإتيان بالسورة في الصلاة اليومية.

الرابع: للفت الأنظار إلى أهمية موضوعيتها في الصلاة سميت بهذا الاسم.

الخامس: إطلاق اسم الكل وإرادة الجزء وهي لغة معروفة.

السادس: ما تتضمنه من مضامين عالية من الدعاء وهو المعنى اللغوي لأصل لفظ الصلاة على القول المشهور.

(روي عن النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم انه قال: "قال الله

تعالى: قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفها لي ونصفها لعبدي، فإذا

قال العبد ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ يقول الله حمدني عبدي، فإذا قال ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ يقول الله أثني علي عبدي، فإذا قال العبد ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ يقول الله مجدني عبدي، فإذا قال ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ يقول الله هذا بيني وبين عبدي ولعبدي ما سئل، فإذا قال ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ إلى آخره قال الله هذا لعبدي ولعبدي ما سأل^(١).

فلفظ (الصلاة) الوارد في الحديث صفة واسم لسورة الفاتحة. وقد وردت الرواية عن طريق أهل البيت أيضاً ولكن باسم فاتحة الكتاب بدل الصلاة حسب ما ورد في العيون عن الإمام الرضا عن آبائه عن أمير المؤمنين عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: "لقد سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: قال الله عز وجل قسمت فاتحة الكتاب بيني وبين عبدي.." الحديث.

(وبالإسناد عن جابر بن عبد الله الأنصاري قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: قال الله عز وجل قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين وله ما سئل فإذا قال العبد الحمد لله رب العالمين قال حمدني عبدي.." وساق الحديث مع إختلاف في ذيله يسير عن الرواية المتقدم ذكرها^(٢)).

السابع: لعل في تسمية الفاتحة بالصلاة إشارات دقيقة إلى مضاعفة اجر قراءتها في الصلاة، وكأن قراءتها في الصلاة أكثر أجراً وثواباً من خارج الصلاة، وهذه حالة تدرك بالعقل والوجدان فيترشح الثواب الإضافي للفعل إذا كان جزءاً من عمل شرعي ذي أولوية والظاهر ان لكل ثواباً خاصاً ينحل وينقسم على الأجزاء بالإضافة إلى الثواب الخاص لكل منها فجاءت هذه التسمية للتذكير بفضل الله تعالى في هذا الثواب.

(١) مجمع البيان في تفسير القرآن ١٧/١. صحيح الترمذي / الحديث ٢٩٥٣.

(٢) انظر تفسير الطبري ٨٦/١.

ويضفي هذا الاسم على سورة الفاتحة لباساً فقهياً ملازماً لها لوجوبها في الصلاة وتكرار قراءتها من قبل المسلمين أفراداً وجماعات عدة مرات في كل يوم اذ يستقبلون يومهم بها لتعانق آياتها الخيوط الأولى من الفجر ولتعم البركة وروح الإيمان الأرض وتزين الأفاق بعد سكون الليل بما ينتشر في أجوائها من أصوات المسلمين وهم يتلون سورة الفاتحة في صلاتهم ليس في صلاة الصبح وحدها بل تتكرر التلاوة بآيات ظاهرة وخضوع، وامثال نوعي وتوكيد لأحكام سماوية متكاملة، وسياحة في عالم الملكوت.

فتسمع أصوات المصلين يتلون آيات سورة الفاتحة عند الظهيرة لتطرد عن النفوس ما تسلل إليها من معالم الدنيا ومباهجها عبر نهار عمل وساعات كسب واشتغال، كما تدفع عن النفس والبدن في الصلوات اليومية الأخرى أسباب التعب ومظاهر الكسل وليكون ذلك اليوم شاهداً لكل مسلم ختمه بتلاوة سورة الفاتحة في صلاة العشاء وعوناً له يوم الحساب.

وبسبب لزوم قراءة سورة الفاتحة في الصلاة أصبحت هذه السورة أكثر سور القرآن ترتيلاً وقراءة في تاريخ الإسلام بل في تاريخ الأرض ووجود بني آدم عليها، إن إجراء عملية حسابية بسيطة لعدد الذين تجب عليهم الصلاة من المسلمين أو لمن يؤدي الصلاة اليومية من أهل الإسلام وعدد المرات التي تقرأ فيها الفاتحة في كل صلاة منها يظهر أرقاماً عالية، تبهر العقول وتكون حجة إعجازية ودعوة للتدبر في القدرة الإلهية على إنقياد الناس للإسلام ولقراءتها، وفيه إشارة إلى حملها لأسرار تتعلق بأهل الأرض وأحوالهم واستمرار معيشتهم ودرء البلاء عن الجماعات والأمم، وكذا الأمر بالنسبة لعدد الركعات ومجموعها عرضياً.

أن سورة الفاتحة جبل رباني مبارك ممتد بين القرآن وبين الصلاة وطريق يومي يسلكه المسلم مرات عديدة لتلاوة القرآن والامثال لأمره تعالى.

لذا فان تسمية سورة الفاتحة بالصلاة تتضمن دلالات خاصة وآلاء تحث على التأمل والدراسة والاجتهاد في الإستنباط وإستنتاج الثمرات المشتركة بين قراءة السورة وأداء الصلاة وتضفي على السورة شرفاً وقدسية إضافية وتجعلها مناسبة للأجر والثواب.

العاشر : سورة الدعاء

لتضمن السورة على قوله ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾^(١) ومع أن آيات الدعاء موجودة في الغالبية العظمى من سور القرآن إن لم يكن في كل آية منها منطوقاً أو مفهوماً وأن قراءة القرآن بحمد ذاتها شكر ودعاء وباب لقضاء الحوائج، إلا أن هذه التسمية جاءت لسورة الفاتحة خاصة لقيام كل مسلم مكلف بقراءتها عدة مرات في اليوم فيكون بها مواظباً على الدعاء ومبتعداً عن الغفلة، وملتجئاً إلى الله عز وجل قاصداً المسألة بعنوان أولي مستقل أو أن الدعاء والإلتجاء يأتي ضمناً وعرضاً بأداء فريضة الصلاة وقراءة الفاتحة فيها.

وسورة الفاتحة شاهد في باب الدعاء على (قانون أهلية المسلمين لوراثة الأنبياء ، لتعاهدهم لسلح الأنبياء وهو الدعاء). فبسورة الفاتحة يتوجه المسلمون إلى الله لطلب الرغائب، ومن الآيات أن هذه الرغائب ذات صبغة إيمانية محضة، وتدلل على الإنقطاع إلى الله ورجاء فضله في الدنيا والآخرة ، قانون ترديد المسلم كل يوم مرات عديدة ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾^(٢)، بالصلاة الواجبة وغيرها.

ومن الآيات أن يأتي الدعاء في سورة الفاتحة بصيغة الجمع (اهْدِنَا) مع اتحاد الموضوع وهو الصراط المستقيم، ليتلقى كل مسلم أجر وثواب الدعاء بالسنة كثيرة متعددة لم يعص الله بها، لقانون قيام كل مسلم

(١) سورة الفاتحة ٦.

(٢) سورة الفاتحة ٦.

بالدعاء لنفسه وللمسلمين جميعاً ، ودعاؤه لنفسه يؤهله للسؤال لغيره من المسلمين ، وهو سر من أسرار الآية القرآنية ووجوب قراءتها في الصلاة اليومية.

فإن قلت إن المسلمين فازوا بهذه النعمة بفضل الله بنزول القرآن ، قلت : لذا أفتتحت السورة بالثناء على الله تعالى ، وتعظيم مقامه لتصبح قراءة الفاتحة سياحة في حضرة الملك الجبار ، وشهادة حضورية ، وإخباراً عن فتح باب الإلتزام للإسلام لكل إنسان .

الحادي عشر : سورة الشكر

لأنها ثناء على الله تعالى ومدح له وإقرار بنعمه وتوالي أياديه وإحسانه وإفتتاح السورة بالحمد الذي هو رأس الشكر كما ورد في الحديث ، وللمبالغة في الثناء وإفادته الاستغراق لأفراد الزمان إلى جانب ما فيه من مضامين الثبوت والدوام وظهور تعظيم الباري لإنعامه على اللسان بحسن الوظيفة.

والشكر من مقامات السالكين ، ويتألف المقام هنا من علم يتم به تعيين المنعم وموضوع الإنعام ، ويتفرع عن العلم الحال وهي الغبطة التي تحصل بتلقي النعمة ، والإحساس بها ، ويترشح إنطباقاً لإظهار حال الحب والإمتنان للمنعم.

فجاءت الآية شكراً لله تعالى على النعم مع صيغة التعظيم والتفخيم لمقام الربوبية بما يؤكد علم المسلم بأن النعم التي عنده فضل من الله عز وجل وأنه سبحانه يستحق الشكر المقرون بالتعظيم.

ومن فضل الله تعالى أن هدى المسلمين إلى شكره والثناء عليه بتلاوة آيات سماوية تفضل الله بتلاوتها على النبي محمد بواسطة الملك جبرئيل لتكون ضياء ينير لهم دروب الحياة ، ويهديهم إلى الصراط المستقيم ، قال تعالى ﴿ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ ﴾ ^(١) ،

الثاني عشر : الشفاء

وهو لغة ما يبرئ من السقم كالدواء، وسميت هذه السورة بهذا الاسم لبيان أهميتها في ساعة المرض ولثبوت نجاح العلاج فيها ولما روي عن النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بأنها شفاء وسبيل علاج لما يلم بالإنسان المؤمن من مرض.

روي عن النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال : فاتحة الكتاب شفاء من كل داء"، وعن الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام قال: "من لم يبرئه الحمد لم يبرئه شيء"^(١).

هذا إلى جانب الشواهد والآيات التي رآها المسلمون بأجيالهم المتعاقبة بخصوص منافع هذا السورة وأثرها الفاعل في الشفاء والنجاة من المرض.

الثالث عشر : الشافية

ذكر هذا التسمية لسورة الفاتحة الزمخشري في الكشاف، وروي عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: "فاتحة الكتاب شفاء من السم"^(٢).

والسم: القاتل وإطلاق هذه التسمية على سورة الفاتحة ومن قبل النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وثيقة ملكوتية وبشارة وحرز وتوكيد على اعتبارها وقاية وعلاجاً فتسميتها بالشفاء على لسان الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم وإن جاءت بصيغة الخبر إلا أنها دعوة لإتخاذها علاجاً ووقاية وحرزاً، وكثيرة هي الشواهد التي تدل على صدق وإنطباق هذا الاسم عليها، فيمكن القول أن هذه التسمية من الأدلة على صدق ما يخبر به النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأنه لا ينحصر بالقرآن بل يشمل غيره ومن ذلك علوم القرآن وأسرار آياته وسوره.

(١) مجمع البيان ٦٨/١.

(٢) الثعلبي / الكشف والبيان ٢/١.

ومن هذا الحديث ونحوه تستظهر الحاجة لتأليف مجلدات خاصة بأسرار وفوائد وعلوم السور والآيات القرآنية من السنة النبوية الشريفة.

الرابع عشر : الوافية

الوافية لغة التام الذي لا نقصان فيه واستوفى حقه إذا أخذه تاماً وكاملاً، وسميت سورة الفاتحة بهذا الاسم لأن من لازمها أن تستوفى في كل صلاة سواء كانت فرضاً أو نافلة، ولا يجوز تجزئتها أو قراءة شطر منها في الركعة الواحدة، وقيل أن سفيان بن عيينة كان يسميها بهذا الاسم. والإستيفاء بالفاتحة أعم من أن ينحصر بالقراءة، بل يتعلق بمضامينها القدسية، وما فيها من أسباب الهداية والرشاد، وهي مدرسة في الدعاء والإلتجاء إلى الله تعالى.

الخامس عشر : الأساس

وهو لغة أصل البناء وقاعدته التي يقوم عليها، ولتسمية السورة بهذا الاسم وجوه منها أنها أول سورة من القرآن على قول لم يثبت، وأنها مشتملة على أشرف المطالب وإسمى الغايات، ولما روي عن ابن عباس أن لكل شي أساساً وساق الحديث إلى أن قال وأساس القرآن الفاتحة، وأخرج الثعلبي عن الشعبي "أن رجلاً شكاً إليه وجع الخاصرة فقال: عليك بأساس القرآن، قال: وما أساس القرآن قال: فاتحة الكتاب" (١).

السادس عشر : الكافية

يقال كفى الشيء يكفي كفاية إذا حصل به الإستغناء عن غيره فهو كاف، وسميت هذه السورة بالكافية لأنها تكفي عن سواها ولكن غيرها لا يكفي عنها، وذكر الطبرسي تأييداً لهذه التسمية ما رواه عبادة بن الصامت عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم انه قال: "أم القرآن عوض

(١) السيوطي / الدر المنثور ١/١٢.

عن غيرها وليس غيرها عوضاً عنها^(١).

ومجيء الاسم بصيغة الإطلاق (الكافية) يفيد الأعم في موضوع الكافية، فهي حرز للمسلم وواقية من الشرور، كما أنها تكفي في القراءة عند الضرورة وضيق الوقت في دلالة على وجود مصداق عملي حاضر لكافية سورة الفاتحة.

السابع عشر : سورة الكنز

أصل الكنز المال المدفون ثم إتسع ليشمل كل ما يقتنيه الإنسان ويجمعه ويدخره متخذاً إياه لعاقبته، وسميت السورة بهذا الاسم لإشتمالها على أصول معاني القرآن ولأنها كنز وخزينة من عالم الملكوت، وتشير التسمية في دلالتها إلى أهمية السورة وما في قراءتها من المنافع الدنيوية والثواب العظيم وما يدخره المسلم ليوم الحساب بمواظبته على قراءة سورة الفاتحة وإستغنائه بها يوم الفقر الأكبر، لما تتضمنه من الإقرار بالعبودية لله والإستعانة بالله تعالى والإنقطاع إليه بالمسألة.

هذا إلى جانب ما ورد عن النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم: "بأنها أشرف ما في كنوز العرش"^(٢).

الثامن عشر : الرقية

الرقية كدمية وهي لغة العوذة التي يرقى بها صاحب الآفة كالحمى والصرع وغيره من الآفات، ذكر هذا التسمية ابن كثير في تفسيره.

وسبب التسمية ما جاء في حديث أبي سعيد الخدري قال: "انطلق نفر من أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم في سفرة سافروها حتى نزلوا على قوم فاستضافوهم فأبوا أن يضيفوهم"^(٣).

فلدغ سيد القوم فسعوا له بكل شيء، فقال بعضهم لو أتيتم هؤلاء

(١) الطبرسي / مجمع البيان في تفسير القرآن ١٧/١.

(٢) مجمع البيان ٥١/١.

(٣) السنن الكبرى للبيهقي ٦ / ١٢٤.

الرهط الذين نزلوا فاتوهم فسألوهم فقال بعضهم نعم والله اني لأرقى ولكن والله لقد إستضفناكم فلم تضيفونا فما أنا براق لكم حتى تجعلوا لنا جعلاً فصالحوهم على قطيع من الغنم فانطلق يتفل عليه ويقرأ الحمد لله رب العالمين فكأنما نشط من عقال .

فأنطلق يمشي وما به قلبة، فأوفوهم جعلهم الذي صالحوهم عليه فقال بعضهم أقسموا، فقال الذي رقى لا تفعلوا حتى نأتي النبي صلى الله عليه وآله وسلم فنذكر له الذي كان فننظر ما يأمرنا فقدموا على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فذكروا له فقال وما يدريك أنها رقية ثم قال: اصبتم اقسما واضربوا لي معكم سهماً ، وضحك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم^(١).

وتدل الرواية على ان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هو الذي أطلق هذه التسمية والصفة على السورة، وفي القصة مضامين أخلاقية وعرفانية تستدعي الوقوف عندها بإجلال مقرون بالتحليل وإستنباط المعارف ووجوه الحكمة شأنها في ذلك شأن الروايات الأخرى للعهد الإسلامي الأول.

لقد أقر النبي صلى الله عليه وآله وسلم ما فعلوا، ومن السنة تقريره صلى الله عليه وآله وسلم، إلى جانب إستبشاره بفضل الله وشركته بقسمة الجعل رمزاً للإمضاء والود وروح التواضع.

لقد بادر هذا الصحابي إلى اتخاذ سورة الفاتحة رقية من غير نص بسبب صدق اليقين والهام أني قدفه الله في روعه حجة وتخفيفاً وتعويضاً عما لقوه من الجفاء وعدم الاستضافة ولزيادة إيمانه وأصحابه، خاصة وان حادث اللدغ جاء بعد صدهم وما أصاب سيدهم بالذات ليكون شفاؤه دعوة لهم لإعتناق الإسلام والاعتصام به، قال تعالى ﴿وَمَنْ يَبْغِ غَيْرَ

الإسلام ديناً فلنَّ يُقْبَلَ مِنْهُ»^(١).

وتجسد هذه الوقائع عملياً المنزلة الرفيعة لسورة الفاتحة والوظيفة التي أنزلت من أجلها وتجعل الإنسان يتحسس عملياً ويدرك بالواقع الملموس ما روي في حقها عن النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وهي تحثنا برفق على السعي الدائم للإستفادة من هذه السورة المباركة والحرص على حضورها في الذهن في أوان الحاجة وعند الفراغ أيضاً ولعل الأسرار التي تحتويها هذا السورة أكثر من تلك التي ظهرت منها.

وقد ذكر السيوطي في الإتقان أن اسم السورة "الراقية" والمعنى واحد ويدل على أهلية الموضوع لتعدد الاسم.

التاسع عشر : القرآن العظيم

القرآن اسم لكتاب الله الذي أنزله تعالى على النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وهو مصدر كالغفران، وقد يطلق على الصلاة لما فيها من قراءة لبعض سور القرآن الكريم تسمية للشيء ببعضه، وعلى القراءة نفسها يقال: قرأ يقرأ قراءة وقرآنًا.

وقيل سميت الفاتحة به لإشتمالها على المعاني التي في القرآن، وروي النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال في الفاتحة: "هي أم القرآن وهي السبع المثاني وهي القرآن العظيم"^(٢).

وعن أبي سعيد بن المعلّى قال: "كنت أصلي فدعاني النبي صلى الله عليه وآله وسلم فلم أجبه، قلت يا رسول الله: اني كنت أصلي، قال: ألم يقل الله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ﴾"^(٣) ثم قال: ألا أعلمك أعظم سورة في القرآن قبل أن تخرج من المسجد فاخذ بيدي، فلما أردنا أن نخرج قلت: يا رسول الله انك قلت لأعلمنك أعظم سورة من

(١) سورة آل عمران ٨٥.

(٢) تفسير ابن كثير ١/١٠٢.

(٣) سورة الانفال ٢٤.

القرآن، قال: الحمد لله رب العالمين، هي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته^(١).

العشرون : السبع

لأن السورة سبع آيات وهي الوحيدة من سور القرآن التي لها هذا العدد من الآيات ولييان أن البسملة آية منها، وفيها سبع آداب في كل آية أدب، وقيل لأنها خلت من سبعة أحرف هي الثاء والجيم والحاء والزاي والشين والظاء والطاء، ولكن التسمية تأتي بما يكون موجوداً في الشيء لا بالذي غاب عنه.

ومع هذا فإن خلوها من سبع أحرف لا تخلو من حكمة وتوكيد للتناسق العددي فيها ووجود مفاهيم للصفات السلبية لها. وكان العرب يحسبون السبعة ومضاعفاتها من الأعداد الكثيرة، وفيه تفخيم لسورة الفاتحة، وجاء القرآن على لغة العرب ليكون حجة عليهم، ومن وجوه الإحتجاج عليهم أن جاءت سورة الفاتحة بسبع آيات فقط، ولكنها تتضمن المعارف الالهية وتبين الصلة بين الرب والمربوب، التي تقوم بالإنتطاع إليه تعالى بالشكر والثناء والدعاء.

الحادي والعشرون : سورة الحمد الأولى

باعتبار أنها أول سورة فيها الحمد وكانت هادية إليه، وبها فتح باب الحمد وشكر الله عز وجل في القرآن سواء بلحاظ النزول أو الترتيب في سور القرآن.

وجاءت آيات كثيرة في القرآن بالحمد لله والثناء عليه تعالى، وجاءت هذه السورة بكاملها بالحمد.

الثاني والعشرون : سورة الحمد القصرى

في القرآن خمس سور تبدأ كل واحدة منها بالحمد لله بعد البسملة،

(١) ابو جعفر المنصور محمد بن جرير الطبري ٢٢٥-٣١٠ هجرية / تفسير سورة الفاتحة/١٣.

وسورة الفاتحة أقصرهن وأقلهن في عدد الآيات، فأيات كل سورة منهن تساوي أضعاف عدد آيات سورة الفاتحة لذلك سميت بالقصرى ولبيان سهولة قراءتها وحفظها، والتقسيم والإفراد يدل على الأهمية، وهو دعوة لإكرامها وإيلائها عناية خاصة.

الثالث والعشرون : فاتحة القرآن

لأن القرآن يبدأ بها وأنها أول سورة تفتح بها قراءته، وهذا الاسم للسورة ذكره السيوطي عن المرسى^(١).

وجاء اسم سورة الفاتحة مطلقاً، وفيه وجوه:

الأول: هذا الاسم مقيد بأنها فاتحة القرآن، فهل يحمل المطلق على المقيد حسب قواعد علم الأصول، وأن اسم الفاتحة مطلقاً يراد منه فاتحة القرآن، للتبادر وظهور الموضوع، وهو إختصار لفاتحة الكتاب كما تقدم ذكره في تسمية (سورة الفاتحة).

الثاني: اسم الفاتحة أعم، ويراد منه الإبتداء في القرآن وغيره.

الثالث: اسم الفاتحة اسم علم جاء خصيصاً لهذه السورة ولا ينحصر بموضوع الإبتداء.

والصحيح هو الأول، والتعدد في أسماء السورة لموضوعيتها وعظيم نفعها وجزيل ثوابها ودلالة الأسماء المتعددة على ذات المسمى.

الرابع والعشرون : سورة السؤال

سميت به لأن فيها طلب الهداية، ورجاء حسن الإنابة.

لقد جعل الله عز وجل الإنسان محتاجاً، والحاجة ملازمة لعالم الإمكان، ثم تفضل الله سبحانه وفضل المسلمين على غيرهم من الأمم، قال سبحانه ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾^(٢).

ومن مصاديق تفضيل المسلمين على غيرهم من الأمم سورة الفاتحة

(١) الإتيان في علوم القرآن ٦١/١.

(٢) سورة ال عمران ١١٠.

فهي سلاح في السؤال من عند الله، والذي يدل بالدلالة التضمنية على الإقرار بالعبودية لله تعالى، وعدم إمكان الإستغناء عن رحمته، وأنه سبحانه القادر على قضاء الحوائج، وتيسير سبل الهداية ومن السؤال في السورة قوله تعالى ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾^(١).

الخامس والعشرون : سورة تعليم المسألة

سميت الفاتحة بهذا الاسم لما فيها من آداب السؤال بالإضافة إلى إبتدائها بالثناء على الله تعالى كمقدمة لطلب الحاجة. وسورة الفاتحة نعمة من عند الله، ومدرسة في المعارف الإلهية، فمن اللطف الإلهي أن يهدي الله عز وجل المسلمين إلى كيفية وموضوع المسألة، فلم يأت فيها السؤال عن حوائج الدنيا وحدها، بل تضمنت سؤال السلامة في الدنيا والنجاة في الآخرة.

السادس والعشرون : سورة النور

لما تولده السورة في الصدر من إشراقات مباركة، ونزعة للإيمان وتوجه للهداية والرشاد وما تتضمنه من المعارف والعلوم وأبواب الحكمة. وتبعث كل آية من آيات القرآن النور في قلب المسلم، وتأتي سورة الفاتحة لتقذف النور والبهجة في قلوب المسلمين لما فيها من مفاهيم العبودية والمسألة، والشوق إلى مقام الربوبية، وإستحضار ذكر الله تعالى بالثناء عليه سبحانه.

السابع والعشرون : سورة المناجاة

المناجاة لغة: الإستخلاص للسريقال نجاه مناجاة أي ساره، وسميت السورة بهذا الاسم لأن المسلم يناجي بها ربه ويخاطبه ويتحدث إليه بروح التقوى ولسان الصلاح، قال تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلَا

تَتَّجَاوُ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَتَتَّجَاوُ بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَى ﴿١﴾.

والمناجاة في سورة الفاتحة هي قول العبد ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾^(١) وتفيده أيضاً آيات أخرى من السورة ومضامينها العامة، وتتجلى معاني المناجاة واضحة في الفاتحة لكل إنسان.

الثامن والعشرون : سورة التفويض

يقال فوض إليه الأمر تفويضاً أي رده إليه وخوله إرادة التصرف وجعله الحاكم فيه، وفي التنزيل ﴿وَأَفْوضُ أُمْرِي إِلَى اللَّهِ﴾^(٢) وسميت السورة بهذا الاسم لإشتمالها على قوله تعالى ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾^(٣)، كما أن التفويض في السورة لا ينحصر بهذه الآية فقط، بل بالإقرار بالمعاد وإنفراد الله تعالى بالملك والسلطان يوم القيامة وبسؤال الهداية.

ويدل التعدد في عناوين اسم السورة على قدسيته، وما تتضمنه من العلوم، وما لها من مكانة عند المسلمين وسمو مراتب الفضل التي تمتاز بها وما أولاهها النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم من عناية إلى جانب ما في قراءتها من الثواب.

وهو توكيد على تعاهد حفظها واستحضارها والمبادرة إلى تعليم الصبيان قراءتها وتدبر الكبار في معانيها ومضامينها السامية التي تجمع أصول العلوم ومناهل الحكمة وسبل الرشاد.

ويمكن أن تقسم تلك الأسماء حسب روايتها إلى أقسام :

الأول : الأسماء التوقيفية الواردة عن النبي محمد صلى الله عليه وآله

(١) سورة المجادلة ٩.

(٢) سورة غافر ٤٤.

(٣) سورة الفاتحة ٥.

وسلم بإعتبار أنها عناوين ثابتة ذات وظائف محددة تشتمل منها رائحة البركة ولها مدلولات وغايات رسالية وفيها غنى وإكتفاء، خاصة وأن عددها ليس بالقليل، وكان الأئمة من آل محمد الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً يذكرون السورة بالأسماء التي ورثوها عن النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وهذه الأسماء يمكن تقسيمها إلى شطرين:

الأولى: علم أصلي.

الثانية: تفسيري وتبعي.

فالرواية المذكورة في التسمية الثالثة "سورة الحمد" تبين إن اسم الحمد علم أصلي، و(أم القرآن) تفسيري وهكذا.

الثاني: الأسماء التي وردت عن صحابة النبي صلى الله عليه وآله وسلم لمعاصرتهم لأيام نزول القرآن، ولمعرفتهم للمدى الذي يستطيع التحرك في إطاره من المباحات والمندوبات، وللزوم النظر بعين الإحترام لتلك الأقوال مجردة لموضوعية الصحة بعناوينه الإجمالية ومفاهيمه التاريخية ولما كانوا عليه مجتمعين ومتفرقين من الحيلة والحذر من التكلم في القرآن بالرأي.

الثالث: الأسماء التي وردت عن التابعين بإعتبار أنهم سمعوا صحابة النبي صلى الله عليه وآله وسلم واخذوا عنهم إلى جانب عنايتهم بالقرآن وإشتغالهم اليومي بتفسيره، وإجتهداهم في البحث والتحقيق بأحكامه وعلومه، وحذرهم وتوقيهم من التعدي.

الرابع: الأسماء التي ذكرها المفسرون والفقهاء مما لم يرد ذكر لها في العصر الإسلامي الأول.

الخامس: الأسماء التي أستلت بألفاظها من بيان النبي صلى الله عليه وآله وسلم لمنزلة سورة الفاتحة، وعظيم منافعها كما في اسم الشفاء.

السادس : الأسماء التي أشتبعت عناوينها من أقوال النبي صلى الله عليه وآله وسلم وتفسيره للسورة، والأخبار عن فضائلها وثواب قراءتها كما في تسميتها بالكافية.

ويمكن أن نقسم الأسماء حسب ما يتعلق بوظيفتها وما يرتبط بماهية المطالب وأبواب العلوم التي تتضمنها السورة، وهناك صور متعددة للتعامل مع وجوه التسمية أهمها:

الأول : إقرار الأسماء التوقيفية الواردة عن النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم، والنظر بعين الدراسة والتحليل للأسماء التي ذكرها غيره، وإختيار ما هو مناسب منها وفق أسس إسلامية ذات صيغ موضوعية وأحكام منهجية هادفة.

الثاني : أن نمضي جميع تلك الأسماء كونها تراثاً إسلامياً لا يخلو كل فرد منه من منافع كانت علة لإيجاده أو غاية له.

الثالث : دراسة كل اسم بصورة مستقلة دراسة منهجية تتناول جميع جوانبه وإستنتاج وإستخراج المناسب منها، أو توزيع تلك الأسماء على أبواب متعددة حسب قواعد وضوابط علمية محددة.

الرابع : التحقيق في أسماء السورة بلحاظ السنة والدلالة وجهة الصدور والوظيفة العملية.

الخامس : الإكتفاء بذكر الأسماء التي ذكرت للسورة من غير النظر في الاختلاف بين طبقاتها وسمات كل منها بإعتبار أنها مجتمعة ومتفرقة تمثل تراثاً إسلامياً وعناوين قرآنية تضمنتها بطون كتب التفسير وأمضاها كبار الفقهاء والمفسرين عبر القرون الماضية.

السادس : إتخاذ أسماء سورة الفاتحة والبحوث المتقدمة الخاصة بها منهجاً ونبراساً في دراسة أسماء السور القرآنية الأخرى. وإذا كان الإلتقاء عند رأي محدد أزاء تسمية السورة القرآنية أمراً ليس

سهلاً فإنه أيضاً ليس بالمتعذر، ولا يكون الوصول إلى ساحله صعب المنال، خاصة وأن التراث الإسلامي قد وثق الأسماء بتشخيص جهة الصدور وتحديد دلالاتها.

السابع : أن نتسامح في بقاء باب التسمية مفتوحاً ليؤتى بأسماء جديدة للسورة مستنبطة من آيات السورة وأحكامها ونضيف لها أسماء جديدة مناسبة وتعليل هذا الفعل بأنه زيادة في الحث على التدبر في مضامين السورة وتوسع في التفسير وتفصيل في التأويل خاصة وأن مثل هذا الفعل بعيد عما نهى عنه من القول في القرآن بالرأي، وأن بعض الأسماء التي مر ذكرها جاء بها تابعوا التابعين وربما ابتداءً وبياناً ويمكن أن نضيف أسماء أخرى لأسماء السورة ، تستقرأ من معانيها ومضامينها القدسية وما لها من الدلالات العقائدية وهي:

التاسع والعشرون : سورة الثناء

لما فيها من الثناء على الله عز وجل، وروي عن النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم قال: "ليس شيء أحب إليه الحمد من الله تعالى ولذلك أثنى على نفسه فقال الحمد لله"^(١).

والثناء المدح و الفخر، وهو المراد في المقام، وتتضمن سورة الفاتحة المدح والثناء على الباري عز وجل، إذ تبدأ بالحمد والشكر له تعالى، وحتى آيات الدعاء في السورة فإنها تتضمن الثناء والشكر لله تعالى باللجوء إليه والإقرار له بالربوبية وأن مقاليد الأمور كلها بيده سبحانه.

الثلاثون : سورة الإقتران

للملازمة بين دخول الإسلام وقراءة الفاتحة ولزوم تعلم قراءتها وحفظها.

وما أن يصل المسلم أو المسلمة سن البلوغ حتى يتوجه لهما الخطاب التكليفي بأداء الصلاة والتي تتضمن وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة من

(١) تفسير الطبري ٦٠/١.

ركعاتها، وكذا الذي يدخل الإسلام يجب عليه تعلم سورة الفاتحة وقراءتها في الصلاة، ومن شرف السورة أن حفظها واجب على كل مسلم ومسلمة.

الحادي والثلاثون : سورة الإبتداء

لإبتداء المسلم القرآن بها وكذا دلالاته وتفسيره وبها، يبدأ ترتيب سور القرآن.

لابد للسورة التي يبدأ بها القرآن من خصوصية، لذا جاءت آيات سورة الفاتحة مدحاً لله تعالى ومسألة وتضرعاً والتجاء وإحترازاً مما أصاب الأمم السابقة.

ومن الآيات تحقق الملازمة بين إفتتاح القرآن وإفتتاح القراءة في الصلاة، فكلاهما يبدأن بسورة الفاتحة.

الثاني والثلاثون : سورة المناسبات

إذ أن الفاتحة تقرأ عند الإجتماع في المآثم وهو متعارف في كافة أنحاء العالم الإسلامي وتقرأ في المنتديات والمجالس.

الثالث والثلاثون : سورة العقود

تقرأ الفاتحة عند إبرام عقود النكاح والبيع وغيرها وكأنها شاهد قرآني على العقود لتوثيق شهادة البينة.

الرابع والثلاثون : سورة العلوم

لما فيها من المعارف الربانية والأصول والقواعد.

الخامس والثلاثون : المنجية

لأنها باب للنجاة من الأذى والشر والهلكة، وقد تكون سبباً للنجاة من الموت جاء عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام ما يؤكد المنافع الدنيوية العظيمة لاتخاذ هذا الكنز سلاحاً وسبيلاً للشفاء والنجاة والفوز فقد قال في سورة الفاتحة: "انها من كنوز العرش وأنها لو قرأت على ميت سبعين مرة ثم ردت فيه الروح ما كان عجباً".

السادس والثلاثون : سورة الأصول والفروع

لما تتضمنه من الاحكام التكليفية والوضعية ومبادئ الإرادة التكوينية والشريعة.

السابع والثلاثون : السورة البكر

لأنها لم ترد في الكتب السماوية السابقة فقد جعلها الله عز وجل هبة للمسلمين واکراماً لهم، وفيه دلالة على إستحقاقهم لهذه المنزلة والعز والتشريف بتعاهدهم لها وحفظهم لها هيئة ومادة وقولاً وعملاً فلا تجد مسلماً الا وهي مكتوبة في صدره وتملأ جوانحه.

وفي الخبر عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: "والذي نفسي بيده ما انزل الله في التوراة ولا في الإنجيل ولا في الزبور ولا في الفرقان مثل هذه السورة وأنها السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته"^(١).

الثامن والثلاثون : الميسرة

ورد قوله تعالى ﴿فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ﴾^(٢) وكانت سورة الفاتحة هي التي تقرأ في كل فريضة، فقد يسر الله عز وجل لكل مسلم حفظها، ومن اللطف لزوم قراءتها في الصلاة اليومية وبذا تنفرد بخصوصية إعجازية، وكانت نموذجاً للقرآن المدخر في القلب والذي تجتمع الأمة على حفظه وتعاهده، إنه تشريف سماوي خاص بسورة الفاتحة، لذا ترى شطراً من المسلمين حينما يقرأ سورة في الصلاة يخشى أن يخطأ فيها أو ينسى بعض كلماتها أو حروفها إلا سورة الفاتحة.

التاسع والثلاثون : سورة الكمال

لأن بها تتم الصلاة وعليه الإجماع والنصوص وهي من دونها وعن

(١) الكشف والبيان ٣٦٢/٧.

(٢) سورة المزمل ٢٠.

النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم: "لا صلاة إلا بفاتحة الكتاب"،^(١) وفي صحيحة محمد بن مسلم عن أبي جعفر عليه السلام: "سألته عن الذي لا يقرأ بفاتحة الكتاب في صلاته قال: لا صلاة إلا أن يقرأ بها في جهر واخفات"، ونسب إلى أبي حنيفة القول بأن قراءة الفاتحة غير واجب، ونقل الرازي قوله: (إن صحة الصلاة غير موقوفة عليها، وأضاف وهذا من العجائب)^(٢).

ولكن عدم توقف صحة الصلاة على جزء من أجزائها أعم من الوجوب وعدمه إذ أن واجبات الصلاة تنقسم إلى قسمين واجبات ركنية وواجبات غير ركنية، فالقراءة من الواجبات غير الركنية وهي التي تبطل الصلاة بتركها عمداً ولا تبطل بتركها سهواً ونسياناً أي لو نسي المصلي قراءة الفاتحة حتى ركع صحت صلاته مع إقراره بأنها واجب (وقال بعضهم: أخاف إن تركت الفاتحة أن يعاتبني الشافعي، أو قرأتها يعاتبني أبو حنيفة، فأخترت الإمامة)^(٣).

ولا تصل النوبة لمثل هذا الكلام وقد ورد عن النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: لا صلاة إلا بفاتحة الكتاب^(٤)، ودخل حرف النفي على الصلاة مما يدل على أن قراءة الفاتحة شرط في صحتها، وليس هو سبب كمال.

الأربعون: الواقية

يقال وقيت الشيء أقيه إذا صنته وحفظته من الأذى القادم وورد التوقي في القرآن والسنة بالسعي لإجتناّب دخول النار، قال

(١) البيان في تفسير القرآن ٢٨٤/١.

(٢) تفسير الرازي ١٧٠/١.

(٣) الدر المنثور ٥٩٤/١.

(٤) تفسير الرازي ١٧٢/١.

تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ...﴾^(١).
ويمكن القول (بقانون من أسباب الإحتراز من النار والوقاية منها قراءة سورة الفاتحة والمواظبة عليها في الصلاة).

روي ان جبريل عليه السلام قال للنبي صلى الله عليه وآله وسلم: "يا محمد، كنت أخشى العذاب على أمتك، فلما نزلت الفاتحة أمنت، قال: لم يا جبريل؟ قال: لأن الله تعالى قال ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾^(٢) لها سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم^(٣)، وآياتها سبع فمن قرأها صارت كل آية طبقاً على باب من أبواب جهنم، فتمر أمتك عليها منها سالمين^(٤).

الحادي والأربعون : سورة الإتحاد

لأن المسلمين جميعاً يلتقون في قراءتها في الصلاة، العالم والجاهل، والسيد والعبد، والأب والولد، والرئيس والمرؤوس والذكر والأنثى.

الثاني والأربعون : الحاضرة

من الآيات في سورة الفاتحة انها تحضر في الوجود الذهني ساعة الحرج والعسر والخوف لأمر:

الأول: أنها لجوء إلى الله عز وجل.

الثاني: تتضمن الآية التمجيد والثناء على الله تعالى.

الثالث: السورة وثيقة سماوية تؤكد عظيم قدرة الله عز وجل، وانه لا تستعصي عليه مسألة.

الرابع: في الآية إخبار عن الربوبية المطلقة لله تعالى في الدنيا والآخرة فهو رب العالمين، وهو مالك يوم الدين.

الخامس: تتضمن الآية في مفهومها الوعد الكريم بالرحمة الإلهية

(١) سورة التحريم ٦.

(٢) سورة الحجر ٤٣ - ٤٤.

(٣) مفاتيح الغيب ١/١٧٥.

والمطلقة، والإنسان ممكن محتاج لرحمة الله تعالى في السراء والضراء، ومن الآيات ان يأتي اسما الرحمن والرحيم في البسملة في آية مستقلة من السورة (روى الشافعي عن مسلم عن ابن جريج عن ابن أبي مليكة عن أم سلمة أنها قالت: قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم فاتحة الكتاب فعد بسم الله الرحمن الرحيم آية، الحمد لله رب العالمين آية، الرحمن الرحيم آية، مالك يوم الدين آية، إياك نعبد وإياك نستعين آية، إهدنا الصراط المستقيم آية، صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين آية، وهذا نص صريح)^(١).

الثالث والأربعون : سورة الذكر

في قراءتها يذكر الله عز وجل وصفاته الحسنی فهو الرحمن الرحيم ورب العالمين ومالك يوم الدين، وكثير من المسلمين وفي كل زمان حين يريد ذكر الله ويشتاق اليه يبادر الى قراءة سورة الفاتحة وتكرارها برضا وسعادة .

الرابع والأربعون : سورة العوض

تكون هذه السورة بدلا لغيرها ، ولكن غيرها لاتكون بدلاً وعوضاً عنها، كما في القراءة في الصلاة، وورد عن عبادة بن الصامت عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم انه قال: "أم القرآن عوض عن غيرها وليس غيرها عوضاً عنها"^(٢).

النزول

ترشح عن تلاوة سورة الفاتحة ووظيفتها في الصلاة وما لها من منزلة في نفوس المسلمين شوقاً لمعرفة مكان نزول السورة وجعل المفسرين والفقهاء يتحدثون عن موضوع النزول بعناية وحرص ، خاصة وان الأمر يتعلق بالسورة التي تقرأ كل يوم في الصلاة و(لقانون للفاتحة منزلة خاصة

(١) تفسير الرازي ١/١٧٧.

(٢) الطبرسي / مجمع البيان في تفسير القرآن ١/١٧.

في تاريخ الإسلام) وفي نزولها ذكرت أقوال وهي:

الأول: هي مكة، أي أنها نزلت على النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بمكة المكرمة قبل هجرته الى المدينة المنورة واستدل على ذلك بأمر منها قوله تعالى ﴿وَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾^(١) من سورة الحجر وهي مكة، والروايات الواردة عن النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم حاكمة بان سورة الفاتحة هي السبع المثاني، ولغة الماضي الذي تنطق بها الآية تشير إلى الأخبار عن تقدم نزول سورة الفاتحة، و﴿آتَيْنَاكَ﴾ وتفيد انه تم إعطاؤك هذا على فرض أن السبع المثاني اسم شخصي خاص لسورة الفاتحة وأن المقصود في هذه الآية هو سورة الفاتحة.

ولقد عززت قراءة المسلمين لسورة الفاتحة في الصلاة القول بانها مكة إذ أن الصلاة شرعت في مكة وليس هناك دليل على عدم قراءتها في الصلاة قبل الهجرة من مكة، وربما ذهبوا الى هذا القول بلحاظ أصالة عدم النقل لأنه أصل عقلائي ولكنه أمر ينظر فيه في باب وضع الألفاظ خاصة كما لو علمنا أن لفظ السفينة مثلاً هو الفلك الجاري في البحار فربما أوجب ذلك الظن بانه كان قديماً، وكذا في الصلاة باجزائها المتعارفة الآن ولكنه باب لا يصلح لإثبات حكم كلي ولا دليل لحجية مثل هذا الظن كما تقرر في علم الأصول.

إن اليقين بثبوت صفة مثلاً في الزمان اللاحق والمتأخر لا يستلزم بالضرورة الظن بثبوتها في الزمان السابق والمتقدم عليه الذي كانت فيه تلك الصفة مشكوك الوجود، وإن جاء القول بأن ما ثبت يمتلك أسباب الدوام.

ولحاظ (الإستصحاب القهقري) وهو ان يكون المشكوك مقدماً والمتيقن متأخراً فيأتي الإستصحاب بعكس عنوانه المصطلح أمر لم يقل به

أحد من الأصوليين حتى في باب الأخبار، لعدم دخوله ضمن قاعدة لا تنقض اليقين بالشك) ولإنعدام وجود مستلزمات اليقين وزمانه، تلك المستلزمات التي تحول دون ترتيب آثار الشك.

لذا قد يتم التساؤل عما يدل على كونها جزءاً من الصلاة قبل الهجرة عندما كان المسلمون في مكة وإن الصلاة في بداية تشريعها كانت كما هي عليه في عهد النبي صلى الله عليه وآله وسلم في المدينة وإلى يومنا هذا.

والظاهر أنها كانت موجودة جزء من الصلاة في مكة، وتسالم المسلمون على وجودها في الصلاة يبعث على الطمأنينة بأنها كانت تقرأ في مكة خصوصاً وأن أصل تقسيم القراءة في الصلاة إلى جهرية وإخفائية كان في مكة، لأن المشركين كانوا يؤذون النبي صلى الله عليه وآله وسلم في النهار، والفاطحة عمود القراءة في الصلاة ولو كانت قراءة الفاتحة مستحدثة في المدينة لظهر ذلك في أخبار الصحابة وأحاديثهم وبيانهم لمراحل الإرتقاء في الأحكام والسنن، وترى موضوع النسخ في القبلية متعارفاً وثابتاً تاريخياً وعليه شواهد من آيات القرآن وردت على نحو الإخبار وفي التنزيل ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقْبَيْهِ﴾^(١).

ولم يتحدث أحد عن الركوع والسجود وإحتمال إستحداثهما في المدينة للتسالم على كونهما ركناً من أركان الصلاة، فكذا بالنسبة لسورة الفاتحة، إن ما تتصف به سورة الفاتحة وما تحتله من عظيم المنزلة أماره على كونها من أوائل السور القرآنية النازلة على النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بالإضافة إلى النص الذي يدل على نزولها في مكة.

إن الظن بعدم ثبوت قراءتها في الصلاة قبل الهجرة لا يؤثر سلباً في القول بأن السورة مكية إستناداً الى الأخبار والقرائن الأخرى خصوصاً وأن كثيراً من السور هي مكية مع غياب الدليل على قراءتها في الصلاة

آنذاك ولا يجب الإصرار المجرد على اعتبارها مكية لإعتبارات تتعلق بالصلاة وماهيتها وعناوينها التشريعية والحرص على قدسيتها ففي الصلاة ما نسخ في المدينة وهو اتجاه القبلة التي هي واجب في الصلاة، نعم يمكن الاستدلال بقول النبي صلى الله عليه وآله وسلم "لا صلاة الا بفاتحة الكتاب" على كون السورة مكية لان الصلاة شرعت في مكة ولم تعهد صلاة في الإسلام بغير فاتحة الكتاب.

هذا بالإضافة إلى الأخبار عن أهل البيت عليهم السلام والصحابة بهذا الصدد.

وقد روي عن الإمام علي عليه السلام انه قال: "نزلت فاتحة الكتاب بمكة من كنز تحت العرش"^(١).
وأخرج ابن الأنباري في المصاحف عن عبادة قال: "فاتحة الكتاب نزلت بمكة".

وروي عن إسحاق بن يسار عن رجل من بني سلمة قال: "لما أسلم فتیان بني سلمة وأسلم ولد عمرو بن الجموح قالت امرأة عمرو له: هل لك أن تسمع من إبنك ما روي عنه فقال: أخبرني ما سمعت من كلام هذا الرجل، فقرأ عليه الحمد لله رب العالمين الى قوله الصراط المستقيم، فقال: ما أحسن هذا وأجمله وكل كلامه مثل هذا؟ فقال: يا أبتاه وأحسن من هذا وذلك قبل الهجرة"^(٢).

وقد روي عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام انه قال: "رن إبليس أربع رنات أولهن يوم لعن، وحين أهبط إلى الأرض، وحين بعث محمد صلى الله عليه وآله وسلم على حين فترة من الرسل، وحين نزلت أم الكتاب..."^(٣) الحديث.

وليس فيه ما يدل على نزولها بمكة إلا بالدلالة الإلزامية لأنها

(١) السيوطي / الاتقان في علوم القرآن ١٢/١.

(٢) السيوطي / الدر المنثور ١١/١.

(٣) الصدوق / الخصال ٢٦٣/٢.

عنوان الصلاة، ولموضوعيتها في القراءة عند المسلمين ولما فيها من المطالب السامية ولأن هذه المنزلة العظيمة تفيد بالبرهان حاجة المسلمين إليها، خصوصاً في أيام الإسلام الأولى في مكة.

الثاني: نزلت مرتين مرة في مكة وأخرى في المدينة مبالغة في تشريفها فهي "مكية مدنية"، وقد ذكر أنها سميت مثاني لأن الله عز وجل أنزلها مرتين، وذكر هذا القول السيوطي المتوفى سنة ٩١١ هجرية قائلًا: وذهب بعضهم إلى أنها نزلت مرتين مرة بمكة ومرة بالمدينة^(١).

ولكنه لم يوضح من هو هذا البعض وزمانه والدليل الذي إستند إليه، وقال فخر الدين الرازي المتوفى سنة ٦٠٦ هجرية: قال بعض العلماء هذه السورة نزلت بمكة وبالمدينة مرة أخرى^(٢).

وما ذكر لا يصلح أن يكون معارضاً لما ورد من كون السورة مكية لأن الدليل في اعتبارها مكية يوفر لها عدة مزايا وأسباباً للترجيح لأن صلاح الرواية في إستنباط الحكم متوقف على أصالة الصدور المتعلقة بالسند كعدالة الراوي وإشتهار الرواية بين أهل التفسير والحديث، وكذلك جهة الصدور أي أن الخبر في بيان الحكم الواقعي وأصالة الظهور أي أنها نص ظاهر.

وعلل بعضهم نزولها مرتين بجواز نزولها في المرة الأولى على حرف واحد ونزولها في الثانية ببقية وجوه القراءة نحو ملك ومالك، والسرط والصرط وشبه ذلك وهو ضعيف.

وقال بعضهم قد يتكرر نزول الآية تذكراً وموعظة أو تعظيماً وتوكيداً لمنع النسيان وإحتماله، لذا ذهب جماعة إلى القول بنزول بعض آيات القرآن بتكرار.

الثالث: من أنكر نزول القرآن وآياته مرتين، وقال بأنه تحصيل لما هو حاصل، وهو قول إعتبره آخر مفتقراً إلى معرفة وملاحظة وجه الفوائد

(١) السيوطي / الاتقان في علوم القرآن ١/١٢.

(٢) مفاتيح الغيب ١/١٧٧.

المتقدمة في تكرار النزول إن كان واقعاً، ويمكن التساؤل هل النزول الثاني بنفس منزلة وعنوان النزول الأول وبعرض واحد معه، أم أنه أدنى منه ولكن يصدق عليه أنه تنزيل.

والأقوى أنها نزلت مرة واحدة في مكة وإذا كان هناك دليل على نزولها مرة أخرى فيحمل على النزول مجازاً ولكن مثل هذا الدليل لم يثبت.

ولقد كان جبرئيل يعارض النبي صلى الله عليه وآله وسلم في كل سنة مرة وفي السنة الأخيرة من حياة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم في الدنيا عارضه به مرتين، والمعارضة في المقام تعني المقابلة والمدارسة ولا تكون نزولاً ثانياً ونحوه.

الرابع: نزلت الفاتحة نصفين، نصفها في مكة ونصفها في المدينة، حكاها أبو الليث السمرقندي^(١)، ونقله القرطبي عنه، وهذا القول خلاف ظاهر التنزيل والسيرة وليس من دليل معتبر عليه.

صحيح أن آيات من بعض السور المكية نزلت بالمدينة وهي مذكورة ومحددة مع بيان أسباب النزول فهي قرائن ودلالات، ولكن القائل بأن الفاتحة نزلت نصفين لم يتمكن من بيان ما نزل منها بالمدينة، وقول السيوطي: الظاهر أنه النصف الثاني ضعيف ولذلك إستدرك قائلاً: لا دليل لهذا القول.

إن مثل هذا القول قد يكون في نقله مجرداً خالياً من الرأي مع ضعفه

(١) ذكره ابن كثير في تفسيره ١٤/١، وأبو الليث / نصر بن محمد بن محمد بن إبراهيم له تفسير للقرآن معروف بتفسير أبي الليث السمرقندي مخطوط في ثلاث مجلدات كبار، وفي مكتبة الازهر نسختان مخطوطتان منه، وله كتب أخرى. توفي سنة ثلاثمائة وثلاث وسبعين للهجرة، وذكر ابن كثير لها بلغة الحكاية، ومتابعة السيوطي له في ذلك كما ورد في الاقتان في علوم القرآن ١٢/ تدل على غياب الاسناد. بالإضافة الى تأخر زمانه عن أيام الرسالة والنزول اذ انه من اهل القرن الرابع الهجري مما يضعف هذه الحكاية ويقلل من أهميتها والإلتفات إليها، والعلم عند الله.

سنداً ودلالة فيكون سبباً للإنشغال والإرباك عند غير ذوي العلم من أهل الإسلام خاصة وأنه لا يمتلك مقومات التعارض والحجية ، والكشف عن المراد.

والمعروف أن السور المكية تتصف بالقصر وقلة عدد الآيات وإن كل سورة نزلت مرة واحدة في مكة، والفاتحة تتصف بخصوصية زائدة وهي أنها جزء واجب في الصلاة على القول بقراءة المسلمين لها في مكة في صلاتهم.

الخامس: إنها نزلت بالمدينة، ذكروا هذا القول عن مجاهد .

(قال الحسين ابن الفضل لكل عالم هفوة وهذه بادرة من مجاهد لانه تفرد بهذا القول والعلماء على خلافه ومما يقطع به على أنها مكية قوله تعالى: (ولقد آتيناك سبعا من المثاني والقرآن العظيم) يعني الفاتحة^(١) . وقال الطبراني حدثنا عبيد بن غنام انبأنا ابو بكر بن ابي شيبة انبأنا أبو الأحوص عن منصور عن مجاهد عن أبي هريرة: "أن ابليس رن حين أنزلت فاتحة الكتاب ونزلت بالمدينة"، ويحتمل إن الجملة الأخيرة مدرجة من قول مجاهد.

وإذا كان منشأ هذا الاحتمال نقل آخرين القول ذاته عن مجاهد فهناك أيضاً من نقل (عن أبي إسحاق عن أبي ميسرة)^(٢) "أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان إذا برز سمع منادياً يناديه يا محمد فقال: لبيك، قال: قل أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله، ثم قال: قل الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم مالك يوم الدين حتى فرغ من فاتحة الكتاب)^(٣).

ونسب إلى الإمام علي بن أبي طالب، القول بنزولها في مكة، مما يعني أن موضوع الخبر والواقعة في مكة، ولا تدل الرواية في مفهومها على أن

(١) الواحدي / أسباب النزول ٥/١.

(٢) أبو ميسرة هو مولى العباس بن عبد المطلب، ذكر في الصحابة.

(٣) النيسابوري / أسباب النزول / ١١.

الفاتحة أول سورة أنزلت .

ويمكن الجمع بين هذه الرواية والروايات التي تنص على أن سورة العلق هي أول ما نزل من القرآن والنداء أعم من النزول بلغة القرآن.

عدد كلمات وحروف

وكل آية من سورة الفاتحة يبلغ عدد كلماتها ثلاث أو أربع كلمات بل حتى إثنين كما في قوله تعالى ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾
أما في الآية الأخيرة فان عدد كلماتها تسع كلمات، وعدد حروفها أربعون حرفاً.

وعدد كلمات سورة الفاتحة (٢٩) كلمة وعدد حروفها (١٣٩) حرفاً مع ألف مالك ، وهي مع التشديدات (١٥٦) حرفاً.

قوله تعالى ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ الآية ١

الإعراب واللغة

الباء حرف خفض كسر لبيان الفرق بين الحرف وبين ما يخفض وقد يكون إسمًا نحو الكاف، وأطلق النحاة الكوفيون على حروف الجر اسم الإضافة باعتبار أنها تضيف الفعل إلى الاسم وتربط بينهما، وسميت حروف الصفات لأنها تحدث صفة في الاسم كالظرفية مثلاً، وقالوا بأن الباء وما بعدها متعلقة بمحذوف، وموضعها عند البصريين الرفع على تقدير: إبتدائي باسم الله، فيكون الظرف من الجار والمجرور خبراً للمبتدأ.

وقال الفراء ان موضعها نصب بمعنى ابتدأت باسم الله أو ابدأ باسم الله الرحمن الرحيم فيكون ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ في موضع نصب مفعولاً به، وهذا القول هو الاقرب لقوله تعالى ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾^(١) بلحاظ أن القرآن يفسر بعضه بعضاً، او ان الباء متعلقة بمحذوف تقديره باسم الله إقرأ يجعل اسم الله مقدماً على عنوان القراءة.

وتقديم اسم الجلالة مناسب لفلسفة الوجود وعلم الكلام فالقراءة كفعل من الممكن متأخرة زماناً، وللقارئ فيها حاجة لفقره ونقصه، ويصدر تأخر الفعل رتبة عن الاسم لأن الفعل مركب من الذات والحركة والحيز الإضافي.

(وقيل الباء للمصاحبة والمعنى متبركاً باسم الله تعالى أقرأ)، أو إقرأ مصاحبة إسمه تعالى كما تقول: اذهب بامان الله وحفظه وهذا القول قد لا يرتقي إلى درجة ما سبقه لأن مفهوم باء المصاحبة هو إمكانية مجيء

(مع) في موضعها أو الاستغناء بالحال عنها وعن مصحوبها مثل ﴿وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكَفْرِ﴾^(١) أي معه أو كافرين.

وَقَالَ الْكَسَائِيُّ الْبَاءُ لَا مَوْضِعَ لَهَا مِنَ الْإِعْرَابِ، وَالْمُرُورُ وَاقِعٌ عَلَى مَجْهُولٍ إِذَا قُلْتَ: مَرَرْتُ بِزَيْدٍ^(٢).

الألف في (إسم) للوصل لأنك تقول سمى، ويترجح الضم فيها على الكسر، كما أنها تحذف لفظاً وخفضاً في (إبن) عندما يتوسط علمين بشرائط محددة، كذلك قيل بحذفه في بسم الله الرحمن الرحيم خاصة. وإستشهد بعض علماء العربية بشعر لا يمكن إعتباره حجة في المقام فضلاً عما فيه من البعث على التأمل، وهو قول:

أَفِي الْحَقِّ أَنْ يُعْطَى ثَلَاثُونَ شَاعِراً

ويحرم ما دون الرضا مثلي

كما ساحوا عمراً بواو مزيدة

وضويق ((بسم الله)) في ألف الوصل

لقد ذكرت أقوال متعددة في حذف ألف اسم من الخط في بسم منها:

الأولى : ما قاله الفراء وهو كثرة الإستعمال.

الثانية : لأن الباء لا تنفصل.

الثالثة : حذفت لأنها ليست من اللفظ، ذهب إلى هذا القول الأخفش.

الرابعة : لأن الأصل سم، (بكسر الأول) وسم وقد ورد في النوادر

لأبي مسحل سبحان من في كل سورة سِمه (بكسر الأول)، وربما حذفت حسب علم الرسم - لأنها جاءت بعد الباء في مضاف لاسم الجلالة بينما تراها ثابتة في (باسم ربك).

(١) سورة المائدة ٦١.

(٢) النحاس / اعراب القرآن ١١٦/١.

ومما يرد على القول الأول أنه ورد في سورة هود أيضاً ﴿بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمَرْسَاهَا﴾^(١)، بحذف ألف، وعلى غيره أيضاً إتصال الباء باسم من غير حذف للألف في أربعة مواضع من القرآن، قال تعالى ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾^(٢)، وأجاز الكسائي حذف الألف في قول باسم الخالق وباسم الباري ولكن العمل المتعارف على خلافه.

وأضيف اسم إلى ((الله))، والرحمن صفة لله عز وجل مجرور ولا يشئ ولا يجمع لأنه لا يكون إلا لله عز وجل، والرحيم صفة أيضاً مجرور والعامل في الصفة هو العامل في الموصوف، وقال الأخفش: العامل فيهما معنوي وهو كونهما تبعاً، قالوا ويجوز نصبهما على إضمار يعنى على المدح، والرفع على إضمار مبتدأ بتقدير هو، ويجوز خفض الأول ورفع الثاني، ورفع أحدهما ونصب الآخر، وهذا القول يمكن النظر له في باب أوجه الصناعة النحوية لأن القراءة بكسرهما متواترة.

الباء حرف هجاء من حروف المعجم، ولها إثنا عشر معنى أحدها الإستعانة وهي الداخلة على آلة الفعل حقيقة نحو كتبت بالقلم أو مجازاً كما في بسم الله الرحمن الرحيم وتقدير المحذوف.

ومن معانيها أيضاً المصاحبة وهو أكثر استعمالاً من الإستعانة في الباء خاصة في المعاني ونحوها، والأقوى أن الباء في البسملة جاءت للإستعانة لما تتضمنه من وجوه الأدب والإستكانة والالتجاء إلى الله وإظهار الضعف والعجز والإفتقار إلى أسباب الحول والقوة، وغير ذلك مما لا يخفى من الحسن واللفظ في الإستعانة.

ولكن معنى الإستعانة لا يمنع من تضمن باء البسملة لعنوان المصاحبة وفيه إشارات من وجوه الفصاحة والبيان ومناسبة الحال والموضوع وما

(١) سورة هود ٤١.

(٢) سورة الواقعة ٧٤.

يتعلق بمقام الربوبية وعظيم جلال الألوهية وموافقة التبرك باسم الله تعالى لمظاهر التأدب والخضوع له المقرون بالتعظيم، إلى جانب أنه حرب على المشركين الذين كانوا يتدأون بأسماء آلهتهم وفيه مسائل :
الأولى : الرد على المشركين.

الثانية : صد لسريان أسباب الشرك واعمال الكفر إلى غيرهم.
الثالثة : إنه منهاج جهادي لتخليصهم من واقع الجهل والضلالة الذي كانوا يعيشون.

والتبرك باسم الله تعالى دعوة ظاهرة للتوحيد ولجميع الناس من غير حاجة إلى التوقف على التأويل بأنه آله ما لا يهتدى إليه إلا بنظر دقيق مع غير قصده ذاتاً والجمع بينهما أمر ممكن ومعقول.
والحقيقة أن كلا المعنيين مناسبان للمقام ويصلحان للتعريف ويمكن أن تكون الباء للسببية كما تقول أكرمت زيداً بإيمانه أي بسبب إيمانه فبسبب حاجتي لله عز وجل ولأنه هو الرحمن الرحيم فاني أقرأ بإسمه تعالى.
وتكون الباء للإلصاق أيضاً كما لو قلت أمسكت بزيد ولو على نحو المجاز ، ويصدق الإمساك ولو بجزء تابع له كالثياب فإن الإبتداء باسم الله كنز وذخيرة في النشاطين هدى الله المسلمين للتمسك به وهو من عمومات قوله تعالى ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾^(١).

وجاءت الباء في ﴿بسم الله﴾ للإلصاق والمعنى ابدأ باسم الله تلاوة القرآن وفعل الطاعات لتكون البداية مباركة ويتغشى اسم الله والعمل العبادي المسلم ليكون في حرز وواقية.

في سياق الآيات

يتضمن هذا المبحث الشريف دراسة وتفسير الآية بلحاظ موضعها في

القرآن والملازمة بينها وبين الآيات التي سبقتها أو جاءت متعقبة لها، وتنفرد البسملة هنا بعدم وجود آية قرآنية سابقة لها فيكون بحثها منحصرأً بصلتها مع الآيات اللاحقة، وهذه الصلة أيضاً تتصف بخصوصية لما في البسملة من أنوار قدسية تفيض على القارئ وتملاً جوانحه وتساهم في إقباله وتأهيله لقراءة الآيات القرآنية الأخرى وتفتح صدره لفهمها والتدبر في معانيها.

ومع ان البسملة تتعلق في علم سياق الآيات بما بعدها فقط فانها أعظم وأفضل الآيات في هذا الباب فيتعلق موضوع الآية القرآنية بالآيات التي قبلها وبعدها.

أما البسملة فتترشح فيوضاتها على تلاوة جميع آيات السور وإن كثرت، لأنها تتضمن الإعلان بإفتتاح التلاوة بسم الله عز وجل وهذا الإفتتاح يتغشى آيات السورة كلها.

ويتجلى اللطف الإلهي بالمسلمين بإبتداء القرآن بالبسملة لتكون واقية ووسيلة سماوية مباركة لإنجاز الأمور وقضاء الحوائج وإزالة الموانع، وعوناً للإنبعاث نحو المقاصد السامية .

إعجاز الآية

لقد وردت النصوص بقرب بسم الله الرحمن الرحيم إلى اسم الله الأعظم من ناظر العين إلى بياضها، وفي بعضها أنها أعظم آية في كتاب الله، وبالإضافة إلى ما تحتويه هذه الآية من الأسرار فإن تكرارها الدائم وإفتتاح القراءة والأقوال والأعمال بها سر قرآني وجزء من فلسفة وجود الإنسان في الأرض، بالإضافة إلى ما في قراءتها من الثواب وعظيم نفعها في الآخرة.

وستبقى البسملة شعاراً إسلامياً حاضراً في كل مناسبة وملاذاً ودليلاً، ووجودها في أول كل سورة من سور القرآن إلا براءة دعوة للمواظبة على قراءتها وتعاهدها وحفظها وملازمتها وعدم التفريط فيها لعظيم نفعها وبركاتها خصوصاً وأنها تتضمن مع قلة كلماتها ثلاثة من أسماء الله عز

وجل.

وبلحاح قراءتها في الصلاة اليومية فإنها عنوان وحدة المسلمين وهذا من الإعجاز الغيري للقرآن، فلا يختلف إثنان من المسلمين وفي كل الطبقات والأماكن في وجوب قراءة سورة أو عدة آيات مع الفاتحة في الصلاة.

وهذه الآية من وجوه تفضيل المسلمين بنزولها وترتيبها في أول القرآن وافتتاح السور كلها بها، وتلاوة المسلمين لها في الصلاة، وعند كثير من المعاملات والحاجات وتسليمهم بموضوعيتها في حياتهم اليومية الخاصة والعامة، وما من مسلم أو مسلمة إلا ويقر بالحاجة إلى البسملة وما لها من المنافع العظيمة.

والبسملة جزء من الإعجاز البلاغي للقرآن فمع قلة كلماتها فإنها تتضمن قوة المعاني وجزالة الألفاظ والإختيار الإلهي لاسم الجلالة واسم الرحمن واسم الرحيم، وذكر كل واحد منها، وإجماعها في هذه السورة أمور تستلزم الشكر لله تعالى على لطفه وفضله تعالى على المسلمين.

ويمكن تسمية هذه الآية بآية "البسملة"

وعن (أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: "الحمد لله رب العالمين سبع آيات: بسم الله الرحمن الرحيم إحداهن، وهي السبع المثاني والقرآن العظيم، وهي أم الكتاب")^(١). مما يدل على أن تسمية سورة الفاتحة الحمد لله رب العالمين لا يعني أن البسملة ليست منها، إنما هي آية مستقلة منها، وهي أول آية في نظم القرآن.

و(عن جابر بن عبد الله أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: كيف تقول إذا قمت إلى الصلاة؟

قال: أقول: الحمد لله رب العالمين. قال: قل: {بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ

الرحيم} (١).

(عن أبي مليكة عن مسلمة أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان يقرأ {الدين} يعني يقطعها آية آية حتى عد سبع آيات عد الأعراب) (٢).

وسأني مزيد كلام في باب : لماذا يذكر النبي صلى الله عليه وآله وسلم عدد آيات السور في الجزء الواحد والخمسين من من هذا السفر في تفسير قوله تعالى ﴿ نَزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابُ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ﴾ (٣).

وعن (الحسين بن عبد الله عن أبيه عن جدّه (٤) عن علي بن أبي طالب أنه كان إذا افتتح السورة في الصلاة يقرأ {بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ} ، وكان يقول : من ترك قراءتها فقد نقص. وكان يقول : هي تمام السبع المثاني والقرآن العظيم) (٥).

إفادات الآية

يتطلع الناس جميعاً إلى أول آية من آيات أفضل كتاب في الوجود وهو القرآن من وجوه:
الأول: قانون القرآن آخر الكتب السماوية، فليس هناك كتاب بعده.
الثاني: قانون القرآن هو الناسخ لغيره من الكتب وليس لأي آية من آياته ناسخ من غيره.

الثالث: قانون القرآن جامع لعلوم التنزيل، وأسرار التأويل.
الرابع: قانون نزول القرآن على أفضل الأنبياء والمرسلين محمد صلى

(١) الكشف والبيان للثعلبي ١٧/١.

(٢) الكشف والبيان للثعلبي ١٧/١.

(٣) سورة آل عمران ٣.

(٤) أي الحسين بن عبد الله بن ضميرة.

(٥) الكشف والبيان للثعلبي ١٧/١.

الله عليه وآله وسلم.

ومع الإقرار بأن كل آية منه ذات خصوصية، وأنه ليس من فضل لآية على آية لأن آيات القرآن كلها كلام الله عز وجل، وليس من فارق رتبي بينها بلحاظ التقديم أو التأخير، أو الموضوع والحكم.

ومن الناس من يحب أن يعلم ما هي أول آية في القرآن وما هي منافعها ودلالاتها، فتطل على الأرض بإشراقه قدسية آية "بسم الله الرحمن الرحيم" باعتبارها كنزاً سماوياً مدخراً للمسلمين لكونهم ﴿كُتِبَ خَيْرُ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾^(١).

ويتخذ كل مسلم ومسلمة البسملة ملاذاً وملجأً وهي جبل مبارك ممتد من السماء إلى الأرض يدعو المسلمين للتمسك به، ومن الآيات (قانون كلمات البسملة قليلة وسهلة النطق والحفظ.

قانون خلو من غير أسماء الله تعالى، وليس فيها إلا اسم الجلالة واسم الرحمن الرحيم وكل واحد منها يدل على أمور :
الأول : قانون توالي النعم الإلهية ، والبسملة من مصاديق قوله تعالى ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾^(٢).

الثاني : قانون سعة رحمة الله وتغشيتها للناس جميعاً .

الثالث : قانون في البسملة سلامة من الغلو .

الرابع : قانون البسملة حرز من الإستعانة بغير الله .

الخامس : قانون البسملة دعوة لنبذ الشرك.

وفي الدعاء عن الإمام علي عليه السلام: "يا من دل على ذاته بذاته"^(٣) وجاءت البسملة هنا لتكون دلالة على وجوب عبادة الله، فهي سبيل الى الهدى والتفكر بآيات الله وبديع صنعه، وتجعل البسملة قلب

(١) سورة آل عمران ١١٠.

(٢) سورة النحل ١٨.

(٣) البحار ٣٣٩/٨٤.

الآية لطف

ابتداء القرآن بالبسملة شاهد على أن القرآن لطف محض وفيض متصل، وتبعث البسملة الأمل في نفس المسلم عند قراءتها، لقد أنعم الله عز وجل على الإنسان ونفخ فيه من روحه ليكون صلة بين الرب والمربوب، وتفضل وجعل بدايته "بسم الله الرحمن الرحيم" لتسبح روحه في عالم الملكوت ويتخذ التوكل على الله سلاحاً يقهر به الصعاب، وفي البسملة أمور:

الأول: أنها جذبة من جذبات الخالق للعبد بقيد الإسلام.

الثاني: إنها نعمة ورحمة إختص الله بها المسلمين.

الثالث: قانون البسملة حرز من الآفات وأسباب الهلكات.

الرابع: قانون البسملة واقية من غلبة النفس الشهوية والغضبية، ومن وسوسة الشيطان.

الخامس: قانون البسملة وسيلة سماوية مباركة للإرتقاء في مراتب المعراج.

والبسملة سر من أسرار خلق الإنسان وشاهد على تعاهد الإنسان لوظائف الخلافة بان يتلو البسملة ويجعلها بداية لعمله ومفتاحاً لقوله، وفيها تأديب للمسلمين والناس جميعاً، ودعوة لإستحضار ذكر الله تعالى في حال الشدة والرخاء.

وحينما إحتجت الملائكة على جعل آدم خليفة في الأرض لأن الإنسان يفسد في الأرض ويسفك الدماء رد الله عز وجل عليهم بقوله سبحانه ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾^(١)، فأذعن الملائكة مسبحين، ومن علم الله عز وجل في المقام إمتلاك المسلمين لسلاح البسملة وإبتدأهم به في عباداتهم وأعمالهم، وهو من مصاديق الفلاح والذكر المتصل في الأرض.

وهل البسملة من مصاديق الذكر في قوله تعالى في وصف المتقين ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ﴾^(١)، الجواب نعم لأن البسملة ذكر ونوع توكل على الله، وعزم على الشروع بما يرضي الله.

وورود البسملة في بداية القرآن من مصاديق إمامة القرآن للناس جميعاً، لوجوه :

الأول : قانون البسملة فيها من الهداية إلى الرشاد وسبل النجاة.
الثاني : قانون البسملة حضّ على إفتتاح الأعمال الفردية والعامة بسم الله تعالى .

الثالث : قانون تلاوة البسملة نزع لرداء الكبرياء عن الإنسان سواء من يقوم بتلاوتها أو من يستمع له أو يسمعه .

الرابع : قانون البسملة هي حرب على الشرك والضلالة .
الخامس : قانون البسملة سلاح سماوي لجذب الناس إلى منازل التوحيد وإخلاص العبودية لله تعالى وهي من مصاديق العبادة في قوله تعالى ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾^(٢).

من غايات الآية

للبسملة غايات كريمة على وجوه:

الأول : ما يتعلق بكلماتها وما فيها من الأسماء الحسنى، فكل اسم فيها مدرسة في المعرفة الإلهية، ودليل ينير دروب الهداية للمسلمين، فمع كثرة أجيال المسلمين المتعاقبة، وإتساع رقعة الإسلام فان البسملة سلاح

(١) سورة آل عمران ١٣٥.

(٢) سورة الذاريات ٥٦.

مبارك ينحل بعدد المسلمين ليكون نفعاً محضاً، وخيراً متصلاً.

الثاني: إبتداء سورة الفاتحة بالبسملة، واختلف المسلمون في جزئية البسملة من السورة أو عدمها، ولكنهم إتفقوا على أنها آية من سورة الفاتحة، وتلك آية في تفقه المسلمين بالقرآن وعلومه، وشاهد على عدم وجود زيادة او نقيصة في القرآن.

لقد أراد الله عز وجل للمسلمين التشريف والإكرام بأن تلهج ألسنتهم بأسمائه الحسنى ويتغشاهم النفع العام من ذكر الله تعالى والخشية منه، وإقتران الخشية بالحب لله تعالى، فكما أن نزول البسملة عنوان لحب الله للمسلمين، فإن قراءة المسلم للبسملة شاهد على حب المسلم لله تعالى، وغرقه في جلاله وإقراره بكرمه وجوده وإحسانه وواسع رحمته تعالى.

الثالث: ما في البسملة من المعاني القدسية، ومضامين البركة، وتجزي البسملة عن الإستعاذة، وهي على وجوه :

الأول: قانون البسملة مناسبة كريمة للإقبال بشوق على آيات القرآن.

الثاني: قانون البسملة مقدمة للتزود والنهل من علوم التنزيل.

الثالث: في البسملة نزع للإنشغال بالدنيا وهمومها .

الرابع: قانون البسملة مانع للكدورات الظلمانية والحجب

الجسمانية.

ومنافع البسملة أعم من أن تنحصر بالدنيا، فتشمل أمور الدين والدنيا، وتنفع القارئ والسامع من المسلمين في الدنيا والآخرة، وجعلها الله قربة من كل مسلم بلحاظ وجودها في أول كل سورة، وقراءتها في الصلاة اليومية لتكون لها موضوعية في حياته، وتصير ملجأ يلجأ إليه لقضاء حوائجه وطلب الرزق وهي جزء من بلاغة القرآن.

وبالبسملة مقدمة كريمة للدعاء، بل هي ذاتها دعاء وإستغاثة ولجوء إلى

الله تعالى قال تعالى ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾^(١)، وتفضل سبحانه وجعلها فاتحة كريمة للكتاب ، وبداية لفاتحة أول سورة منه.

الآية سلاح

إجماع عامة المسلمين على أن البسملة سلاح وعون في الشدائد وواقية وحرز وهداية ورشاد، ويشعر الجميع بالحاجة لها في الضراء والسراء. وهي الآلة المعنوية للشروع في العمل، وتبعث على التوجه نحو المعبود عند ابتداء العمل لتكون مناسبة للشكر القولي والقلبي، وإستحضاراً لذكر الله تعالى .

ومن الآيات في ماهية المسلم أن يبادر إلى البسملة عند الشروع في فعل أو إتخاذ قرار أو إيقاع أو إجراء عقد .

ومن أسرار تفضيل المسلمين في قوله تعالى ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾^(٢) ورود آية البسملة في القرآن وحضورها في الحياة العملية اليومية ، وفيه وجوه:

الأول: قانون تشريف المسلمين بنزول آية البسملة على النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وتلقيهم لها.

الثاني: قانون آية البسملة شاهد على تفضيل النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم على الأنبياء الآخرين ونيله مرتبة تلقي هذه الآية من عند الله وتعاهد أمته لها.

الثالث: إختصاص القرآن بالإفتتاح بآية البسملة دليل على تفضيل القرآن على الكتب السماوية.

الرابع: قانون إنتفاع المسلمين من آية البسملة في أمور الدين والدنيا.

(١) سورة غافر ٦٠.

(٢) سورة آل عمران ١١٠.

لقد إقترنت البسملة بالمسلمين، وهي صاحب كريم لهم إلى يوم القيامة لا تفارقهم ولا تغادرهم لتكون وسيلة ملكوتية لدفع الشرور والنحاسة وأسباب الكدورة.

وهي من مصاديق قانون الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، قال تعالى ﴿وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾^(١).

بحث أصولي

تمتلك الألفاظ خصوصية تؤهلها للدلالة على معانيها التي وضعت لها وإن لم تكن ذاتية كدلالة إحمرار الوجه الطارئ على حال الخجل، أو دلالة التسخين على النار، وإنما دلالة الألفاظ على معانيها تكون بالجعل والتخصيص وبتوسط الوضع، لذا تراها تختلف من لغة إلى لغة، فالكتاب مثلاً يسمى بألفاظ مختلفة بتعدد اللغات العالمية وإن كان المسمى واحداً، ولكن الوضع لكل أمة يجمع في التصور بين اللفظ والمعنى. وينقسم الوضع على المشهور إلى أربعة أقسام وفق التقسيم العقلي الإستقرائي: أحدها هو الوضع عام والموضوع له خاص، فالموضوع له لم يقصد بذاته ومن هذا القسم الحروف، وأسماء الإشارة، والضمائر، وأسماء الإستفهام.

وبلحاز المقارنة أو الجمع بين وضع الحرف والاسم وجوه :

الأول : اتحاد الموضوع بين الاسم والحرف إذا كان يقصد بكل منهما ذات المعنى فكأنهما من المترادف كما في (الباء) والسبب، و(على) والإستعلاء، و(من) وإرادة الإبتداء بها أو كلمة الإبتداء، أي إن المعنى واحد إن قلت الفاتحة إبتدائي، أو: ابتدأت من الفاتحة، والفرق أن الحرف ليس له معنى مستقل.

الثاني : ليس للحروف معان في الأصل والوضع بل أن معانيها تترشح على ألفاظها من الإستعمال وينتقل السامع في تصوره إلى معناها بحسب كثرة الإستعمال والتوظيف.

الثالث : التباين بين المعنى الإسمي والحرفي فالاسم له معنى مستقل في ذاته، أما الحرف فقد عرف كما هو شائع بأنه ما دل على معنى في غيره، وهذا لا يعني نفي ما له من موضوعية واعتبار في المعنى، ولكنه غير مستقل بالمعنى كالاسم وكأنه نسب وارتباط.

إن عدم إستقلال الحرف بالمعنى ذاتاً كالحرف الباء، من، إلى، لا يعني عدم موضوعيته وتعدد وظائفه بل بالعكس إن الماهية المهمة وعدم تكون معنى مستقل للحرف لضعفه ونقصه إلا مع غيره تجعلنا لا نحصر مفهومه في الآية القرآنية تفسيراً وتأويلاً بمعنى دون غيره وإنما ننظر لها وفق ما أطلقنا عليه.

قانون (المعنى الأعم) في علوم القرآن، وبالسعة والشمول خصوصاً في موضوع إبتلائي متجدد يتكرر عدة مرات كل يوم، وفي ميادين متعددة وهو الإتيان بالبسملة إذ نحتاجها في الصلاة والتذكية وتستحب في أفعال كثيرة سواء آلة ومقدمة لفظية مباركة للإبتداء أو للتبرك والإلتجاء والإجزاء عن الإستعاذة.

وحري بعلماء التفسير أن ينظروا بعين السعة.

وبيان تأويل الآيات وإتخاذ الصناعة النحوية وقواعدها وسائل وأبواباً للمعرفة في العلوم الربانية والسياسة الفكرية في مطلع الآية وحدها وأوجه الكلمة القرآنية المتعددة وعدم الوقوف عند وجه نحوي أو بلاغي واحد أو النظر من زاوية وعلم واحد، خصوصاً وأن هذا التقسيم والتفصيل في معاني الباء إستقرائي.

مفهوم الآية

وإفتتاح القرآن بالبسملة إشرقة نورانية دائمة تبعث الفيض والبركة على الأرض والسكينة لمن تحتها من الأموات، ومجيء البسملة باسم

الجلالة والتقديس المطلق عنوان التشريف لأهل الأرض بذكر مرتبة الألوهية الجامعة لمضامين الربوبية والقيومية وصفات الجمال، والكمالات التي تتضمنها الأسماء الحسنى.

إنه جذب للعقول ودعوة للإيمان واثبات لعجزها عن درك الذات المقدسة وتوكيد ظهور اسم الله تعالى في القرآن وحجة على كل مخلوق تدل على الخالقية والربوبية المطلقة وانفراده بالتأثير في الذوات والأعراض والأكوان، وما من فعل للملك مقرب أو نبي مرسل إلا بأذنه وأمره فعلاً أو محلاً، إيجاداً أو محواً وهذا الإذن يأتي على نحو القضية الشخصية وزمان مخصوص، وبرهاناً وحجة ودعوة للإيمان ولا يتنافى مع إنفراد الله سبحانه بالولاية التكوينية، قال تعالى ﴿يُذَبِّرُ الْأُمُورَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾^(١).

ولم يأت ذكر الله عز وجل في البسملة بصفة من صفاته الحسنى فقط لأن كل صفة تدل على لحاظ قدسي معين فالرزاق يدل على بسط الرزق لمن يشاء من عباده والرحيم عنوان نشر رحمته وإستدامة رأفته وهكذا بالنسبة للأسماء الحسنى.

فجاء اسم الجلالة في إفتتاح القرآن على وجوه :

الأول : تغشي البركة لحال القراءة .

الثاني : الإستغراق في المعرفة الإلهية.

الثالث : إنه عنوان جامع لصفات الجلال والإكرام.

الرابع : قانون اسم الجلالة يبعث في النفس الشوق إليه سبحانه وهو من أجل المقامات وأكرم الأحوال.

الخامس : قانون الغبطة والسعادة بقراءة القرآن والتدبر في آياته .

والشوق آية ذاتية تجعل النفس تنجذب إلى الشيء وتصل إلى المرام والغاية والسعي والتحرك نحو الكمال الإنساني .

وتنفي البسمة عن النفس الخوف والحزن من لقاء الله تعالى لأن ذكره يجعل النفس تميل إليه ولا تنفر منه.

وعن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه^(١).

ومن مفاهيم البسمة وإفتتاح القرآن بها أنها ذكر لله تعالى، والذكر مطلوب بذاته وهو وسيلة لقضاء الحوائج بلحاظ أن الإنسان ممكن فقير دائم الحاجة لا بد أن يسأل المنعم بصيغة وأدب مناسب. فجاءت البسمة لتكون عند الله تعالى سؤالاً والتجاء وشكراً على نعمة الخلق.

ولو علم الناس ما في تكرار البسمة من قضاء الحوائج ونزول النعم ودفع للنقم لما فارقت ألسنتهم، ولا غابت عن أذهانهم، وهو المستقرأ من النصوص المستفيضة التي وردت بخصوصها وإبتداء القرآن بها علامة على عظيم فضلها وجليل قدرها وهو دعوة لتعاهدتها.

وتقديم الرحمن على الرحيم له دلالات ومفاهيم تتعلق بعظيم رحمة الله، وآثارها يدركها أهل الإشارة وأصحاب العبارة وفي أحوال المبدأ والمعاد ولأن صفة الرحمن ينتفع منها الناس جميعاً في الحياة الدنيا دون الآخرة جاء تقديمها لدعوة الناس إلى الإسلام والتدبر في آيات القرآن ونيل الجزاء العاجل، ومن التلفظ بها، ثم ترد صفة الرحيم وهي خاصة بالمؤمنين وعامة لأحوالهم في النشاطين.

ومن مفاهيم البسمة أمور:

الأول: قانون ترسيخ لواء التوحيد في الأرض.

الثاني: قانون طرد الشرك من النفوس.

الثالث: قانون المنع من سلطان الطواغيت على القلوب وعالم

الألفاظ.

الرابع: قانون البسمة سلاح عقائدي لمحاربة الكفر والجحود.

(١) صحيح البخاري، معاني الأخبار ٣٢٦.

الخامس: قانون البسملة هوية إيمانية وعنوان الوحدة بين المسلمين وإن تباعدت أقطارهم وتعددت جنسياتهم ، وهي من أفراد الأخوة بينهم في قوله تعالى ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾^(١).

السادس: البسملة حرب على الضلالة.

السابع: قانون البسملة فيها دعوة لنبذ مفاهيم الجحود.

الثامن: قانون البسملة سيف موجه إلى الكفار ليعث في نفوسهم الفزع والخوف ويجعلهم يندمون على إقامتهم على المعاصي والذنوب.

التاسع: قانون في البسملة دفع ورفع للجهل والغفلة.

أنها مدرسة علمية قائمة بذاتها وتدل تلاوتها والحرص على تكرارها على التفقه والإرتقاء في منازل المعرفة، وفي مجيء صفة الرحمن والرحيم في بداية القرآن مع الإقتران باسم الجلالة مسائل:

الأولى: قانون اسم الجلالة لطف إلهي محض.

الثاني: قانون اسم الله والرحمن والرحيم في البسملة دعوة للتوبة والإنابة.

الثالث: منع من تسلل الشك واليأس إلى القلوب المنكسرة.

الرابع: البسملة من عمومات قوله تعالى ﴿الْأَبْذِكْرِ لِلَّهِ تَطْمِئِنُّ الْقُلُوبُ﴾^(٢).

الخامس: قانون أسماء الله في البسملة مناسبة لشكر العباد لله تعالى لذا جاءت آية ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾^(٣) بعد البسملة مباشرة بلحاظ أن

(١) سورة الحجرات ١٠.

(٢) سورة الرعد ٢٨.

(٣) سورة الفاتحة ٢.

البسمة نعمة تستحق من المسلمين الشكر لله تعالى وتدل صفة ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ على تغشي رحمة الله تعالى للخلائق كلها.

التفسير

الاسم مشتق من السمو والعلو، لأنه تنويه وإكرام وعنوان العلو، فلو ناديت شخصاً باسم الإشارة وليس الاسم، فقد يكون عرفاً إنتقاصاً واستخفافاً بشأنه، وأختلف في تقدير أصله قيل فعل (بكسر الفاء) وفيه أربع لغات اسم واسم وسم (بالكسر) وسم. ويمكن أن يكون مشتقاً من السمة على مذهب الكوفيين ولكن حجة التي تنبع من أصل الإشتقاق في لسان العرب واسم الشيء وسمه - بحركات السين الثلاثة - وسماء: علامته^(١)، وقيل مشتق من السمو بمعنى الرفعة، والألف فيه ألف وصل وربما جعله بعض الشعراء ألف قطع للضرورة الشعرية كقول الأحيوس:

وما أنا بالمخسوس في جذم ما بك

ولا من تسمى يلتزم الإسم

والاسم أحد الأسماء العشرة^(٢) - وفي المفصل أحد عشر - التي بنيت أوائلها على السكون وتزاد همزة عند الإبتداء بها إجتنباً وتحاشياً من الإبتداء بالساكّن وان كان ذلك جائزاً بلحاظ البراعة ورصانة الألفاظ وأحكام الكلام وسلامة اللغة وتهذيبها واجتناب اللكنة. وكره الإبتداء بالساكّن نطقاً وسمعاً، وكذا الوقوف على المتحرك إذ أن الاول كالأس في تشييد البناء، والثاني كالانتهاء منه وضده، وتسقط هذه الهمزة التي يتوصل بها إلى النطق بالساكّن عند وصل الكلمة بما

(١) لسان العرب ٢٩٧/١٤.

(٢) الأسماء التي ترد فيها همزة الوصل - غير المصادر - عشرة هي: ابن، ابنة، امرؤ، امرأة، اثنان، اثنتان، است، ابنم، أيمن في القسم، **اسم**.

والاسم لفظ للدلالة على جوهر أو عرض ، وعنوان يرمز إليه بمعزل عن الزمان، جعل للتمييز بين الأشياء وللتنويه قال لييد :
إلى الحول ثم اسم السلام عليكما
ومن يَكِ حولاَ كاملاً فقد اعتذر^(١).

بين الاسم والمسمى

أختلف في تعريف ومفهوم الاسم فمنهم من جعله عين وذات المسمى، ومنهم من جعله صفته أي غيره لأن الصفة غير الموصوف ، وقد يراد منه الهوية والوجود، أو اللفظ والمعنى اللاذهني أو مدلول اللفظ أي بينه وبين المسمى خارجاً.

ونسب إلى الأشعرية القول بأن الاسم نفس المسمى وقال المعتزلة ان الاسم غير المسمى وتبدو كفة القول الثاني هي الراجعة وهو المختار ويمكن احتسابه من البديهيات فلماذا هذا الاختلاف .

الجواب : أن النزاع صغروي وأصله التباين في معنى الاسم، فالمعروف أن الاسم هو الصوت المتكون من حروف مؤلفة تنصرف إلى معنى مقصود من القائل ويفهمه السامع ، قال تعالى ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾^(٢).

ومنهم من قال: إن الاسم هو المسمى بعينه وذاته، وعرفه ابو الحسن الأشعري بانه المسمى والعبارات عنه تسميات له، لذا إعتبر الأشعرية التسمية ذات الاسم .

والاسم بالدلالة قد يتبدل أو يختلف بلحاظ الزمان والمكان واللغة والمسمى لا يتبدل، والعكس في الحدوث ممكن أحياناً، والاسم متأخر في وجوده عن المسمى، والشيء لا يتقدم على نفسه ولا يتأخر.
وقد تكون للشيء أسماء كثيرة، وهو المسمى (بالمترادف) وقد يكون

(١) الصحاح في اللغة ٤٥٣/١.

(٢) سورة البقرة ٣١.

لفظ الاسم واحداً ولكنه يقع على أعيان عديدة وهو المسمى (بالمشترك اللفظي) ومع ظهور الفرق بين الاسم والمسمى فإن وظيفة الأول تجعل هذا الفرق يبدو واضحاً في حالات القصد والإعتبار، فاسم الله عز وجل يدل عليه ، وإحاطته بهالة من القدسية أدب تفرضه صيغ الإيمان، وتقرر في الفقه عدم جواز مس الجنب والمحدث لاسم الجلالة (الله) وسائر الأسماء الحسنى والصفات الخاصة للباري عز وجل.

وقيل تعد اهانة اسم الله في اللفظ والكتابة كفر.

وجاء ذكر الاسم في البسملة لعظيم شأن القرآن وبيان أنه نازل من عند الله، وأنه يقرأ من روح الوحي، وأن النبي محمداً صلى الله عليه وآله وسلم جاء به مبلغاً من عند الله عز وجل، وإن آياته وأحكامه نازلة منه تعالى لتثبيت دعائم العبودية في الأرض، ولينال المسلمون الثواب في الدارين وفق القواعد والأنظمة التي وضعها وجعل منها أسساً للشرعية وموازن الثواب والعقاب، كما دأب الناس على ذكر اسم السلطان والملك ذي الشأن العظيم إذا أرادوا فعل أمر لأجله ، ويقول القائل: أعمله باسم فلان، وإن كان قياساً مع الفارق، إذ يتخلف المثل مراتب لا متناهية عن المقام.

إن الإتيان باسم الله تعالى عند الابتداء بقراءة القرآن نعمة دائمة على أهل الأرض لما فيها من معاني التسليم وإظهار الإنقياد والإنصياع لإرادته تعالى إلهاً وملكاً كجزء من الإقرار له بالربوبية ومن دون الخروج عن أحكام العبودية وآدابها وطردها للجهل والتوهم.

بالإسناد عن الإمام الصادق عليه السلام قال: "من عبد الله بالتوهم فقد كفر، ومن عبد الاسم دون المعنى فقد كفر، ومن عبد الاسم والمعنى فقد أشرك، ومن عبد المعنى بإيقاع الأسماء عليه بصفاته التي وصف بها نفسه فعقد عليه قلبه ونطق به لسانه في سر أمره وعلايته فأولئك هم المؤمنون حقاً"، (وفي العيون عن الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام في معنى قوله ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ قال: يعني اسم نفسي بسمة من سمات الله وهي

العبادة، قيل له ما السمة؟ قال: العلامة^(١).

قانون الإبتداء باسم الله إلتجاء وإستجارة

إن الإبتداء باسم الله تعالى نوع إلتجاء وإستغاثة وقد تقدم أن الإتيان بالبسملة يغني عن الإستعاذة ، وهي مدرسة أخلاقية وعرفانية تجعل الإنسان يستحضر ذكر الله تعالى عند إبتدائه بكل عمل مطلقاً كما تساهم هذه الإستعانة بتدبر القراءة ووعي معاني الآيات لأن البسملة سور وقائي مبارك يحصن النفس من إتباع الهوى والغفلة عند القراءة، ويضفي الحسن على الفعل، ولكل اسم من أسمائه تعالى قدسية خاصة، وجاء ذكر الاسم في البسملة بصيغة الإطلاق والتعظيم وفيه دلالات:

الأولى : التوكل على الله تعالى فذكره يفتح العبد قراءته.

الثانية : قانون اسم الجلالة في البسملة للدلالة والبيان ، وتأكيـد الإيمان.

الثالثة : للإجزاء وكفاية المعنى الإجمالي للاسم والتبرك والمصاحبة

الإستعانة.

الرابعة : المعنى الأعم من هذه الوجوه الثلاثة وهو الظاهر فضلاً من الله تعالى ، ولأن المقام من مقامات المدح والثناء ومن مصاديق الإرادة التكوينية والتشريعية.

الخامسة : قانون إلتماس البركة المترشحة عن ذكر اسم الله) فهو سبحانه الذي يفيض البركات لا الصوت ولا الحرف، ولكن الكلام العربي يحمل على الحقيقة ، وليس من مانع أن الله تعالى أضفى ويضفي بركات خاصة على ذات الاسم لما فيه من عناوين الذكر واللجوء إليه تعالى.

ولم يرد ذكر الاسم بصورة مستقلة مجردة من الإستعانة بالاسم كواسطة لها وآلة وسمة إجلالاً لمقام الربوبية.

قانون البركة إفاضة

البركة الزيادة والنماء ، وهي خلاف النقص ، وواقية منه ، وإتصاف

الشئ بالخير بفضل ولطف من عند الله عز وجل ، ويقال : برك البعير إذا استقر على الأرض جالساً ، وسمي حوض الماء بركة لإستقرار الماء فيه ، ووردت مادة البركة على قسمين :

الأول: ما يتعلق بالذات المقدسة كقوله تعالى ﴿تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾^(١).

الثاني: ما يأتي عنوان إفاضة وفضلاً من الله تعالى ﴿رَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ﴾^(٢) هذا كتاب أنزلناه مبارك ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ﴾^(٣) ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا﴾^(٤).
 فهل البركات الخاصة باسم الله:

- ♦ من القسم الأول.
- ♦ من القسم الثاني.
- ♦ قسيم لهما ينتزع الإستقلال بالرتبة والمعنى.
- ♦ الجامع بينها.

الجواب لا تعارض بين الوجوه الأربعة جميعاً إذ يحتل اسم الله هذه المنزلة العظيمة في حياة كل مسلم بترديد البسملة كل يوم لما يتضمنه من رحمة وبركات وأسباب هداية وأدب في العبودية.

قانون فيوضات اسم الجلالة

يتجلى المائز بين واجب الوجود وبين مخلوقاته، ويظهر الفرق بيناً في كل شئ ، ومنها الآثار المترتبة على اسم الله سبحانه، فالمعروف أن الأسماء مجرد عناوين وألفاظ تدل على المسمى كلفظ النار فإنه لا

(١) سورة الاعراف ٥٤.

(٢) سورة هود ٧٣.

(٣) سورة مريم ٣١.

(٤) سورة آل عمران ٩٦.

يحرق بل ذات النار هي التي تحرق، وكذا بالنسبة للفظ الماء فإنه لا يروي عن العطش لأنه عبارة عن حروف وضعت على نحو مخصوص لإرادة الماء، أما الماء نفسه وهو تلك المادة الخارجية فإنه الذي يروي العطشان، ولكن اسم الله عز وجل له منافع وبركات أعظم من أن تحيط بها أوهام البشر، منها :

الأولى : في ذكر اسم الله تعالى إقرار بانحصار الوجود الواجب به تعالى وإن صفاته تعالى تتجلى مجتمعة بإسمه وتظهر فيه الإضافة الإشرافية فتمتلأ النفوس بالحكمة ويندفع عنها الذهول والغفلة وتنجذب إلى العلة الفاعلية والكمال المطلق.

الثانية : اسم الله عز وجل عنوان جامع لأسماء الأسماء، ومطلق أسمائه تعالى تدل على الذات المقدسة وهي متحدة، لا تقبل التجزئة أو التركيب فواجب الوجود بسيط.

الثالثة : الاسم عند أهل العرفان هو الذات الإلهية بلحاظ صفة من صفاته تعالى وقالوا إن هذا لا ينافي القول بأن صفاته تعالى عين ذاته ، فالعرفاء يلحظون الجهة واللحاظ والمفهوم والمعنى لا بحسب الهوية والوجود والمتحد غير المركب والذي لا تقبل ذاته الإنفعال أو الكثرة.

الرابعة : بدأ الكتاب باسم الله تعالى نوع تشريفاً ليحصل التطابق بين نظام التكوين وهو الخلق وبين نظام التدوين وهو القرآن.

الخامسة : تفضل الله تعالى يبدأ أشرف الكتب السماوية بإسمه تعالى، ودعوة للمسلمين بأن يبدأوا أعمالهم بسم الله الرحمن الرحيم.

السادسة : ذكر اسم الله عز وجل للإبتداء بالفعل والعمل العبادي الدنيوي بطاقة تثقل الميزان يوم القيامة، فالعبد وإن لم يقصد بالتلفظ بها الثواب على نحو تفصيلي كما يحدث أحياناً ويكتفي بنية التبرك أو الحصانة المعنوية والمادية على الأعيان والأفعال، فإن ما أعد الله عز وجل من النفع والجزاء للذي يتلفظ بها أكبر بكثير من الأمل المحسوس والمرجوف في الدنيا (عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: كل كلام لا يبدأ فيه بسم الله

الرحمن الرحيم فهو أجذم^(١).

السابعة : تكرار التسمية وملازمتها للحياة اليومية للمسلمين وقاء لحفظ الدين والأشخاص.

الثامنة : الحضور المستمر للبسملة حاجز دون الشرك ومنع من التداخل بين أسمائه تعالى وأسماء غيره من المخلوقين وان كانوا ملوكاً وسلاطين فاسم (الله) مخصوص به تعالى لفظاً ومعنى ومفهوماً لذا جاءت فاتحة القراءة باسم الجلالة وكذا سورة الاخلاص.

الخامسة عشرة : بسماع اسمه تعالى (الله) يتبادر الى النفس طوعاً وقهراً مفهوم الربوبية ويشهد الإنسان بالضعف والنقص والتقصير أمام الكمال المطلق والإلهية الدائمة.

السادسة عشرة : جاءت كلمات التوحيد (أشهد أن لا إله إلا الله) بذكر اسم الجلالة حصراً وتعييناً وبها تباح المناكح وتحقن الدماء، ولم ترد بعنوان اشهد أن لا إله إلا الرحمن الرحيم أو الجبار ونحوه من أسمائه تعالى، وكأن هناك ملازمة بين ذكر اسم الجلالة وبين الإسلام فتريد اسم الجلالة عنوان وهوية المسلم لذا ترى قلوب المؤمنين تنجذب الى اسم الجلالة وفيه منع للإجمال والترديد واللبس.

قانون اسم الجلالة أمن وسلام

ان نبي الله نوحاً عليه السلام حينما ركب السفينة وسط الطوفان والخطر المحدث بالجميع قال ﴿وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِاسْمِ اللَّهِ مَجْرَأَهَا وَمُرْسَاهَا﴾^(٢)، والباء للملابسة أي إركبوا ملابسين لاسم الله فكانت حرزاً واماناً له ولمن معه، وهي نصف كلمات البسملة ولكن فيها اسم الجلالة مما يدل على أمور:
الأول: إن العمدة فيها هو اسم الجلالة.

(١) تفسير القرطبي ١٢/١٧٢.

(٢) سورة هود ٤١.

الثاني: إن الله عز وجل أنعم على النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بالبسملة كاملة.

الثالث: قانون نيل المسلمين درجة الشرف وغاية الكمال الإنساني والإخلاص في العبودية بواسطة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم واثبتهم بالبسملة.

الرابع: قانون البسملة من مصاديق وأفراد كمال الدين قال تعالى ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾^(١).

الخامس: لا ينحصر إتيان المسلمين للبسملة بحال الخوف وخشية الهلكة بل يأتون بها في الرخاء والشدة، وعند الأفعال العبادية وخصوصاً في الصلاة التي هي عمود الدين، وشرفهم الله أن جعلها مكررة في بدايات سور القرآن ونوراً يضيء لهم دروب الحياة.

السادس: إذا كان نوح عليه السلام جاء بنصف كلمات البسملة ونجى من الطوفان فإن إتيان المسلمين بالبسملة كاملة يجعله الله عز وجل لهم وقاية ونجاة من التعرض لأسباب الطوفان والهلكة.

إفاضات البسملة

لقد كانت إفاضات البسملة ظاهرة على النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وعلى المسلمين بكثرة عددهم وانتصارهم في المعارك على نحو إعجازي كما يظهر تحققه مع قلة عددهم وعدتهم في كثير من معارك الجهاد والدفاع.

ولقد كان المسلمون يرددون البسملة ويواظبون عليها فجاء المدد والنصر بقوله تعالى ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾^(٢)،

(١) سورة المائدة ٣.

(٢) سورة آل عمران ١٢٣.

ليكون إتيان المسلمين للبسملة من أسباب المدد الإلهي وتقريب النصر، ويكون تعاهدهم لها من مصاديق التقوى وإستدامتها، وفيه مسائل :

الأولى : في قوله تعالى ﴿ إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِاسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾^(١) ظاهر الآية إن بلقيس قرأت الكتاب وبينت لقومها جهة الإرسال وموضوعه.

ويمكن أن تستقرأ مسألة عقائدية في تاريخ الملل وهي أن البسملة موضوع مستقل يكفي في الدعوة والإنذار والفتح كما حصل في إسلام بلقيس وقومها ولا يمنع من الإستدلال بهذه الآية في التعرض لاسم الله الأعظم وكيف أن الكافر ينطق بها قهراً.

الثانية : تأثير ونفع التلفظ بها مجرداً من غير إيمان كما هو حال بلقيس أو حال فرعون فهو مع ادعائه الربوبية فإن الله عز وجل أخر عنه العذاب لكتابته (بسم الله) على باب داره لقانون البسملة أمان مؤقت من الهلاك وقانون البسملة مندوحة وفرصة للتوبة والتدارك.

وترى هلاك فرعون لم يحصل في بلده بل عند خروجه خلف موسى عليه السلام تجبراً وعتواً قال تعالى ﴿ وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدُوًّا حَتَّى إِذَا أَذْرَكَهُ الْفَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾^(٢).

عن الإمام علي عليه السلام أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: لما أسري بي مرت بي رائحة طيبة فقلت يا جبريل ما هذه الرائحة الطيبة. قال : ماشطة بنت فرعون وأولادها كانت تمشطها فسقط المشط من يدها فقالت : بسم الله .

فقال ابنة فرعون : أبي .

(١) سورة النمل ٣٠.

(٢) سورة يونس ٩٠.

قالت بل ربي وربك ورب ابنيك .

قالت : الك رب غير أبي .

قالت نعم قالت : فاخبر بذلك ابي؟ قالت: نعم فاخبرته فدعاها فقال:

ألك رب غيري.

قالت : نعم ربي وربك الله الذي في السماء .

فامر ببقرة من نحاس فاحميت ثم امر بها لتلقى فيها وأولادها قالت أن

إليك حاجة قال وما هي .

قالت تجمع عظامي وعظام ولدي فتدفنها جميعاً، قال ذلك لك لما لك

علينا من حق .

ثألقوا واحداً واحداً حتى بلغ رضيعاً فيهم، قال قعي يا امة ولا

تقاعسي فذاك على الحق^(١) فألقيت هي وولدها.

الثالثة : ذكر البسملة في قصة نوح وفي قصة سليمان مدخل لإجراء

دراسات وبحوث قرآنية ونبوية عن تأريخ البسملة ، وهو من الشواهد على

قانون وراثته المسلمين لسنن الأنبياء بتعاهدهم الفرائض والعبادات

والمناسك.

الرابعة : كما يرى المسلم منافع الإفتتاح والإبتداء بالبسملة في أعماله

في الدنيا فانه سيدرك الحاجة لها وضرورتها عند دخول القبر وما ينتظره

فيه من الأهوال وتزداد تلك الحاجة باطراد يوم البعث والنشور وفي

مواطن الحساب والصراط، فمن يعتاد على إتيانها ولو في صلاته وحدها

فهي سلاحه في عبور الصراط ، وإن كانت موارد إستحبابها المؤكد أكثر

من أن تحصي ، وعن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال لربييه

عمرو بن أبي سلمة: قل باسم الله، وكل يمينك وكل مما يليك^(٢).

قانون البسملة رحمة في النشاطين

تتضمن البسملة صفات الرحمة بأعلى مراتبها ببشارة النجاة من النار

(١) تفسير ابن كثير ١٥/٣.

(٢) تفسير ابن كثير ١٢١/١.

فإنه سبحانه لا يدخل من لهج بها لسانه وتعانقت معها أعضاؤه وسرت في كيانه وجرت في عروقه.

ومن خصائص القرآن أنه دليل النجاة في الدنيا والآخرة، واسم الجلالة والمواظبة على التلفظ به واستحضاره من مصاديق الصراط المستقيم في قوله تعالى ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾^(١)، وهي كنز من بطنان العرش خص الله عز وجل بها أنبياءه المؤمنين، وفي قصة بلقيس حينما جاءها الهدى رسولاً من سليمان النبي، أنها قالت كما ورد في التنزيل ﴿إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِاسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾^(٢) وهناك مسائل:

الأولى: قانون كثرة التلبس بالبسملة بمعنى التلفظ الدائم بها مع الاعتقاد لا يجعل للشيطان سبيلاً ينفذ منه على الإنسان وتلك حالة يدركها المؤمنون بوضوح.

الثانية: يرد اسم الجلالة في المهمات وجلائل الأمور وعظيم التنزيل فترى لفظ (كلام الله) ورد بالإضافة إلى الله عز وجل ثلاث مرات في القرآن ولم يرد الكلام مضافاً إلى اسم آخر من أسمائه تعالى. فقد ورد في التنزيل مثلاً ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ...﴾^(٣) بالإضافة وذكر اسم الجلالة لعظيم قدر كلام الله تعالى.

والآية توبيخ وتقبيح لفعل الذين يحرفون الكتاب، وتنبية ومدح للمسلمين لحفظهم كلام الله تعالى مما يعني أن اسمه تعالى خير مادة للإنذار والتنبية.

الثالثة: ورد لفظ (كتاب الله) في آيات عديدة وفيها ينسب الكتاب لله تعالى بذكر اسم الجلالة دون غيره فلم يرد كتاب الخالق أو كتاب الرب مع أنه من أمهات أسمائه تعالى، وفيه منع للتحريف والتجراً وتغشي صيغ

(١) سورة الفاتحة ٦.

(٢) سورة النمل ٣٠.

(٣) سورة الفتح ١٥.

الضلالة والإيهام الى جانب الأصل وهو دلالة على الإكرام والإجلال لمقام الربوبية وعظمته تعالى.

الرابعة: من سنن الوضوء المفروضة على جميع المسلمين الإتيان بالتسمية عند الشروع فيه وصورتها (بسم الله وبالله) أو (بسم الله الرحمن الرحيم) والإجماع على استحبابها وذهب أحمد بن حنبل إلى وجوبها للخبر الوارد عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم بخصوصها، وعن الإمام الصادق عليه السلام "إذا سميت في الوضوء طهر جسدك كله، وإذا لم تسم لم يطهر من جسدك إلا ما مر عليه الماء" وهي ظاهرة بالاستحباب.

وأوانها عند اغتراف الماء أو صبه في اليد لأنها البداية الفعلية للشروع في الوضوء لما ورد في صحيحة زرارة عن الباقر عليه السلام: "إذا وضعت يدك في الماء فقل: بسم الله وبالله، اللهم اجعلني من التوابين واجعلني من المتطهرين فإذا فرغت فقل الحمد لله رب العالمين"، ولكن ورد في الخصال عن الأمام علي عليه السلام: "لا يتوضأ الرجل حتى يسمي"^(١)، ولا يتعارض مع الصحيحة أعلاه كما ظنه بعضهم لأن أفعال الوضوء تبدأ بغسل الوجه المقرون بالنية .

وإجماع المسلمين على أن ما بين الدفتين كلام الله، ولا عبرة بالقليل النادر، ويقتضي هذا الإجماع أن البسملة قرآن.

اسم الجلالة

ولفظ الجلالة (الله) علم مبارك للذات المقدسة الواجب الوجود الموصوف بالكمالات كافة ويستدل بكونه علماً لكونه يوصف لجميع الأسماء الحسنى وسائر أفعاله المأخوذة من تلك الأسماء من غير عكس، فيقال الله القوي العزيز، ويقال: غفر الله، رحم الله، ولا يأتي اسم الجلالة صفة لشيء منها.

وفي اشتقاقه وجوه:

الأول : انه مرتبط غير مشتق من شيء وإنما هو علم، ولا يجوز حذف الألف واللام منه، واليه ذهب الأكثر.

الثاني : وحكي عن سيويه أنه مشتق، وأصله أله دخلت عليه الألف واللام فبقي الإله، ثم نقلت حركة الهمزة إلى اللام وسقطت فبقي اسم الجلالة، فأسكنت اللام الأولى وأدغمت وفخم تعظيماً لكنه ترقق مع كسرة ما قبله).

الثالث : الأصل في لفظ الجلالة الإلاه عند سيويه^(١)، فألقت حركة الهمزة المكسورة على لام المعرفة ثم سكنت وأدغمت في اللام الثانية، والتفخم من خواص هذا الاسم، وتفخم اللام إذا لم يكن قبلها كسرة، وترقق إذا كانت قبلها كسرة، وقال بعضهم بترقيقها في كل حال.

الرابع : أن همزة إلاه أصل وهو من إله يأله إذا عبد، فالإله مصدر في موضع المفعول أي المألوه وهو المعبود الذي تتقرب إليه الخلائق بالعبادة والتسليم، وقيل أصل الهمزة واواً لأنه من الوله.

فالإله تميل إليه القلوب وتتحير فيه النفوس وتتجه إليه الخلائق بشوق وانقياد.

الخامس : وقيل أصله لاه على فعل، وأصل الألف ياء لأنهم قالوا في مقلوبه لهى أبوك، ثم أدخلت عليه الألف واللام.

ولا تعارض بين هذه الوجوه وهي انعكاس لإمتلاء العيون بضياء أنوار الربوبية وجلالة عظمة الله تعالى، واسم الجلالة دائر على الألسن ويتوارث معرفته الناس منذ أيام أبينا آدم عليه السلام فالعرب تعرف الله عز وجل ومعرفتهم هذه من بقايا الحنيفية وتركة ابراهيم خليل الله.

وقال تعالى ﴿ وَكَانَ سَأَلُهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ يَقُولُ اللَّهُ ﴾^(٢).

(١) شرح شافية ابن الحاجب ٣/٣٠٠.

(٢) سورة الاعراف ٨٧.

السادس : وقال البلخي أنه لفظ غير عربي وأنه سرياني أو عبراني معرب لآها ومعناه ذو القدرة.

ولا دليل عليه ، والمختار الذي عليه أكثر الفقهاء والأصوليين وإختره الخليل وسيبويه أنه لفظ عربي.

السابع : أنه علم من أصله لذاته واسم الله خاص به تعالى ومع أنه لفظ مركب من عدة حروف ولكنه يبدو وكأنه بسيط في معناه فحينما تحذف الألف عنه يبقى لله يفيد ذات المعنى ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾^(١) وكذا لو حذفت اللام الأولى يبقى (له) وينصرف للباري عز وجل إلا مع القرينة الصارفة وكذا لو حذفت اللام وبقيت الهاء كما في قوله تعالى ﴿ وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴾^(٢).

وعن هشام بن الحكم أنه سأل الإمام الصادق عن أسماء الله واشتقاقها: "الله مما هو مشتق، فقال له: يا هشام الله مشتق من اله والإله يقضي مألوها، والاسم غير المسمى، فمن عبد الاسم دون المعنى فقد كفر ولم يعبد شيئاً، ومن عبد الاسم والمعنى فقد كفر وعبد اثنين، ومن عبد المعنى دون الاسم فذاك التوحيد أفهمت يا هشام؟ فقال: زدني، قال: أن لله تسعة وتسعين اسماً".

فلو كان الاسم هو المسمى لكان لكل اسم منها اله ولكن الله معنى يدل عليه بهذه الأسماء وكلها غيره، يا هشام، الخبز اسم للمأكل، والماء اسم للمشروب، والثوب اسم للملبوس، والنار اسم للمحرق، أفهمت يا هشام فهماً تدفع به وتناضل به أعداءنا والمتخذين مع الله جل وعز غيره؟ قلت: نعم، فقال: نفعلك الله به وثبتك يا هشام، قال هشام: فوالله ما قهرني أحد في التوحيد حتى قمت بمقامي هذا^(٣).

(١) سورة النحل ٤٩.

(٢) سورة الانسان ٢٦.

(٣) اصول الكافي ٨٧/١ - ١١٤/١.

إن الابتداء باسم الله تعالى إعلان للإخلاص في منازل العبودية بروح الاستكانة والخضوع وإرادة التوكل ونية الإستعانة به تعالى الأمر الذي يجب أن لا يؤثر فيه البحث عن حقيقة هل الاسم عين المسمى أو لا، وأن لا يؤدي الاهتمام الفلسفي بهذا المبحث ونحوه إلى التأثير تأثيراً سلبياً بالمفاهيم المتعلقة بالابتداء باسم الله عز وجل وما في ذلك من منافع دنيوية وثواب أخروي عظيم وخالد، فيجب أن يكون الاشتغال متوجهاً إلى الإتيان بأوجه العبادة وحسن أدائها.

عن عبد الرحمن بن أبي نجران قال: كتبت إلى الباقر عليه السلام أو قلت له: "جعلني الله فداك نعبد الرحمن الرحيم الواحد الأحد الصمد؟ فقال: إن من عبد الاسم دون المسمى بالأسماء فقد أشرك وكفر وجحد ولم يعبد شيئاً، بل اعبد الله الواحد الأحد الصمد المسمى بهذه الأسماء دون الأسماء، إن الأسماء صفات وصف بها نفسه".

أن اسم الله عنوان تلتقي عنده جميع معاني الأسماء الحسنى لما يتضمنه من دلالة إجمالية عليها ولما يحمله من مضامين الإلهوية لقانون الله معبود تؤله الخلائق بإقرار وخضوع وتعظيم وتفرغ إليه في طلب الحاجات، وعن الإمام موسى بن جعفر قال: "سئل عن معنى الله فقال: إستوى على ما دق وجل".

وقال الطبري (إن معنى الله تعالى ذكره المعبود، ولا معبود غيره جل جلاله، وأن التسمي به قد حرّمه الله جل ثناؤه، وإن قصد التسمي به ما يقصد المتسمي بسعيد وهو شقي، وبمحسن وهو قبيح)^(١).

بحث فلسفي

معرفة صفات الله تعالى ضرورة في معرفة الباري عز وجل فهي مدرسة المعرفة وموضوعها، وهذه المعرفة عقلية حسية وبعيدة عن التجسيم والصفات الجسمانية وعن المشبهة أي تشبيهه بمخلوقاته تعالى الله عن ذلك

علواً كبيراً لذا ورد عن الأئمة عليهم السلام أنهم قالوا: عالم لا كعلمنا، قادر لا كقدرتنا شيء لا كالأشياء، إذ إن صفاته تعالى منتزعة من الذات الإلهية سواء على القول بأنها عين ذاته أو أنها زائدة على الذات بما فيها الصفات التي ينتزعاها العقل في مقام الفعل.

لذا ورد عن الإمام علي عليه السلام (أَوَّلُ الدِّينِ مَعْرِفَتُهُ وَكَمَالُ مَعْرِفَتِهِ التَّصَدِيقُ بِهِ وَكَمَالُ التَّصَدِيقِ بِهِ تَوْحِيدُهُ وَكَمَالُ تَوْحِيدِهِ الْإِخْلَاصُ لَهُ وَكَمَالُ الْإِخْلَاصِ لَهُ)^(١).

وهناك تقسيم آخر للصفات تقسيمها إلى الصفات الثبوتية والسلبية وهذا التقسيم ليس فيه ما ينافي التنزيه المطلق لواجب الوجود لذا تراهم يؤولون الصفات الثبوتية بالمعاني السلبية، لما فيها من سلب الشريك والتركيب والنقص .

والرحمن والرحيم صفتا كمال إيجابيتان. وصيغة توحيد وجمع الرحمن الرحيم على نحو الإلتصاق والملازمة مع اسم الجلالة في المقام تدل على انهما من الصفات الذاتية. جاء ذكرهما في البسملة سلاحاً وبشارة وحرزاً وكنزاً قريباً جعله الله عز وجل في متناول كل مسلم بل أن كثرة نطق المسلمين به في الصلاة وغيرها يجعله هيئة لفظية شائعة ومتعارفة على السن جميع يلجأ إليها الناس عند الحاجة والضرورة والشدة.

وقد تقدم في البسملة اسم الله على اسم الرحمن والرحيم لبيان موضوعية اسم الجلالة وإستحضاره في العبادة والذكر ولأن الصفات تابعة له، ومن عادة العرب إذا أرادوا الإخبار تقديم الاسم ثم ذكر الصفات والنعوت التي تفيد الحصر والتعيين، وجاء ذكر الصفات في البسملة للثناء على الله ودعوة المسلمين للإنقياد لأوامره ورجاء الرحمة والفضل منه تعالى.

(١) ابن أبي الحديد / شرح نهج البلاغة ١٦/٨.

و﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ صفتان مشتقتان من الرحمة، والرحمن صيغة مبالغة على وزن فعلان تدل على الكثرة .
وقالوا انه يفيد المبالغة للصفات الطارئة كعطشان وغرقان ولكنه قياس مع الفارق لأن صفاته تعالى ثابتة وصفة رحمن أزلية دائمة كباقي صفاته سبحانه، والرحيم أيضاً مبالغة إلا أن فعلان أبلغ من فعيل .
والرحمة في بني آدم رقة القلب ومظاهر العطف، وعند الله عز وجل بره ورزقه وإحسانه فهو سبحانه منزّه عن الكيفية.

اسم الرحمن

والرحمن ذو الرحمة ويمتلك سمات الكمال في درجاتها وهو وصف خاص بالله عز وجل لا يوصف غيره به ولا يعتد بشأن قول بني حنيفة في مسيلمة الكذاب رحمن اليمامة، وقول شاعرهم فيه :
سَمَوْتَ بِالْمَجْدِ يَا ابْنَ الْأَكْرَمِينَ أَبَا
وأنت غيث الورى لازلت رحمانا.

وهذا القول متروك لأنه لسان كفر ونعت غواية لا يعبأ به في الإستدلال والتفسير والتحليل .

ولقد عجل الله لهم العقاب في الدنيا، بل إن متعلق البيت وموضوعه وسنده ونسبته بحاجة إلى تحقيق إذ أن المتعارف هو رحمن اليمامة بالإضافة، كما في قولك (رب الناقة) لذا وصفوه بابن الأكرمين أباً .
واشعار العرب في الجاهلية تنص على إنفراد الله تعالى بصفة الرحمن فمن باب أولى في أصحاب مسيلمة الكذاب وإدعاؤه النبوة وإن كان كفراً وكذباً ولكنه يملئ عليهم قهراً اختصاص الله تعالى بصفة الرحيم والرحمن وإنهما لا يجتمعان إلا لله عز وجل، وإدغمت اللام في الراء لقربها منها في مخارج الحروف.

والرحمن بناء فعلان يحمل معاني السعة والشمول كما في غضبان للمتلئ غضباً وندمان للذي تمكن منه الندم واستحوذ عليه .
بالإضافة إلى ورود اسم الرحمن في أوائل السور أي في البسملة فقد

جاء في مواضع كثيرة من القرآن الأمر الذي يظهر ما لهذا الاسم من منزلة عظيمة .

فتتجلى في كل موضع منها مضامين التوحيد وإحاطة الله تعالى بالمخلوقات وان اسم الله عند الأمم السابقة معروف.

وفي التنزيل ﴿لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنْ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾^(١) ، ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا * لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا * تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْقَطَرْنَ مِنْهُ وَتَشَقُّ الْأَرْضُ وَخَرُّ الْجِبَالُ هَدًّا * أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا * وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا * إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾^(٢).

هذا وقد ورد لفظ الرحمن في أشعار العرب ، قال الشنفرى^(٣) :
الا ضربت تلك الفتاة هجينها

الا قضب الرحمن ربي يمينها

وقال سلامة بن جندب^(٤) :

(١) سورة مريم ٨٧.

(٢) سورة مريم ٨٨ - ٩٣.

(٣) الشنفرى عمرو بن مالك الأزدي من قحطان شاعر جاهلي يمني ، قتله بنو سلامان قبل الهجرة النبوية المباركة بنحو سبعين سنة **بعد أن أكثر الإغارة والقتل فيهم** ، وكان من فتاك العرب وعدائهم ، قيست قفزاته ليلة مقتله فكانت الواحدة منها عشرين خطوة ، وفي الامثال (أعدى من الشنفرى) **له لأمية وهي من بديع الشعر العربي ، وان لم تكن من المعلقات ومطلعها :**

اقيموا بني أمي صدور مطيكم

فاني إلى قوم سواكم لأميل.

(٤) سلامة بن جندب بن عبد الرحمن بن عبد عمرو بن الحارث وهو مقاعس بن عمرو بن كعب بن سعد التميمي ابو مالك ، شاعر جاهلي من الفرسان مات سنة ٢٣ قبل الهجرة النبوية ، من اهل الحجاز وفي شعره حكمة ، وله ديوان شعر قيل ان

عَجَلْتُمْ عَلَيْنَا عَجَلْتَيْنَا عَلَيْكُمْ

وما يَشَأُ الرَّحْمَنُ يَعْقِدَ وَيُطْلِقَ^(١).

وروى ابن كثير عن عبد الرحمن بن عوف انه سمع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: "قال الله تعالى أنا الرحمن، خلقت الرحم وشققت له اسماً من اسمي، فمن وصلها وصلته ومن قطعها قطعته"^(٢).

مما يدل على موضوعية وشأن هذا الاسم والتجليات والإفاضات التي تتفرع عنه وتنقذ في النفوس بأقدس صفة إنسانية وهي الرحم لتكون مدخلاً لنيل رحمة الله تعالى، وكأنه سبحانه جعل صلة الرحم والقربى وديعة وأمانة يثيب عليها بإفاضة وتنزيل الرحمة وتلك مدرسة إسلامية ذات فلسفة متقدمة.

وفي الخبر عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: "ان لله عز وجل مائة رحمة انزل منها رحمة واحدة بين الجن والإنس والطيور والبهائم والهوام فيها يتعاطفون ويتراحمون، وأخر تسعاً وتسعين رحمة يرحم بها عباده يوم القيامة"^(٣)، مما يعني ان الناس يرحم بعضهم بعضاً بما جعل في نفوسهم من الرفق والعطف وحب الخير.

ويدرك العقل حسن الإنصاف والإحسان وينظر الى الظلم والجفاء على انهما فعلاً قبيحان، ومن الأدلة على الإرادة التكوينية في صلة الرحم انك تراها عند المسلمين والمليين وعند غيرهم من الأمم، ولا يمكن فصلها عن أسرار نفخ الله تعالى الروح في أدينا آدم عليه السلام وتوالي انعكاس وظهور هذا النفخ على الإنسان مطلقاً في سيرته وسلوكه، وفيه عوض ومادة لقبول أحكام الشرائع، وإن كانت الروح يتجدد بعثها بواسطة الملكين عند إتمام الجنين الشهر الرابع من عمره.

الأصمعي رواه.

(١) تفسير ابن كثير ١/١٢٧.

(٢) تفسير ابن كثير ١/١٢٥.

(٣) تفسير الرازي ١/١٤٧.

وفي تقديم الرحمن على الرحيم ذكرت أسباب منها أنه اسم علم لا يوصف به إلا الله فاقضي تقديمه لاسيما وإن الرحيم يطلق عليه تعالى وعلى غيره.

وعن الإمام علي عليه السلام: "الرحمن العاطف على خلقه بالرزق لا ينقطع عنهم مواد رزقه وإن انقطعوا عن طاعته"^(١)، وقيل إن الرحمن يختص بالتكوين ومتطلباته ومستلزماته التي تعين على العبادة وتؤلف الحجة، بينما يعم الرحيم التكوين والتشريع.

وروي عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام أنه قال: "الرحمن اسم خاص بصفة عامة، والرحيم اسم عام بصفة خاصة"^(٢)، أي أن الرحمن خاص بالدنيا وحاجات الناس فيها وأرزاقهم وأحوالهم والذب عنهم وصرف البلاء عنهم قبل حلول أجله بغض النظر عن هوية الإيمان أو التلبس بالكفر، لأن ملاك الرحمة كونهم خلق الله كما ترى أنه سبحانه يرسل السحاب وينزل المطر فيصيب به البر والفاجر، وقد تجدد قوماً يتمتعون مع ضلالتهم بخيرات الأرض وكنوزها لرحمة من الله في الخلق جارية وحكمة سماوية للإستدراج وإقامة الحجة البالغة.

ولو نظرنا إلى هذا القول على نحو الإطلاق والإنحلال على عدد العناوين الإضافية، فالرجل لو علم بعيوب امرأته لجفاها، ولو علم الرجل بعيوب جاره لإزدراه، أذن لتعطلت المعاش وتنافر الناس فيما بينهم ويقل النسل يضعف الرحم لذا فإن رحمة الله بالناس ضرورة وحاجة تتقوم بها الحياة الدنيا وأنها تستحق أن تكون دار إبتلاء وإمتحان، قال تعالى ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾^(٣).

(١) تفسير الإمام العسكري ١٢/٣

(٢) مجمع البيان ٥٧/١.

(٣) سورة النساء ١.

قال بعض اهل العرفان : من كمال رحمته ستره لعيوبك، وهو يعلم منك ما لو علمه ابواك لفارقاك، ولو علمت به امرأتك لجفتك، ولو علمه جارك لسعى في خراب دارك، فأني رحمة أكمل من رحمته.

اسم الرحيم

أما الرحيم فهو اسم لله عز وجل يختص بشؤون المؤمن وحاجاته وأسباب رزقه وجوانب أموره ومستلزمات عبادته في الحياة الدنيا وتقبله في أحوال الدار الآخرة وتخفيف أهوال البرزخ والحساب عليه ولتغشاه رحمته تعالى في مواقف يوم القيامة.

أي أن المؤمن ينتفع مستفيداً من صفة الرحمن والرحيم في دار الدنيا، ومن الرحيم في الدار الآخرة، بينما لا ينتفع الكافر إلا من صفة الرحمن وفي الحياة الدنيا فقط لتكون عليه في الآخرة حجة وحسرة دائمة. وروي عن ابي سعيد الخدري عن النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم انه قال : الرحمن رحمن الدنيا والرحيم رحيم الآخرة^(١).

قانون البسملة جزء من السورة

لقد اتفق المسلمون على قراءة ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ عند إفتتاح كل سورة تبدأ بها بإستثناء سورة التوبة واختلفوا في اعتبارها آية من كل سورة، أو لا، على أقوال :

الأول : إنها آية من سورة الفاتحة دون سواها من سور القرآن غير سورة براءة.

الثاني : البسملة بعض آية من الفاتحة.

الثالث : هي آية من كل سورة من سور القرآن غير سورة براءة.

الرابع : ليست البسملة آية من أي سورة من السور أصلاً بإستثناء سورة النمل لأنها لم تأت في أولها.

الخامس : هي آية مستقلة كانت تنزل لبيان الفصل بين السور وتعظيماً

للمقام وتحديداً لرؤوس السور وتعريفاً ببداية كل منها.

السادس : إنها آية من سور الفاتحة وجزء آية من السور الأخرى.

السابع : إنها بعض آية من جميع السور ، وما ورد أن سورة الكوثر ثلاث آيات وسورة الملك ثلاثون آية، فإن الاشكال باخراج البسملة من السورة يسقط يجعلها جزء من السورة، وقد لا يقوى هذا المعنى على معارضة النصوص الكثيرة التي تدل على قرآنيتهما وجزئيتها من السور القرآنية لأنه لا يدل تصريحاً على نفي البسملة من السورتين.

الثامن : قيل أن "بسم الله الرحمن الرحيم" ليست من القرآن وإنها زائدة، ونسب هذا القول الى ابن مسعود ومذهب مالك ومشهور قدماء الحنفية^(١)، وإن عثمان أثبتتها فيه على رأس السور فصلاً بين السورتين، وهذه دعوى لا تستطيع معارضة الدراسة بتبثيتها في القرآن والنصوص الواردة بجزئيتها من السورة، بالإضافة إلى حجية الظاهر. ولعل القول بعدم جزئيتها من القرآن إجتهد ، والخطأ في الفتوى حال يتعرض لها غير المعصوم، بالإضافة إلى أن الذي أنكر قرآنيتهما من الفقهاء قال بأفضلية قراءتها وافر كباقي المسلمين بوجودها بين الدفتين بحسب مواضعها الحالية كإشراقة قدسية في أول كل سورة، ووجودها المتكرر هذا مع أهميته يحمل أسراراً ملكوتية لم نستطع إدراكها.

ولا بأس في إجراء دراسات تبين موضوعية موقع البسملة في حفظ القرآن وتعاهد سوره ومنع التداخل بينها.

لقد حالت البسملة دون وقوع الفتنة بين علماء المسلمين بخصوص حدود وعدد آيات كل سورة ومنعت الاختلاف بعدد آيات بعض السور أو إلحاق بعض آيات سورة بالتي قبلها أو بعدها، وساهمت بضبط عدد آيات كل سورة وتعاهدتها وتيسير حفظها وتوثيق وتأمين آخر السورة السابقة لها.

قيل لعمر بن دينار: إن الفضل الرقاشي يزعم أن بسم الله الرحمن

(١) تفسير أبي السعود ١ / ٢.

الرحيم ليس من القرآن، فقال: سبحان الله ما أجراً هذا الرجل سمعت سعيد بن جبير يقول: سمعت ابن عباس يقول: كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم إذا أنزل الله عليه بسم الله الرحمن الرحيم علم أن تلك السورة قد ختمت وأفتحت غيرها).

والتنزيل صبغة السور القرآنية واستحدثاته دليل التعدد وثبتت لموقعها في بداية السورة.

ويتجلى كل يوم قانون البسملة عنوان وحدة المسلمين في باب القراءة الحاضرة في ميادين العمل وإفتاحه بها، والأولى أن ننظر بمنظار الإعجاز القرآني ونلمس وجوه النفع العظيمة والمتشعبة من وجودها وتوظيف النصوص والعقل والعلم لاستخراج الكنوز الكامنة في تعدد البسملة.

إن مجرد مواضع البسملة هو آية إعجازية تدل على القرآنية والتنزيل بالإضافة إلى الأسرار الكامنة فيها والمضامين التي تحتويها من تعظيم الله والثناء عليه تعالى وأنها من الذكر والحمد.

التاسع : أنها آيات فذة مستقلة نزلت للفصل بين السور كل واحدة منها نزلت بذاتها.

العاشر : أنها جزء آية من سورة الفاتحة وآية من كل سورة من السور الأخرى.

الحادي عشر : قد يقال انها آية من شطر من السور.

ويجب الا يؤدي هذا التعدد في عرض الأقوال إلى الظن باحتمال التعادل بينها فان عناصر الترجيح في بعضها قوية، كما أن بعض تلك الأقوال متأخر زماناً عن البعض الآخر، بالإضافة لإختلاف منازل أصحاب الأقوال والتباين بين الأدلة، وان بعضها تتوفر فيه شرائط الحجية دون البعض الآخر، وربما افتقر بعضها إلى الدليل والحجة الأمر الذي يجعله متخلفاً عن الدخول في باب التعارض بل وحتى التزاحم، كما أن بعضها يتقدم متميزاً في السند وجهة الصدور والدلالة وهي الأصول الأساسية التي يتوقف عليها إستنباط الحكم وعناصر الترجيح في الوارد

من الروايات.

وأسابب الترجيح هذه لا تمتنع من الإطلاع والاهتمام بالأقوال جميعها على نحو العموم الإستغراقي والبدلي والنظر إليها بسماحة والفة فكرية بعيداً عن العنت أو السأم وما يؤدي إلى إرباك البال ومن غير إلزام للنفس على التحيز لقول معين لإمور مذهبية خاصة ونحوها، فاحد كبار المفسرين عندما يذكر الرأي المشهور من المذهب الذي ينتسب إليه يقول: وعلى المرء نصرة مذهبهِ والذب عنه وذلك بإقامة الحجج على إثباته وتوهين أدلة نفاثته.. الخ

وبالنسبة للأقوال المتقدمة فإن أئمة أهل البيت على القول الثالث، وهو المنسوب إلى ابن عباس وابن عمر وابن الزبير وأبي هريرة وأهل مكة كابن كثير وأهل الكوفة كعاصم والكسائي والآخرين، عدا حمزة وذهب إلى هذا القول ابن المبارك والإمام أحمد بن حنبل في رواية عنه واسحق بن راهويه وأكثر أصحاب الشافعي ومن التابعين عطاء وطاووس وسعيد بن جبير ومكحول والزهري، وبعض منهم على القول الخامس مما تقدم واليه ذهب مالك وأهل الشام ومنهم الأوزاعي وأبو عمرو من البصرة ويعقوب من الكوفة.

وقال صاحب تفسير روح المعاني وهو المشهور من مذهبنا^(١)، وقال داود أنها آية مستقلة في أول كل سورة وليس منها، ونسب إلى مالك والأوزاعي أنهما قالاً: لا يقرأ لا سراً ولا جهراً إلا في قيام شهر رمضان. ولا بد من التفكيك بين جزئية البسملة من القرآن أو عدمها، وبين قراءتها في الصلاة أو عدم قراءتها، وفيها ثلاث مسائل :

الأول : أنها جزء من القرآن والتنزيل.

الثاني : أن البسملة جزء من كل سورة.

(١) هو شهاب الدين أبو الثناء الحسيني الألويسي (١٨٠٣-١٨٥٤)م وكان شافعي المذهب ، ثم صار على المذهب الحنفي في فتاويه في المعاملات ، ولد ومات في بغداد .

الثالث : وجوب قراءتها في الصلاة.

نصوص في البسملة

ولقد وردت الأخبار بأن ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾^(١) آية من السورة الفاتحة، وعن الإمام علي "أنها من سورة الفاتحة وأن رسول الله صلى عليه وآله وسلم كان يقرأها ويعدّها آية منها ويقول فاتحة الكتاب هي السبع المثاني"^(٢).

وأخرج الدارقطني عن أبي هريرة قال: "قال رسول الله صلى عليه وآله وسلم: إذا قرأتم الحمد لله فاقروا بسم الله الرحمن الرحيم، إنها أمّ القرآن وأمّ الكتاب والسبع المثاني وبسم الله الرحمن الرحيم إحدى آياتها"^(٣).

لقد اعتنى المسلمون بمسألة عدم كتابة أي شيء في القرآن مما هو خارج عنه حتى أصبحت هذه الحقيقة قاعدة أساسية في حياتهم وباب رحمة وتخفيفاً منع الاختلاف ووضع الحدود للرأي والحواجز أمام الشطط في أوجه الاحتمال، فكلمة آمين مثلاً لم تكتب في القرآن لأنها ليست منه . وأجمع المسلمون على أن كل ما بين الدفتين قرآن، ولا عبارة بالشاذ النادر والتأويل المخالف للظاهر من غير قرينة معتبرة.

وأنت ترى أن ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ مكتوبة في القرآن في أول كل سورة، كما وانها جزء من سورة النمل ﴿إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾^(٤)، وهي سورة مكية، وليس من الإتفاق والصدفة أن بسم الله الرحمن الرحيم تكررت في سورة النمل وخلت منها سورة

(١) سورة الفاتحة ١.

(٢) تفسير القرطبي ١/١٢٧.

(٣) جمع الكبير/السيوطي ١/٢٨٥٠.

(٤) سورة النمل ٣٠.

أخرى من القرآن وهي براءة في كتاب سماوي احكمت آياته، فلا بد من وجود معنى وحساب وحكمة وأسرار في الأمر مما يحث على البحث والاستنباط.

وورد في صحيح مسلم عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: "أنزل عليّ آناً سورة فقرأ بسم الله الرحمن الرحيم"، وجاء عن ابن عباس أنه قال: أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان لا يعرف فصل السورة (وفي رواية انقضاء السورة) حتى ينزل الله عليه بسم الله الرحمن الرحيم.

(هذا وقد ورد عن الامام علي عليه السلام "أن التسمية في أول كل سورة آية منها وإنما كان يعرف انقضاء السورة بنزولها ابتداء للآخرى، وما أنزل الله كتاباً من السماء إلا وهي فاتحة"، وكذا روي عن الصادق عليه السلام)^(١).

وعنه أيضاً أن المسلمين كانوا لا يعرفون انقضاء السورة حتى تنزل بسم الله الرحمن الرحيم فإذا نزلت عرفوا أن السورة قد انقضت، وتواتر النصوص وتسالم النقل بلفظ النزول يدل على إن البسملة آية نازلة من عنده تعالى كجزء من القرآن وإن تكرار النزول يعني في الظاهر التعدد في المعنى وسياق الآيات وإن إتحاد اللفظ.

ويستلزم جمع النصوص الواردة بخصوص البسملة والتحقيق فيها كتاباً مستقلاً ويظهر البحث فيها وفي تواترها جزئيتها من القرآن ومن سورة الفاتحة كما أن النصوص الواردة بجزئيتها من الفاتحة اعم من أن ينحصر موضوعها بالفاتحة بل جاء للبيان ولأن سورة الفاتحة هي الفرد الغالب ذو الإبتلاء اليومي.

وقد أورد البيهقي في شعب الإيمان والواحدي عن ابن مسعود أنه قال: "كنا لا نعلم فصل ما بين السورتين حتى تنزل بسم الله الرحمن الرحيم" وبيان وظيفة البسملة بأنها للفصل بين السور هو الذي جعل فريقاً

(١) تفسير الصافي/ تفسير سورة الفاتحة طبعة حجرية غير مرقمة.

من العلماء يقول بعدم جزئيتها من السورة.
وظهور موضوعية البسملة في الفصل بين الآيات لا يعني انحصار
وظيفتها به بل انه جاء للبيان ومعرفة أهميتها وفيه تأديب للمسلمين
وتوكيد على عظيم منزلتها كما أن النصوص الأخرى لها الحكومة أي
التوسعة في تحديد منزلتها وجزئيتها من السورة (ورد عن أم سلمة "أن
رسول الله صلى عليه وآله وسلم قرأ البسملة في أول الفاتحة في الصلاة
وعدها آية")^(١).

(وعن عبد الله بن نافع عن أبيه عن ابن عمر قال: "نزلت بسم الله
الرحمن الرحيم في كل سورة")^(٢).

قانون البسملة وثيقة سماوية

والبسملة وثيقة سماوية خالدة في الأرض وتبعث ضياء بركاتها في
الآفاق وتنفذ إلى النفوس لتمتلاً طمأنينة وشعاعاً إيمانياً نافعاً، والنطق بها
أو كتابتها عون ومدد في التقرب إلى الله عز وجل والنيل من رحمته، ورد
عن طاوس عن عباس: أن عثمان بن عفان سأل رسول الله صلى الله
عليه وآله وسلم عن بسم الله الرحمن الرحيم فقال: اسم من أسماء الله
تعالى وما بينه وبين اسم الله الأكبر إلا كما بين سواد العين وبياضها من
القرب^(٣).

وعن الإمام الصادق عليه السلام: "أنها أقرب إلى اسم الله الأعظم
من ناظر العين إلى بياضها".

وفي اسم الله الأعظم ومنافع الدعاء ومضان الاستجابة وقضاء
الخواجج لمن أنعم الله عليه بمعرفته مبحث خاص سيأتي في الأجزاء التالية
أن شاء الله، وقيل أن لله عز وجل ألفاً وواحداً من الأسماء وأن ذلك
مشتهر بين العلماء.

(١) ابن كثير/ تفسير القرآن العظيم ٢٥/١.

(٢) النيسابوري/ اسباب النزول ١١/١.

(٣) مفاتيح الغيب ٢١١/١.

ومن الصعب جداً أن يقال بأن المسلم يستطيع الاستغناء عن بسم الله الرحمن الرحيم في سعيه لحوائج الدنيا والآخرة وهي بيان وتوكيد لرحمته تعالى وسلاح ملكوتي تفضل به الله ووهبه لأهل التوحيد، وورد في الكافي عن الإمام محمد الباقر عليه السلام: "أن أول كتاب نزل من السماء بسم الله الرحمن الرحيم فإذا قرأتها فلا تبال أن لا تستعيذ وإذا قرأتها سترتك في ما بين السماء والأرض".

كما ورد عن أبي سعيد الخدري أنه قال: "قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أن عيسى بن مريم أسلمته أمه إلى الكتاب ليعلمه فقال له المعلم: اكتب بسم الله الرحمن الرحيم، قال له عيسى: وما بسم الله، قال المعلم: لا أدري فقال له عيسى: الباء بهاء الله، والسين سناؤه، والميم مملكته، والله إله الآلهة، والرحمن رحمان الدنيا والآخرة، والرحيم رحيم الآخرة"^(١)، ومثله روي في مجمع البيان عن الأمام الصادق إلا أنه قال: "الميم مجد الله، والله اله كل شيء، الرحمن لجميع خلقه والرحيم بالمؤمنين خاصة".

وذكر أن أول الإنجيل هو قوله ((بسم الاها ورحياناً)) وهو ترجمة بسم الله الرحمن الرحيم، ولا يعني هذا ان البسملة مأخوذة منها بل أنها جاءت في التوراة مقدمة للبسملة العربية الموجودة في القرآن، أنها ذكر لله عز وجل وتوكل عليه وتلمس لطرق الحياة والسير في دروبها بسمه من سمات الله عز وجل.

ومن الذين حرصوا على ذكر اسم الله (تبع) فكان يبدأ كتابه : بسم الله الذي ملك براً وبحراً، وهو الذي الذي سار بالجيوش وحير الحيرة، وبني سمرقند.

وعن النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم لا تسبوا تبعاً فإنه قد أسلم، وعنه صلى الله عليه وآله وسلم: ما أدري كان تبع نبياً أو غير

نبي^(١).

وفيه بيان للتقارب بين مرتبة بعض أهل التقوى وأنبياء زمانهم، وذكر أنه هو الذي كسا الكعبة، وقد ذم الله عز وجل قومه ولم يذمه، قال تعالى ﴿وَأَصْحَابُ الْاَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ﴾^(٢).

وبالسملة أول كلمة تستقبل الولد في الحياة اذ يستحب أن تنطق القابلة بالبسملة ساعة تلقي الولد من الأم لتكون شعاعاً ينير للمولود سبل الدنيا ومسالك الإيمان، وكلمة ترحيب مباركة ومفتاح تعارف مع الحياة وأهلها يبعث على السكينة والأمن والتفاؤل، وهي آخر ما يسمعه الإنسان في الحياة الدنيا فيقال إذا مات وأدخل في قبره (بسم الله) لتكون له قريناً ملازماً يشارك في الذب عنه في عالم البرزخ.

وورد عن الإمام علي عليه السلام: "إن الله عز وجل هو الذي يتأله^(٣) إليه كل مخلوق عند الحوائج والشدائد إذا انقطع الرجاء من كل ممن دونه وتقطع الأسباب من جميع من سواه، تقول: بسم الله الرحمن الرحيم "أي أستعين على هذا الامر بالله الذي لا تحق العبادة لغيره، المغنيث إذا استغيث، والمجيب إذا دعي^(٤)".

قانون النطق بالبسملة جهاد

لقد أجمع العلماء على استحباب التسمية وذكر الله عند الابتداء بأي أمر أو فعل صغيراً كان أو كبيراً.

وقد يظن المرء أن الإتيان بالبسملة خال من المتاعب في الأيام الأولى للإسلام وإن النطق بها ليس فيه ضرر على أحد، ولكن ذلك خلاف الواقع فقد عانى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من صد قريش

(١)الكشاف ٢٦٨/٦.

(٢) سورة ق ١٤.

(٣) يتأله أي يفزع ويلتجأ ويطمئن.

(٤)تفسير الإمام العسكري ٦/٩.

ومحاربتهم لذكر الله بلسان التوحيد.

روي عن ابن عباس انه قال: قام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال بسم الله الرحمن الرحيم فقالت قريش؛ دق الله فاك^(١).

فكانت البسملة عنوان الدعوة إلى الإسلام ومفتاحاً لنشره وتهيئة لأذهان الناس لتلقي وسماع ما انزل على النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم من الوحي، ومصادقاً من مصاديق الجهاد.

ويمكن القول أنها باب لمخاطبة الناس ودعوتهم فان ذكر الله تعالى مجرد عن ذم آلهم لا يتضمن إستفزازاً مباشراً لهم وربما إنهمزوا عند سماعها، وفيه واقية للإسلام والمسلمين في بداية الدعوة وإجتناّب لشر الكفار، قال تعالى ﴿وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ﴾^(٢).

وصحيح أن سبب نزول هذه الآية مبارزة الإمام علي عليه السلام لعمر بن ود العامري في معركة الخندق بعد أن أصر عمرو على المبارزة وصار يعير الصحابة لأنهم لم يبرزوا لقتاله.

فكان أن صرعه الإمام علي عليه السلام ولكن موضوع الآية أعم وهي من اللطف الإلهي بالمسلمين.

عن الإمام محمد الباقر قال: "كان رسول الله صلى الله عليه وآله يمجهر بيسم الله الرحمن الرحيم ويرفع صوته بها فإذا سمع المشركون ولوا مدبرين".

وروي عن ابن عباس أنه قال: "أول ما نزل به جبريل على النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم قال: يا محمد إستعذ وقل بسم الله الرحمن الرحيم"، وبالإسناد عن عكرمة والحسن البصري قالوا: "أول ما نزل من القرآن ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ فهو أول ما نزل من القرآن بمكة^(٣).

(١) مفاتيح الغيب ١/١٧٧.

(٢) سورة الأحزاب ٢٥.

(٣) علي بن أحمد الواحدي النيسابوري / أسباب النزول ١١/.

وهذه الرواية تؤكد أن بسم الله الرحمن الرحيم آية مكية وأنها فاتحة الوحي وبها يبدأ كل مرة، تبدأ به سورة قرآنية بإستثناء براءة والتي تسمى أيضاً التوبة الأمر الذي يجسد قدسية خاصة لها ويحث على تدبر وجوه عظمتها وكان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يعلن ويبين هذه الحقيقة.

روي عن ابن عمر "أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: كان جبريل إذا جاءني بالوحي أول ما يلقي عليّ بسم الله الرحمن الرحيم".
لقد كانت ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ آية في الأرض وشعاراً إسلامياً لذلك ترى كفار قريش في يوم الحديبية لما قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لعلي عليه السلام: اكتب بسم الله الرحمن الرحيم يقولون: لا نعرف الرحمن ولا الرحيم^(١).

وهو جحود منهم وصد وعزيمة على الفرار من الإسلام خاصة إذ أن الصفتين كانتا معروفتين لله عز وجل عند العرب في الجاهلية وأشعارهم ، قال تعالى ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾^(٢).

ولم يلبث هذا الجحود حتى انحسر وتلاشى بيزوغ شمس الإسلام وأصبح المؤمنون يتذوقون طعم وبركة الآية الشريفة ويرددونها بشوق بعد أن أدركوا إستحباب الجهر بها مطلقاً، لما ورد في كتب المسلمين وأهل الحديث عن النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: "كل أمر ذي بال لم يبدأ فيه ببسم الله الرحمن الرحيم فهو أقطع"^(٣).

إنها رمز للتوحيد وتمسك حاضره في كل واقعة وفعل، وطرده للشرك وتحصين للنفوس منه، وبسم الله الرحمن الرحيم سبيل نجاة وكهف أمان يلجأ اليه الإنسان عند الشدة والبلاء.

(١) تفسير ابن كثير ١/٢٢٦.

(٢) سورة الأنفال ٣٠.

(٣) جمع الجوامع ١/١٥٧٨٧.

(أخرج عن الإمام علي عليه السلام مرفوعاً : "إذا وقعت في ورطة فقل بسم الله الرحمن الرحيم ولا قوة إلا بالله العلي العظيم فان الله يصرف بها ما يشاء من أنواع البلاء"^(١)).

قانون قدسية التنزيل

لقد أحاطت بالبسملة عند النزول هالة من القدسية والتعظيم في الآفاق وخشعت الخلائق ساعة سماعها خاصة وان الله عز وجل جعلها باباً للزيادة والنماء النافع، أخرج عن جابر بن عبد الله قال: "لما نزلت بسم الله الرحمن الرحيم هرب الغيم إلى الشرق، وسكنت الريح وهاج البحر وأصغت البهائم بأذانها ورجمت الشياطين من السماء وحلف الله بعزته وجلاله أن لا يسمى على شيء إلا بارك الله فيه"^(٢).

فلا غرابة أن تردد الجبال بالذكر والتسبيح قول المؤمن بسم الله الرحمن الرحيم فرحاً بذكر الله في الأرض بمضامين التعظيم والتقديس والرحمة والرافة ليكون النطق اليومي العام من المسلمين للبسملة من مصاديق قوله تعالى ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾^(٣).

إذ أن الآية إفاضة كريمة من رحمته تعالى على الأرض وعمارها، وقد اخرج عن عائشة إنها قالت: "لما نزلت بسم الله الرحمن الرحيم ضجت الجبال حتى سمع أهل مكة دويها، فقالوا: سحر محمد الجبال فبعث الله دخاناً حتى أضل أهل مكة فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: من قرأ بسم الله الرحمن الرحيم موقناً سبحت معه الجبال إلا أنه لا يسمع ذلك منها"^(٤)، وقريب منه ورد عن الإمام محمد الباقر عليه السلام.

إن قراءة ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ فعل إيماني لا يخلو من المنافع

(١) السيوطي / الدر المنثور ٢٦/١.

(٢) السيوطي / الدر المنثور ٢٦/١.

(٣) سورة البقرة ٣٠.

(٤) السيوطي / الدر المنثور ٢٦/١.

المادية والتي تكون ساعة النطق بها إلى جانب ما فيها من الثواب ذاته مصدراً مباشراً لشعب من تلك المنافع.

أخرج عن بن مسعود انه قال: "قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: من قرأ بسم الله الرحمن الرحيم كتب له بكل حرف أربعة آلاف حسنة، وحكي عنه أربعة آلاف سيئة، ورفع له أربعة آلاف درجة"^(١).

وهذا الثواب العظيم يدل على المنزلة الخاصة للبسملة في العقيدة الإسلامية وهي دعوة لإستنباط الدروس والمواظع منها.

لقد جاءت السنة النبوية الشريفة ببيان المواضع التي يستحب فيها قول (بسم الله الرحمن الرحيم) لما فيه من موضوعية في بناء الإسلام وترسيخ عقائده، وصلاح الفرد المسلم، ومن تلك المواضع مناسبة وطئ الزوجة.

وروي في الصحيحين عن عبد الله بن عباس "إن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال لو أن أحدكم أراد أن يأتي أهله قال بسم الله الرحمن الرحيم جنبنا الشيطان وجنب الشيطان ما رزقتنا فانه أن يقدر بينهما ولد لم يضره الشيطان أبداً"^(٢).

قانون عموم منافع البسملة

تستوعب منافع البسملة الموجود والمعدوم وتضفي على الحياة إشراقة ورونقاً إيمانياً لأن طمع ورغبة الإنسان في الولد يصاحبها خوف من المستقبل المجهول وما تخفيه الأيام للأبوين أو الولد .

فجعل الله عز وجل البسملة على وجوه :

الأول : إنها وثيقة رجاء وصول النعم.

الثاني : قانون البسملة وشهادة ضمان لدفع الضرر المحتمل في

المستقبل.

الثالث : قانون البسملة مناسبة كريمة للثقة والإطمئنان والسكينة.

(١) السيوطي / الدر المنثور ٢٦/١.

(٢) الجمع بين الصحيحين ٣٠/٢.

الرابع: قانون البسملة قوة دواعي حصول المقاصد والآمال.
الخامس: قانون البسملة سلاح لمنع الشيطان وتأثيره على الاولاد في حالة التكوين وايام النشأة.

السادس: قانون تلاوة البسملة استحضر لذكر الله تعالى والابتداء باسمه في اهم عملية تكوين إنساني.

السابع: البسملة لجوء إلى أسمائه تعالى وكلماته التامة للاستعاذة من شر الشيطان وجنوده، ووقاية والتفات إلى صيغة التحذير الواردة في قوله تعالى ﴿ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ ﴾^(١).

وعن عبد الرحمن بن كثير قال كنت عند الإمام الصادق جالساً فذكر شرك الشيطان فعظمه حتى أفزعني قلت جعلت فداك فما المخرج من ذلك؟ فقال: إذا أردت الجماع فقل: بسم الله الرحمن الرحيم الذي لا إله إلا هو... "الدعاء"^(٢).

أن تعليم البسملة للصبيان في المدارس ذو منافع دنيوية إلى جانب ما فيه من الثواب العظيم الذي يبهز عقول أهل الحساب والذين ينظرون بلغة المقادير في الأخذ والعطاء والله عز وجل يرزق من يشاء بغير حساب وهو الواسع الكريم فما أكثر الذين ينتفعون من بركات تعلم كل صبي البسملة.

روي عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: "إذا قال المعلم للصبي قل: بسم الله الرحمن الرحيم، فقال الصبي: بسم الله الرحمن الرحيم، كتب الله براءة للصبي وبراءة لأبويه وبراءة للمعلم"^(٣).
 وبلحاظ أن الحسن في علم الكلام هو الفعل الذي وافق الأمر، أو ما حسنه الشرع وجعله سائغاً مستحباً وإستحق عليه مدحاً ولا يستحق عليه ذمماً، فإن ظاهر هذه الرواية الحسن الإضافي للبسملة والمترشح على

(١) سورة الاسراء ٦٤.

(١) انظر الوسائل ٣ / ٧٢ طبعة حجرية.

(٣) البرهان في تفسير القرآن ١ / ٤٣.

الوالدين والمعلم والمتعلم لتوكيد عمومات واستغراق بركات البسملة مما يدل على أهميتها في تثبيت لواء التوحيد في الأرض والحاجة الشخصية لها في الدارين لذا تفضل الله سبحانه وجعل الثواب في البسملة متعددًا ومستوعبًا للذي جاء بها ولن علمه وللسبب التكويني للتلفظ بها. ويستلزم البحث في البسملة إستقراء ودراسة ما لها من العوارض الذاتية وما يترشح عنها من المنافع، ويستحب أن يؤتى بها من غير تقييد بشرط ولا تقارن بشيء من العوارض وهي التي تسمى الماهية بشرط لا أي المجردة.

قانون البسملة نجاة في النشاطين

البسملة مستحبة بذاتها وان لم يكن في البين غايات وقضايا متحدة أو متعددة تتعلق بها كما يؤتي بالبسملة على نحو مطلق أي لا بشرط بلحاظ إنها عنوان مستقل ومغاير للأغراض والإعتبارات التي تكون بداية مباركة لها، وتنسب بركاته على الغايات التي جيء بالبسملة لها وكذا التي لم تقصد لعموم بركاتها، ومن الآيات إن منافعها لا تنحصر بأيام الحياة الدنيا بل تتعدى لتشمل الآخرة أيضاً.

وستبقى قراءة البسملة حرزاً وأماناً من سطوة الملائكة الذين يتولون أمر النار يوم القيامة وسلطانهم، كما في قوله تعالى ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً...^(١) الآية التي قابلتها قريش بالتهكم، وقال أبو جهل لقريش: ثكلتكم أمهاتكم أسمع ابن أبي كبشة يخبركم أن خزنة النار تسعة عشر واثم الدهم أيعجز كل عشرة منكم أن ييطشوا برجل منهم؟ ... إلى آخر القصة.

هؤلاء الملائكة الغلاظ ذوو الشدة والبأس الذين يفعلون ما يؤمرون من غير أن تأخذهم بأهل العذاب رافة أو رحمة يمكن النجاة من بطشهم في ذلك اليوم العصيب ومن الفرع منهم يوم الخوف الأكبر بقراءة بسم الله

الرحمن الرحيم لتكون وثيقة وعهد سلام وكتاب أمان دائم.
عن ابن مسعود قال: "كل من أراد أن ينجيهِ الله من الزبانية التسعة عشر فليقرأ بسم الله الرحمن الرحيم فإنها تسعة عشر حرفاً يجعل الله كل حرف منها جنة من واحد منهم^(١)."

إن قراءة البسملة وسيلة لصعود الدعاء وسبيل مبارك لتحقيق الإستجابة فالملائكة تستحي أن تتباطأ في رفع دعاء فيه اسم الله وشهادة برحمته وعظيم رأفته، وربما تضرعوا إلى الله عز وجل في تعجيل الإستجابة، وهي أيضاً باب شفاعة وإكرام لأسمائه الحسنی هذا إلى جانب ما في تقديم البسملة في الدعاء من ثواب سواء كانت الاستجابة فيه أو في غيره.

وورد عن النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم انه قال: "لا يرد دعاء أوله ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ فإن أمتي يأتون يوم القيامة وهم يقولون بسم الله الرحمن الرحيم فتثقل حسناتهم في الميزان فتقول الأمم: ما أرجح موازين أمة محمد صلى الله عليه وآله وسلم، فيقول الأنبياء: أن ابتداء كلامهم ثلاثة أسماء من أسماء الله تعالى لو وضعت في كفة الميزان ووضعت سيئات الخلق في كفة أخرى لرجحت حسناتهم^(٢)."

قانون البسملة تركة مباركة

البسملة تركة معنوية وأخلاقية دينوية وأخروية، فالمعروف أن المال تركة للدنيا، فإذا كانت الدنيا زائلة فمن باب أولى أن تكون التركة الشخصية عرضة للزوال وربما كانت وبالأعلى الشخص في جمعها وتحصيلها وفي بقائها آلة للحرام وسبباً للمعصية.

أما البسملة فهي تركة بذاتها ووعاء ومقدمة وعرض لغيرها فهي وقاء وحفظ لتركة المال.

(١) البرهان في تفسير القرآن ٤٣/١.

(٢) ربيع الأبرار ١٩٨/١.

ويصل ثواب تعلم وقراءة (بسم الله الرحمن الرحيم) إلى الأموات من الآباء أيضاً فضلاً منه تعالى، عيسى بن مريم مر على قبر فرأى ملائكة العذاب يعذبون ميتاً فلما إنصرف في حاجته مر على القبر فرأى ملائكة الرحمة معها أطباق من نور فتعجب من ذلك فصلى ودعا الله تعالى. فأوحى الله تعالى إليه: يا عيسى كان هذا العبد عاصياً ومذمات كان محبوساً في عذابي وكان قد ترك امرأة حبلى فولدت ولداً وربته حتى كبر فسلمته إلى الكتاب فلقنه المعلم بسم الله الرحمن الرحيم فاستحييت من عبدي أن أعذبه بناري في بطن الأرض وولده يذكر إسمي على وجه الأرض^(١).

وكما أفادت بعض النصوص وجود منافع دنيوية وأخرى تتعلق بعالم الحساب والجزاء للإتيان بالبسملة فإن هذا الخبر يؤكد الإلتفات في عالم البرزخ من قراءة الغير والولد الصالح الذي ينتفع منه الإنسان بعد موته. لقد جعل الله الحياة الدنيا دار إمتحان وبلاء يتيه الإنسان في غمرة مشاغلها وتنقله كل آن من حاجة إلى أخرى من حوائجها ومن إبتلاء إلى آخر، يصيب فيها الإنسان ويخطئ ويربح ويخسر ويأخذ ويعطي وتفرحه حيناً وتحزنه حيناً آخر، وتضعف قدرته على العمل ويصيب أعضاؤه الوهن وهو أمر ظاهر بالوجدان تظهر أماراته وإنذاراته بالشيب الذي يزحف متسللاً بتوئدة وثبات وإصرار.

وفي كل أحواله يكون الإنسان مأموراً بذكر الله والإستعانة به، ومن وجوه الإستعانة قول ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾^(٢)، والنطق به واستحضاره عند كل مناسبة وعند إتيان كل فعل سواء كان كبيراً أو صغيراً، جليلاً أو دقيقاً.

والإتيان بها له موضوعية وتأثير على هذه الأفعال والكيفيات في إتساع

(١) مفاتيح الغيب ١ / ١٧٢.

(٢) سورة الفاتحة ١.

وتعدد وجوه الصلاح فيها وإنحسار الضرر والشر فيما يواجه الإنسان في حياته اليومية وبذا تكون البسملة سلاحاً حاضراً وواقية وحرزاً.

وقد ورد بالإسناد عن الحسن بن علي العسكري عن آبائه عن علي في حديث قال: "أن الله يقول أنا أحق من سئل، وأولى من تضرع إليه، فقولوا عند إفتتاح كل أمر صغير أو عظيم بسم الله الرحمن الرحيم أي أستعين على هذا الأمر بالله الذي لا تحق العبادة لغيره، المغيث إذا أستغيث... إلى أن قال: وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من حزنه أمر يتعاطاه فقال بسم الله الرحمن الرحيم وهو مخلص لله يقبل بقلبه إليه، لم ينفك من إحدى اثنتين، إما بلوغ حاجته في الدنيا، وإما يعدله عند ربه، ويدخر له لديه وما عند الله خير وأبقى للمؤمنين"^(١).

إن الإتيان بالبسملة وإن حمل على النذب في غير القراءة الواجبة في الصلاة وما دل عليه الدليل إلا إن التقصير وعدم قول بسم الله الرحمن الرحيم عند إفتتاح أمر ما يجلب على الإنسان الإبتلاء ويعرضه للامتحان ويفقده فرصة التيسير واللفظ الإلهي إلا أن يشاء سبحانه فرحمته أعم من أن تنحصر بفعل العبد وثوابه فقد تأتي فضلاً منه، أي قد لا يتبدأ العبد بالبسملة ولكن الله يبتدئه بالرحمة والفضل.

وعن الإمام الصادق عليه السلام في حديث قال: وإن الله يقول لعباده أيها الفقراء إلى رحمتي أني قد ألزمتكم الحاجة الي في كل حال وذلة العبودية في كل وقت فالي فافزعوا في كل أمر تأخذون فيه وترجون تمامه وبلوغ غايته فقولوا عند افتتاح كل أمر صغير أو عظيم بسم الله الرحمن الرحيم أي استعين على هذا الأمر بالله".

وقال رجل هو عبد الله بن يحيى للإمام علي عليه السلام أن رأيت أن تعرفني ذنبي الذي امتحنت به في هذا المجلس فقال: تركك حين جلست أن تقول بسم الله الرحمن الرحيم، أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حدثني عن الله عز وجل انه قال كل أمر ذي بال لم يذكر فيه اسم

الله فهو أبتر^(١).

ويدل الحديث على عدم إحصار إعتبار البسملة في افتتاح عمل مقصود بل هي سلاح ووقاء ملازم للإنسان في تبدل أحواله وكأنها حصانة وقرين فلاح.

قانون الإكثار من البسملة أمان

إن الإكثار من قول بسم الله الرحمن الرحيم أمان من الزلل باعتبار أن قولها ذكر لله وسؤال للرحمة والفضل الإلهي، وفيه دعوة إلى عدم التفريط بها عند قراءة القرآن وإشارة إلى استقلال كل بسملة عن الأخرى بلحاظ الصورة التي تفتح بها.

وروي عن الإمام الصادق عليه السلام قال: أن رجلاً توضأ وصلى فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أعد وضوءك وصلاتك ففعل فتوضأ وصلى، فقال له النبي صلى الله عليه وآله وسلم: أعد وضوءك وصلاتك ففعل وتوضأ وصلى، فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: أعد وضوءك وصلاتك، فأتى أمير المؤمنين عليه السلام فشكا ذلك إليه فقال له: هل سميت حيث توضأت؟ قال: لا، قال: سمي على وضوءك فسمي وتوضأ وصلى، فأتى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فلم يأمره أن يعيد^(٢).

والحديث مدرسة لإتقان آداب الاستعانة بالله وعدم ترك التسمية حتى عند إتيان الواجب ولتعلم الحرص على المواظبة عليها لنيل تمام الأجر في الفعل العبادي وللتحصن من شر الشيطان، ومن وجوه تفسير هذا الحديث ما ورد عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام إذ قال: "إذا توضأ أحدكم ولم يسم كان للشيطان في وضوئه شرك، وإن أكل أو شرب أو لبس، وكل شيء صنعه ينبغي له أن يسمي عليه فان لم يفعل كان

(١) البحار ٣٠٥/٧٣.

(٢) الوسائل ١/ ٥٧ طبعة حجرية.

وبذا تكون منافع البسملة مركبة ومتعددة ولا تنحصر بزيادة الأجر والثواب بل أنها آلة الوقاية والإحتراز من الشيطان ومكره وإغوائه، إنه نوع إلتجاء إلى الباري بالتلفظ بإسمائه، فلا غرابة أن تجد البسملة تتضمن اسم الجلالة مع إسمين من الأسماء الحسنى يحتاج إليها الإنسان في كل حال من أحوال الدنيا والآخرة، ويأتي بالبسملة وكأنه ينطق حرفاً وكلمة واحدة، مما يدل على الإعجاز والتخفيف والتيسير وإقامة الحجة في إدراك منافع البسملة بمجرد التلفظ بها وإن عظيم نفعها ينعكس عليها بالذات والعرض.

إن ذكر الله على الوضوء توجه روحي لأداء الفعل العبادي ونقاء للقلب وهجران للدنيا وإعراض عن أسباب الكفر والبدع.

رسم البسملة

من أسرار الحكمة ما جاء في السنة النبوية الشريفة من تأكيد الاعتناء بكتابة بسم الله الرحمن الرحيم على نحو خاص لبيان قدسيته، روي عن انس قال: "قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: من كتب بسم الله الرحمن الرحيم مجودة تعظيماً لله غفر الله له" (٢).

والحديث قاعدة مباركة في الرسم القرآني والخط العربي مستنبطة من عالم الوحي والرسالة بإحاطة كتابة بسم الله الرحمن الرحيم بهالة من القدسية وبروح من الخشوع وبقصد الإجلال بالإضافة إلى الطمع بجزيل الثواب.

وأخرج البيهقي في شعب الإيمان عن الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام انه قال: "تنوق" (٣) رجل في بسم الله الرحمن الرحيم فغفر له" (٤).

(١) الوسائل ٥٧/١ طبعة حجرية.

(٢) السيوطي / الدر المنثور ٢٧/١.

(٣) تنوق في الأمر: أي تأثق فيه وبألف في الاعتناء به وإجاده.

(٤) شعب الإيمان ١٩٣/٦.

فلا بأس بإقامة معرض للخط العربي خاص بيسم الله الرحمن الرحيم وآيات القرآن والأحاديث الخاصة بالبسملة تعرض فيه أفضل وأحسن الخطوط لتعتمد في المصنفات والمراسلات والهدايا ونحوها، وإستثمار شبكة ومواقع الأنترنت للبسملة وأسرار الحرف القرآني ، وفيه ببركة البسملة تطوير وتعاهد للخط العربي ورسم المصحف كما يدخل ضمن عمومات إحياء علوم القرآن خصوصاً إذا إقترن بندوقات ومحاضرات عن رسم المصحف وتأريخه وأسرار البسملة ونحوها.

ولقد جاءت الرواية عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم بالإرشاد والتوجيه في رسم حروفها وتفصيل خطها لما فيه من وقع في النفوس وأثر في نشأة الأجيال وتوارث إجلال القرآن والحفاظ على كلماته، أخرج ابن عساكر في تاريخ دمشق عن زيد بن ثابت أنه قال: "قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: إذا كتبت بسم الله الرحمن الرحيم فبين السين فيه"، (واخرج أيضاً عن ابن عباس أنه قال: "قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: لا تمد الباء إلى الميم حتى ترفع السين"^(١)).

وتدل هذه المنزلة الرفيعة للبسملة في السنة القولية والفعلية والتقريبية على مضامين قدسية لها وفلسفة تعبدية بالإتيان بها ورسمها ولزوم تعاهدها خطأ ولفظاً وإحاطتها بهالة من الإكرام والتقديس والعناية الشخصية والنوعية ومن لدن عامة الناس وأهل الحل والعقد والأمراء والرؤساء.

وتولى عمر بن عبد العزيز بنفسه الإشراف على كتابة بسم الله الرحمن الرحيم ويقول لكاتبه: طول الباء واطهر السينات ودور الميم، وذكر أنه ضرب كاتباً كتب الميم قبل السين فقبل له فيم ضربك أمير المؤمنين؟ فقال: في سين، وقد يستغرب المرء هذا الفعل منه مع ما اشتهر به من الزهد وعلى خلاف سيرة من سبقه من بني أمية.

ولكن هذا الإستغراب يتلاشى عند النظر للفعل من جهة تعظيم

القرآن وكتابته وما سنه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في هذا الباب وهو جزء من مدرسة إكرام القرآن بتعاهد رسمه بما يتناسب وعظيم منزلته، فالمؤمن يشعر أنه يكتب أو يقرأ إفاضة سماوية لها آثار مباركة على العين والأذن والأركان، وكأن عطراً طيباً ملكوتياً ينطلق من الحرف القرآني فيملأ نفس الكاتب أو القارئ بضياء الإيمان فتظهر على جوارحه تجليات الخشوع والخضوع ليكون تركة كريمة خاصة بالبسملة.

وروي عن ابن عون أنه كتب لابن سيرين (بسم) فقال: مه.. اكتب سينا، إتقوا أن يَأْثُمَ أحدكم وهو لا يشعر، والظاهر أن ابن عون لم يظهر السين.

وقيل أن الباء طولت للتعويض عن حذف الألف في محاولة رمزية للجمع بين قاعدة الخط وواقع الاستعمال ولكنه للتعظيم، وكره مجاهد والشعبي أن يكتب الجنب بسم الله الرحمن الرحيم.

قانون تنزيه كتابة البسملة

لا ينحصر تقديس البسملة في كيفية كتابتها وقراءتها بل يتعداه الى ضرورة الاهتمام بالظرف الذي يحتويها والشئ الذي تكتب فيه، فالقرطاس الذي تدون فيه يجب أن يولى عناية خاصة إكراماً لشرف ما فيه.

روي عن عمر بن عبد العزيز مرسلاً "أن النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم مرّ على كتاب في الأرض فقال لفتى معه ما في هذا؟ قال ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: لعن من فعل هذا لا تضعوا بسم الله إلا في موضعه"^(١)، ولقد جاء أمر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ذا شعبتين:

الأولى: النهي عن وضع بسم الله الرحمن الرحيم وما تكتب فيه في غير المكان اللائق والمناسب.

الثانية: ضرورة المبادرة إلى نقلها من المكان الذي لا يتلاءم مع صيغ

التكريم وإعتبار الآداب الإسلامية خاصة وفيه مسائل أخرى:
الأولى: إن القيام بهذا النقل يعود بالنفع العام لما فيه من المحافظة على تعظيم جانب القرآن وإجلال آياته.

الثانية: دوام الاستعانة بالبسملة مفتاح للأعمال.

الثالثة: خطورة وسوء إلقاء الورقة التي دونت فيها البسملة على الأرض لما ظهر على النبي صلى الله عليه وآله وسلم من الأذى ولعنه من فعلها، ومصاديق اللعن على لسان النبي في المكروهات والآداب ليس بكثير مع كثرة الأحاديث النبوية في هذا الباب أمراً ونهياً .
وهل يحتمل علم النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بأن الذي ألقى هذا الكتاب في الأرض من الكفار أو المنافقين فلعنه، الجواب نعم.
والمسألة التالية أمانة عليه.

الرابعة: مبادرة النبي صلى الله عليه وآله وسلم للسؤال عن الظرف في آية إعجازية وظاهرها الإخبار السماوي مما يدل على مشاركة الوحي في لزوم تنزيه البسملة من الإلقاء على الأرض وتعريض كتابتها للهلك.
الخامسة: ترشح الفضل والإجلال على الظرف والورق والصحيفة التي تكتب فيها مما يدل بالدلالة الإلزامية على التركة الإضافية لكتابة البسملة في الكتاب والرسالة وطلب الحاجة.

السادسة: قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم مركب ينحل إلى أمرين، الأول ذم الفعل وإظهار قبحه، والثاني النهي الصريح عن إتيانه وفعله، كما أن النهي جاء بصيغة الجمع مما يعني انه خطاب لجميع المسلمين في كل زمان ومكان.

السابعة: النفع الخاص لمن يقوم بالرفع والتطهير والتعاهد والحفظ وبيان ما فيه من عظيم الثواب له ولوالديه.

وكذا من أمر به تعظيماً لشعائر الله وأمرأ بالمعروف ونهياً عن المنكر ومحافظة على القدسية الخاصة لكلام الله والبسملة ، خاصة في النفوس.

الثامنة: لم يأمر النبي بإبتداء الكلام بغير البسملة.

وقد (روى عن النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: "من رفع قرطاس من الأرض فيه بسم الله الرحمن الرحيم لإجلالاً له تعالى كتب عند الله من الصديقين وخفف عن والديه وإن كانا مشركين" ^(١)).

وقصة بشر الحافي في هذا الباب معروفة، فقد نقل في سبب توبته أنه وجد في الطريق قطعة كان مكتوباً فيها (بسم الله الرحمن الرحيم) وقد وطأها أرجل المارة، فأخذها وطيبها بغالية اشتراها لها، ثم جعل القطعة في شق الحائط، فرأى في النوم كأن قائلاً يقول له: يا بشر طيبت إسمي فلأطيين إسمك في الدنيا والآخرة، فتاب من يومها ثم اشتهر بالورع والزهد والتقوى.

وكثيرة هي الشواهد التي تدل على صدق التوبة وتفضل الله تعالى بالهداية على من يشاء من خلقه، ولكن موضوع التوبة بإجلال البسملة أصبح مدرسة أخلاقية وعرفانية خاصة تصل طوعاً وقهراً إلى أكثر المسلمين في آية قرآنية وإعجازية لتعميم الفائدة والانتفاع الأمثل من رحمة الله تعالى بالبسملة فهي فضل الهي فاز بنيله المسلمون وكان من اللازم تعاهده والحرص عليه الأمر الذي تراه واضحاً في جميع الأحوال والأزمان والأجيال المتعاقبة للمسلمين .

قانون البسملة عز

في البسملة عز للمسلمين وإظهار للإمثال لأمر الله عز وجل وهو من عمومات قوله تعالى ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ ^(٢).

وقراءة بسم الله الرحمن الرحيم أمر ذو شأن وخصوصية لأن طريقة النطق بها وصيغة حروفها تعكس ما تحتله من منزلة رفيعة في النفس وتجسد صدق الإيمان، والإتيان بها وفق الأصول يبعث لدى السامع إجلالاً لها واستجابة ومشاركة في التقديس.

(١) مفاتيح الغيب ١/١٧١.

(٢) سورة المنافقون ٨.

وقد ورد عن انس بن مالك لما سئل عن قراءة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: كانت مداً ثم قرأ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ بمد بسم الله ويمد الرحمن ويمد الرحيم^(١). واجمع القراءة على أن الوقف على بسم ناقص وقبيح، وعلى قول ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ وكذلك ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ﴾ كاف وصحيح، أما الوقف على ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ فانه تام كامل.

وروي بالإسناد عن أبي كريب قال حدثنا عثمان بن سعيد قال: حدثنا أبو درق عن الضحاك عن عبد الله بن عباس قال: إن أول ما نزل به جبريل على محمد صلى الله عليه وآله وسلم قال: يا محمد قل استعِذ بالسميع العليم من الشيطان الرجيم ثم قال: قل بسم الله الرحمن الرحيم، ثم قال: قل بسم الله يا محمد يقول اقرأ بذكر الله ربك، وقم واقعد بذكر الله^(٢).

إن النطق بسم الله الرحمن الرحيم بناء في صرح الإيمان، وصرخة حق في وجه الكفار وأهل الشرك وهو لواء من ألوية الإسلام، وتنمية للملكة التقوى في النفس، وتثبيت لحسن التوكل وإجهار بذكره تعالى وإعلان للشروع بأعمال عبادة.



(١) الدر المنثور ١/٢٧.

(٢) تفسير الطبري ١/٥.

البسملة وبلقيس

وذهب بعضهم إلى القول بأن البسملة من الخصوصيات لما جاء في الرواية بأن النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان يكتب (بسمك اللهم) إلى أن نزل ﴿بِاسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا﴾^(١) أمر بكتابة ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾، حتى نزل ﴿قُلْ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾^(٢) فأمر بكتابة ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ﴾، إلى أن نزلت ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ في آية النمل فأمر بكتابتها.

ولكن الرواية جاءت بأنها فاتحة كل كتاب، وفي القرآن الكريم شواهد تؤيدها أو تشير إلى وجودها قبل الإسلام، ففي حكاية عن بلقيس ملكة سبأ في بلاد اليمن ورد في التنزيل ﴿قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُئِنَّيَ أَقْبَى إِلِيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ * إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِاسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * أَلَا تَعْلَمُونَ عَلَيَّ وَأَتُونِي مُسْلِمِينَ﴾^(٣).

وتبين الآية أعلاه حرص الأنبياء على الإتيان بها في افتتاح كتبهم مع أن كتب الأنبياء عليهم السلام كانت جملاً مختصرة وخالية من الإطالة وفيها إجتناّب واضح للإكثار والإطناب، ورسائل النبي صلى الله عليه وآله وسلم إلى ملك الروم وكسرى والنجاشي بيان وتوكيد ومدرسة ودليل في هذا الباب، ويمكن إعتبار البسملة هبة خاصة للمسلمين بوراثتهم للنعمة التي كانت عند الأنبياء.

وقال الشيخ الطوسي "وقوله ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ حكاية

(١) سورة هود ٤١.

(٢) سورة الاسراء ١١٠.

(٣) سورة النمل ٢٩-٣١.

ما قالته على المعنى باللغة العربية وان كانت لم تقل هي بهذا اللفظ^(١). ولكن بلقيس قارئة كاتبة عربية وكان أبوها ملك اليمن وليس له ولد غيرها وهو من سلالة كلهم ملوك إلى أربعين ظهراً، فبلقيس هذه من نسل تبع بن شراحيل الحميري، وسليمان الذي يكلم الطير ويعرف لغاته لا بد وأنه يخاطب الملوك بالسنتهم كجزء من وظائف وأخلاق النبوة وليان الحجة عليهم لأن العربية لغة القرآن ولسان خاتم الأنبياء وآلة الخطاب عند أهل الجنان.

وليس من قرينة في المقام تصرف الحكاية عن اصل دلالتها وهو اللفظ والمعنى معاً فيحمل على الإطلاق.

إن الآية الكريمة من سورة النمل شهادة سماوية بأفضلية أهل الإسلام وعز وفخر لهم في أحقاب التاريخ وسجلاتهم القديمة منها والآية، فالمسلمون هم الذين حفظوا هذه الآية السماوية العظيمة وتعاهدوها في الأرض حتى أصبحت شعاراً إيمانياً يسمع صداها في جميع أنحاء الأرض بفضل الله بعد أن فرط بها أهل الكتاب وغيرهم مع معرفتهم بعظيم قدرها وإحساسهم بالهبة لها وظهور حرص الأنبياء عليها.

وقيل أن كرم الكتاب في قوله تعالى ﴿كَابُ كَرِيمٌ...﴾^(٢) الوارد على لسان بلقيس يعود إلى ابتدائه باسم الله، وإنما قالته من منازل الكفر التي كانت وقومها عليها، ويمكن جعل هذا القول سبباً لتوكيد الروايات واهتمام المسلمين بالجهر بيسم الله الرحمن الرحيم سبيلاً لتعاهدتها ووسيلة للالتفاف من بركتها.



(١) انظر الشيخ الطوسي ٣٨٥ - ٤٦٠ هجرية / التبيان في تفسير القرآن ٩٢/٨.

(٢) سورة النمل ٢٩.

سبق نزول البسملة على الرسالة الخاتمة

ووجود البسملة قبل الإسلام لا يمنع من نزولها على نحو التدرج والتجزئة في حال ثبوته والنصوص والظاهر بخلافه.

لقد ورد عن الإمام العسكري عليه السلام أن الجهر بالبسملة من علامات الإيمان وقد تقدم عن الإمام الباقر عليه السلام أنها أول كتاب نزل من السماء.

وهذه الأولوية لها دلالات ومضامين تشريف وتقديس وإجلال للبسملة فكما أنها فاتحة كل سورة فإنها فاتحة التنزيل وبداية الوحي وفيها خصوصية بلحاظ أنها أول ما تلقاه النبي صلى الله عليه وآله وسلم من كلام الله عز وجل إذ استبشرت الكائنات بإطلالة فجر الإسلام.

وتبين الآية أن المشركين في أيام الرسالة الإسلامية أشد كفراً وجحوداً وعتواً من المشركين أيام الأنبياء الذين سبقوا الإسلام ونبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم، فبليقيس حينما جاءها كتاب سليمان أخبرت قومها به بلسان الإجلال واعترفت بعلو شأنه.

ويصير جواب وجهاء قومها إقراراً بعظيم منزلة المرسل وما في كتابه من دلالات، كما وإن الفصول اللاحقة للقصة إمضاء وتوكيد لموضوعية البسملة بينما تجد مشركي العرب يسخرون ويعرضون عند سماع النبي صلى الله عليه وآله وسلم يقرأها بل يتوعدونه في تهديد، فلا غرابة أن تقترن بالحروف المقطعة تنزيلاً من عنده تعالى.

وفي خبر أبي حمزة عن الباقر عليه السلام: قال: كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يجهر بيسم الله الرحمن الرحيم ويرفع صوته بها فإذا سمع المشركون ولوا مدبرين فانزل الله ﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَوَّا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا﴾^(١)، وبالإسناد عن علي بن إبراهيم في تفسيره عن الإمام الصادق عليه السلام إنها الآية التي قال الله

عز وجل ﴿وَإِذَا ذُكِّرْتُ بِرَبِّكَ فِي الْقُرْآنِ وَخُذْهُ وَلَوْ أَعْلَىٰ أَذْبَارِهِمْ نُفُورًا﴾^(١). وفي بيان معجزة القرآن الكريم أن حروف البسملة هي تسعة عشر حرفاً وهذا العدد أو مضاعفاته جاءت في تكرار كلماتها في القرآن، فكل كلمة اسم تكررت تسع عشرة مرة، وكل كلمة الرحمن تكررت سبعاً وخمسين مرة أي تسعة عشر مضروباً بثلاثة، وكل كلمة (الرحيم) تكررت مائة وخمسة عشر مرة.

كما وأن بسم الله الرحمن الرحيم وردت فيه مائة وأربع عشرة مرة أي تسع عشرة مضروباً بستة، ولا بد أن للعدد تسعة عشر أسراراً ملكوتية كما ورد في إحصائية تشير إلى إعجاز القرآن، وهو أمر يبعث على التدبر وسر قرآني تكمن في ثنياه حقائق علمية ومعارف خفية ربما توصل إلى شطر منها أولوا الأبواب وأرباب العقول واستنبطوا منها الدروس خاصة مع التطور المتصل للعلوم وإرتقاء مستلزماتها.

وذكر أن أسرار القرآن في الفاتحة، وأسرار الفاتحة في البسملة، وأسرار البسملة في الباء، وأسرار الباء في نقطتها، ونسب هذا القول للإمام علي عليه السلام ، ولم يثبت عندي .

ولاجتهاد بعض الفلاسفة المتأخرين في تحقيقه وأفرد له فصلاً في أحد كتبه، واستدل بالبرهان الحكمي أن بسيط الحقيقة كل الأشياء وإن جميع الصحف المنزلة في نقطة تحت باء بسم الله، وإن ذلك يراه السائرون إلى ملكوته تعالى بالمشاهدة العيانية.

ويرون أيضاً إن جميع الموجودات في تلك النقطة الواحدة ومثل له بأن جميع الموجودات في كلمة واحدة وهي ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾^(٢) وأن التفصيل يحتاج إلي مجلدات كثيرة، وإن الذي يخرج من هذا الوجود المجازي الحي ويتصل بدائرة الملكوت السبحاني يشاهد

(١) سورة الإسراء ٤٦.

(٢) سورة البقرة ٢٨٤.

وجوده تحت نقطة باء السببية لمسبب الأسباب ^(١)، وقد وجد أهل علم الإشارات في الحديث ضالتهم، والحديث ضعيف سنداً ودلالة. إذ جعل الله عز وجل القرآن ﴿تَبَيَّنَّا لَكُلِّ شَيْءٍ﴾ ^(٢)، وخاطب به العقول .

وفي المرسل عن الإمام الصادق عليه السلام قال (ما من أمر يختلف فيه اثنان إلا وله أصل في كتاب الله، لكن لا تبلغه عقول الرجال) ^(٣). ولعل في حديث نقطة الباء إبتعاداً عما في القرآن من عظيم البيان والتفصيل الذي لا يمكن الإستغناء عنه، والإتيان بالآية الكريمة أعلاه مثلاً واستشهاداً قياس مع الفارق لأن مضمونها وما فيها من الكلمات تدل على معنى معين ودلالة واضحة بخلاف الباء ونقطتها.

وذكر أن الباء في ﴿بِسْمِ﴾ مشتق من البر، فالله سبحانه هو البار على المؤمنين بأنواع النعم.

ومن أسماء الله تعالى ((البار))، والسين مشتق من إسمه السميع فهو الذي يسمع دعاء الخلائق جميعاً، وأما الميم فمعناه أن من العرش إلى ما تحت الثرى ملكه تعالى، كما يرد مضمونه في علم الحروف.

البسملة حجاب

وللبسملة مضامين قدسية، وهي سر سماوي له مفاهيم سامية وإفاضات تعم الخلائق، وإتيان المسلم بالبسملة مدخل كريم لرحمة تتغشى أهل الأرض، إن ورود تفسير البسملة بصفات الله عز وجل الحسن يدل على عظيم منزلتها والحاجة المستديمة لها وفي مفهومه دلالة على جزئيتها من القرآن.

لقد تضمنت الأخبار بأن البسملة حجاب يستر المؤمن ويدفع

(١) الأسفار الجزء الثالث طبعة حجرية غير مرقمة.

(٢) سورة النحل ٨٩.

(٣) البحار ٨٩/١٠٠.

عنه الأذى، انه يبادر تلقائياً إلى النطق بها كوجه من وجوه الاستعاذة وسبيل إلى الالتجاء إليه تعالى (وقد ورد عن انس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : ستر ما بين أعين الجن وعورات بني آدم إذا نزعوا ثيابهم أن يقولوا: بسم الله الرحمن الرحيم)^(١).

والظاهر أن نزع الثياب جاء من باب المثال الغالب لحال الإنفراد وإقتراب الوسوسة وليس الحصر، وجاء بوصف (بني آدم) أي بصيغة الإطلاق وليس المسلمين مما يدل على انه حاجة وسلاح يحتاجه كل إنسان إلا أن المسلمين هم الذين انتفعوا منه.

وفي الحديث نكتة أخلاقية وأدبية وهي عدم ترك البسملة في ساعة الغفلة وعند الوحدة والإنفراد، فعندما ما يكون الإنسان في العمل وبين الناس يشعر بالحاجة الذاتية إلى الإتيان بالبسملة أو الغيرية أيضاً، مما يدل على التعدد في البسملة التي في أوائل السور القرآنية واستقلال كل واحدة منها ذاتاً وموضوعاً ومنطوقاً وكأنها من المشترك اللفظي مثل الاسم الذي لفظه واحد ومعناه جمع كما في الملك من قوله تعالى ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾^(٢) ففي بداية كل سورة (بسم الله الرحمن الرحيم) غير التي جاءت بداية وفاتحة للسورة الأخرى.

وروي عن ابن عباس انه قال من تركها فقد ترك مائة وأربع عشرة آية من كتاب الله تعالى^(٣)، أي بعدد سور القرآن ولكن سورة براءة خالية منها، وعلل قوله هذا بوجوه، روي عن ابن عمر وغيره "بان من ترك بسم الله الرحمن الرحيم فقد ترك مائة وثلاث عشرة آية".

ولا تنحصر منافع البسملة في أهل الإسلام بل تتغشى بركاتها من يأتي بها طلباً لرحمته تعالى ورجاء للرفقة، أنها باب مفتوح للسائلين وسبيل

(١) مفاتيح الغيب ١/١٧١.

(٢) سورة الفجر ٢٢.

(٣) جار الله محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي / تفسير الكشاف ١/٢٦.

التجاء لعامة الناس وعطية متجددة وثمره سماوية متدلية وفيض خلده القرآن وتعاهده المسلمون لتكون ربيعاً للقلوب ولتخلص النفوس من الحزونات المذمومة والظلمات المؤذية، وستبقى البسملة سلاحاً لإختراق حواجز المادة وأداة انتقال من واقع النقص الى مراتب الكمال وكأنها حاجة أخلاقية لمحاربة الشرور والآفات العرضية وهي منبع الوحدة والصلاح.

والحديث يدل على منافع عظيمة للبسملة وأنها لا تنحصر بأهل الإيمان بل يمكن لكل من يتلفظ بها أن يستثمر ما فيها من البركات والخيرات ولو على نحو الموجبة الجزئية وما يتعلق بالحياة الدنيا فقد تقدم أن الرحمن اسم ينتفع منه المؤمن والكافر في الحياة الدنيا فيحل الإهمال والتخفيف عند الإتيان بالبسملة ما دام لحظة التلفظ بها مدركاً لحقيقتها وإن لم تكن عنده كيفية إستعدادية للإيمان أو فعل ومنهجية محسوسة، وهذا لا يمنع من كونها حجة على الكافر والجاحد، فحكم الشارع يقضي بالتوبة عند الإتيان بالبسملة ساعة الحاجة والإبتلاء وظهور الحاجة وانقداح البرهان بالإنتفاع منها وكشف الضيق ورفع الغمة.

ويمكن دراسة منافع البسملة عبر العوالم التي يمر بها الإنسان وانه يحتاج إليها في اللاحق منها أكثر من السابق، فتكون الحاجة إليها في عالم البرزخ أكثر من الدنيا، ويوم القيامة أكثر منها في عالم البرزخ، ومن منافعها وبركاتها يوم القيامة ما ورد (عن يعلى بن منية عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال : تقول النار للمؤمن يوم القيامة جزياً مؤمناً فقد أطفأ نورك لهبي)^(١).

وجاء النعت بالإيمان وهو أعلى مرتبة في الإسلام للتنبيه بان المؤمن يواظب على العبادات والذكر ولا يقف عند الإتيان بالشهادتين وتقف البسملة في أحسن حلة يوم القيامة لتكون ناصراً وعوناً وعملاً مباركاً وكتراً مدخراً للمسلمين على نحو العموم الإستغراقي والمجموعي والبدلي،

وعنوان ترجيح لأعمالهم وسبباً لنشر السكينة بينهم ودفع الخوف والفرع عن نفوسهم.

وفي ربيع الأبرار مرسلأ عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم لا يرد دعاء أوله بسم الله الرحمن الرحيم فإن أمتي يأتون يوم القيامة وهم يقولون بسم الله الرحمن الرحيم فتثقل حسناتهم في الميزان فتقول الأمم ما أرجح موازين أمة محمد صلى الله عليه وآله وسلم فيقول الأنبياء أن إبتداء كلامهم ثلاثة أسماء من أسماء الله تعالى لو وضعت في كفة الميزان ووضعت سيئات الخلق في كفة أخرى لرجحت حسناتهم.

أي من فضل الله تعالى الأذن العام للمسلمين بالنطق بالبسملة يوم القيامة ابتداءً كما ينطقون مجتمعين ومتفرقين بالتلبية في الحج، وكما يأتون بالبسملة في بداية كل سورة ويكررونها في كل يوم في الصلاة، لتكون البسملة يوم القيامة هوية وشهادة وتزكية لهم ودليلاً وقائداً وحرزاً سواء الذين كانوا يجهرون بها بالقراءة أو يخفون، يقولون بجزئيتها من السورة أو بعدم جزئيتها منها، والله واسع كريم.

والبسملة تجزي عند المبادرة إلى الإتيان بها عن الاستعاذة وفيها تمام التحرز وهي سبيل للأمان من شر الشيطان ونزغه ، وفي رواية عن الإمام الباقر عليه السلام "إذا قرأتها سترتك ما بين السماء والأرض.



الفرق بين الضاد والطاء

جاءت الآية بحرف الضاد ﴿وَكَا الضَّالِّينَ﴾^(١)، والفرق بينه وبين الطاء التي هي أخت الطاء كما في قوله تعالى ﴿وَلَوْ كُنْتَ فَظًا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾^(٢) على جهتين :

الأولى : جهة المخرج ، إذ تخرج الضاد من إحدى حافتي اللسان ، أما الطاء فتخرج من رأس اللسان من طرف الثنايا العليا .

الثانية : الاختلاف في الصفة ، إذ تزيد الضاد بصفة الإستطالة . ولا يجتمع الطاء مع الطاء في كلمة ، فإذا جاءت الطاء كانت معها الضاد مثل ﴿فَنَنْ اضْطُرَّ﴾^(٣) وقال تعالى ﴿ظَلَّلَتْ عَلَيْهِ عَاكِفًا﴾^(٤) أي مقيماً ، الضالون أي المقيمون والدائمون .

ويقال (ظَلَّ فلانَ نهارَه صائماً ، ولا تقول العرب : ظَلَّ يَظَلُّ إلا لكل عمل بالنهار ، كما لا يقولون : بات يبيت إلا بالليل ، ومن العرب من يحذف لام ظَلَّلْتُ ونحوها حيث يظهران ، فأما أهل الحجاز فيكسرون الطاء على كسرة اللام التي أُلْقِيَتْ ، فيقولون ظَلَّلْنَا وَظَلَّلْتُمْ ، والمصدر الظلول)^(٥) .



(١) سورة الفاتحة ٧.

(٢) سورة آل عمران ١٥٩.

(٣) سورة المائدة ٣.

(٤) سورة طه ٩٧.

(٥) العين ١٤٤/٢.

علم المناسبة

ورد لفظ (اسم) من غير ألف ولام ثمان عشرة مرة في القرآن، وجاءت مضافة لله تعالى.

وجاء بالتعريف مرة واحدة بالتحذير من الخطاب بين المسلمين بالاسم الفسوق قال تعالى ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الْأَسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ﴾^(١) وجاء لفظ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ في بداية سورة الفاتحة، وبداية كل سورة عدا سورة التوبة، وجاء مرة واحدة في نظم آيات سورة النمل بقوله تعالى ﴿إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِاسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾^(٢). في خطاب نبي الله سليمان عليه السلام إلى بلقيس ملكة سبأ وهي مدينة مأرب وبينها وبين صنعاء مسيرة ثلاث ليال.

وكان أبو بلقيس شراحيل ملك اليمن كلها، فأخبر الهدهد سليمان عن عرشها وملكها، وقيل كان عرشها ثمانين ذراعاً في ثمانين، وكان من ذهب وفضة مكللاً بأنواع الجواهر، وقوائمه من ياقوت أحمر وأخضر ودر وزمرد.

فجاءت البسملة في بداية كتاب سليمان لجذبها إلى الإيمان، وإخبارها عن ضعفها وحاجتها وفيه مسائل :

الأولى : التوكيد السماوي لجزئية البسملة من القرآن.

الثانية : قانون البسملة كنز من كنوز العرش نزلت هبة ورحمة بالمسلمين

الثالثة : بيان لموضوعيتها في دعوة الناس إلى الإسلام.

الرابعة : قانون البسملة شاهد على أن المسلمين ورثة الأنبياء لحفظهم

معالم التوحيد وسنن الشريعة.

(١) سورة الحجرات ١١.

(٢) سورة النمل ٣٠.

وتتضمن هذه الآيات تأديب المسلمين، وهدايتهم إلى كيفية ومواضع النطق بيسم الله، ومنها موضوعية ذكر اسم الله عز وجل على الصيد والأنعام والأكل، وتعظيم شعائر الله في الحج ومناسكه وافتتاح التلاوة به، قال تعالى ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾^(١)، وذكر اسم الله في آيات الليل والنهار لما فيه من البركة ونزول الخير.

بحث منطقي

حينما ينسب الكلّي إلى الكلّي تكون النسبة بينهما إحدى النسب الأربع.

الأولى: التساوي وفيها يتناسب الكليان تناسباً تاماً بحيث يصدق كل منهما على جميع أفراد الآخر، فهما متساويان مثل الإنسان والناطق.

الثانية: التباين وهو الاختلاف والتنافي والبينونة الكاملة بينهما بحيث لا يصدق أحدهما على الآخر لا على نحو الكلية ولا الجزئية كالموجود والمعدوم، والحجر والماء.

الثالثة: العموم والخصوص المطلق: إذ يصدق أحدهما على جميع أفراد الآخر أي من كل جهة ولكن الآخر لا يصدق إلا على بعض أفراد الأول، كالعبادة والصلاة، فالصلاة تصدق على بعض أفراد العبادة والعبادة تصدق على جميع أفراد وأجزاء الصلاة.

الرابعة: الأعم والأخص من وجه: وهو الذي يصدق فيه كل منهما على بعض أفراد الآخر ويختلف معه في أفراد أخرى، أي يلتقيان ببعض المصاديق ويفترقان ببعض الآخر كالوضوء وغسل الجنابة، فمادة الإلتقاء أنهما عبادة وطهارة مائية، ومادة الإفتراق الأسباب والوضوء لأعضاء مخصوصة والغسل للبدن كله.

وقالوا إذا كانت النسبة بين الكليين التساوي فإن النسبة بين تقيضيهما التساوي أيضاً ولكنه لا يصح إلا بذات الجهة والموضوع فلو نظرنا إلى النسبة

بينهما من جهة أخرى لوجدناها أحد النسب الأربع بحسب الحال والحد المشترك بينهما وكذا الحال بين تقيضي النسب الثلاثة الأخرى. وبين الذكر والتسمية عموم وخصوص مطلق، فكل تسمية ذكر وليس كل ذكر هو تسمية .

وبين التسمية والبسملة عموم وخصوص مطلق أيضا فكل بسملة هي تسمية وليس العكس، لذا تكون البسملة تسمية وذكرًا. والبسملة من مصاديق الذكر في بيان صفات المتقين الذين همي وأعد الله عز وجل الجنة بقوله تعالى ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا الذُّنُوبَ﴾^(١)، سواء جاء المسلم بالبسملة بقصد القرآنية أو إرادة الذكر بعد فعل الفاحشة أو مطلقاً فضلاً من الله عز وجل.

بحث فقهي

التسمية عند الشروع في الوضوء مستحبة وعلى استحباب التسمية الإجماع كما عن جماعة، وقال العلامة: هذا مذهب العلماء في إشارة إلى إتفاق علماء المسلمين في الجملة، وقال الإمام أحمد إنها واجبة، وبه قال: إسحاق بن راهويه، وتدل على الإستحباب نصوص مستفيضة ويكاد يكون من المسلمات عند المسلمين.

وروى الشيخ في الصحيح عن زرارة عن الباقر عليه السلام: "قال: إذا وضعت يدك في الماء فقل بسم الله وبالله اللهم اجعلني من التوابين واجعلني من المتطهرين فإذا فرغت فقل الحمد لله رب العالمين"، وبهذه الصحيحة تظهر سورة التسمية وهي بسم الله وبالله وبه قال في الروض. وعن الإمام الصادق عليه السلام قال: "إذا سميت في الوضوء طهر جسدك كله وإذا لم تسمه لم يطهر من جسدك إلا ما مر عليه الماء"، أي لما يترشح من الفضل والثواب المطلق في طهارة البدن عند الإتيان بالبسملة كمصداق لمنافع الذكر.

(١) صدرت ثلاثة أجزاء من هذا التفسير كلها في تفسير وتأويل هذه الآية.

والظاهر شيوع التسمية وانتشارها في هذا الزمان، وثبوت العمل بها لما فيها من عظيم الفائدة، وعن الذكرى أن الرواية تفيد إستحباب الإعادة أي أن الذي ينسى التسمية يستحب له الإعادة وهو بعيد، وعن الشيخ الطوسي أنه حمل التسمية على النية، وهو خلاف الظاهر ولكفاية الداعي في النية وعدم الإخطار وما أمره به أمير المؤمنين هو التلفظ بالتسمية.

والتسمية تصح بقولك (بسم الله) ونحوه مما فيه اسم الله، بينما البسمة كلمات مخصوصة فيها ثلاثة من أسماء الله، وهي (بسم الله الرحمن الرحيم).

قانون تعاهد البسمة كتابة وخطاً وفاتحة

الحمد لله الذي استولى على ما دق وجل، وأنطق اللسان بشكره وحمده وجعل البسمة أقرب الى اسمه الأعظم من ناظر العين الى بياضها، لتكون عوناً على الشدائد وملاذاً ودليلاً وواقية في السراء والضراء.

واختلف المسلمون في جزئية البسمة في كل سورة على اقوال بينها في الجزء الأول من التفسير، ولعل المشهور هو كونها آية من كل سورة عدا سورة براءة، وهو مذهب أهل البيت عليهم السلام، كما نسب الى ابن عباس وابن عمر وابن الزبير وابي هريرة، وأهل مكة كابن كثير، وأهل الكوفة كعاصم والكسائي، وبه قال احمد بن حنبل في رواية عنه وابن المبارك، وأكثر اصحاب الشافعي، ومن التابعين عطاء وطاوس وسعيد بن جبير ومكحول والزهري، وهو المختار، ومن تلك الاقوال انها آية مستقلة كانت تنزل لبيان الفصل بين السور وتحديد رؤوسها، وبه قال مالك والاوزاعي وأكثر اصحاب أبي حنيفة.

وشاع في هذا الزمان عدم كتابة البسمة، والإكتفاء بـ(بسمه تعالى) في الفتاوى وبعض البيانات، خشية مس غير المتطهر لاسم الجلالة، وأخذ بعض العامة يتجرأ على من يكتب (بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ) او آية قرآنية على غلاف او في بيان ويعترض عليه وكأنه ارتكب ذنباً، وهذا من الاحتياط المخالف للاحتياط.

وقد يأتي غداً من يريد الباطل فيقول ان شطراً من الجرائد يلقي في النفايات، فيقتضي الأمر عدم كتابة الآيات القرآنية في الصحف تنزيهاً للقرآن والاكتفاء بمعنى الآية، في حرب منه على القرآن، ثم يتعدى بعد حين الى الحاق أسماء الأنبياء والأئمة، مما يستلزم التصدي والاحترار. نعم ورد النهي عن مس خط المصحف من غير طهر، ففي موثقة أبي بصير عن الإمام الصادق عليه السلام فيمن يقرأ في المصحف وهو على غير وضوء، قال عليه السلام: لا بأس ولا يمس الكتاب.

وفي الغنية ص ١٨٨ ادعى الاجماع على حرمة مس الذي عليه اسم الله، وفي النهاية ١٠١/١ نفى الشيخ الطوسي عنه الخلاف، واستدل عليه في المعبر بموثقة عمار عن الصادق عليه السلام قال: لا يمس الجنب درهماً ولا ديناراً عليه اسم الله"، وطعن جماعة من الفقهاء في هذا الخبر سنداً، وهو خلاف قاعدة نفى الحرج في الدين، ومعارض بما ورد عن أبي الربيع الشامي عن الإمام الصادق عليه السلام: في الجنب يمس الدراهم وفيها اسم الله واسم رسوله؟ قال: لا بأس به، ربما فعلت ذلك.

ولابد من التفكيك بين كتابة البسملة وبين المس، بمعنى ان النهي عن المس والإلقاء في الارض يجب ان لا يكون علة تامة لعدم كتابة البسملة في فاتحة الرسالة والفتوى والبيان والاعلان ونحوها وخسارة ثوابها، وتقتضي الوظيفة العامة والشخصية افشاء ونشر البسملة كتابة ولفظاً، وعلى المكلف الذي ليس على طهر اجتناب تعمد مس اسم الجلالة، ولزوم عدم القاء الورقة التي فيها أسماء الله الحسنى والآيات القرآنية بالارض وان كثرت وتعددت، بل تجمع وتلقى في الماء او يعاد تصنيعها لورق المصحف، اما اذا القيت في الارض فيجب ان ترفع وتصان، وفي رفعها والعناية بها ثواب عظيم، وعن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم: "من رفع قرطاس من الأرض فيه بسم الله الرحمن الرحيم إجلالاً له تعالى كتب عند الله من الصديقين وخفف عن والديه وان كانا مشركين.

وقصة بشر الحافي في هذا الباب معروفة، فقد نقل في سبب توبته انه

وجد في الطريق قطعة كان مكتوباً فيها (بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ) وقد وطأتها أرجل المارة، فأخذها وطيبها بغالية اشتراها لها، ثم جعل القطعة في شق الحائط، فرأى في النوم كأن قائلاً يقول له: يا بشر طيبت إسمي فلاطين إسمك في الدنيا والآخرة، فتاب من يومها ثم اشتهر بالورع والزهد والتقوى.

ولا بأس باقامة معرض للخط خاص بـ(بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ)، واقتناء ما يعرض من اللوحات فيه طلباً للثواب وطرداً للشياطين، وهذا المعرض ونحوه من المبادرات الرسالية لا يكتب له النجاح والاستدامة الا بتعزيد وتشجيع المؤمنين والمؤمنات، وعن الإمام علي عليه السلام: "تنوَّق رجل في بسم الله الرحمن الرحيم فغفر له.

ويترشح ما في البسملة من الفضل والبركة على كاتبها ومقتنيها والناظر لها ومن يعلقها في بيته، وقد أخرج الله عز وجل العذاب عن فرعون مع ادعائه الربوبية لكتابتة (بسم الله) على باب داره، ولم يحصل هلاكه في بلده بل عند خروجه خلف موسى عليه السلام عتواً وتجبراً.

كما ادعو الى انشاء مواقع في الانترنت للخط العربي تظهر اشراقات رسم القرآن.

لقد استاءت قريش من البسملة وتحمل النبي صلى الله عليه وآله وسلم الأذى بسببها، قال ابن عباس: "قام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال: بسم الله الرحمن الرحيم، فقالت قريش دق الله فاك".

فلا يجوز ابدال البسملة بكتابة (بسمه تعالى) وتفويت مناسبة تعظيم شعائر الله والفيض الملوكوتي الذي يتغشى الناس بافتتاح الكلام والكتابة بالبسملة قال تعالى ﴿وَإِذَا ذُكِّرْتُ بِرَبِّكَ فِي الْقُرْآنِ وَخُذْهُ وَلَوْ عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا﴾^(١).

واحتمال مس غير المتوضئ لها على الغلاف مثلاً ليس علة تامة للإمتناع عن كتابتها.

قوله تعالى ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ الآية ٢

القراءة والإعراب واللغة

الحمد: مبتدأ مرفوع بالضمة، والله: اللام حرف جر، واسم الجلالة اسم مجرور، وهما في محل رفع خبر، ورب: صفة لله مجرورة بالكسرة وهو مضاف، والعالمين: مضاف إليه مجرور وعلامة جره الياء لأنه جمع مذكر سالم.

وضم الدال في (الحمد) هو القراءة المأثورة، ويحمل معنى الأخبار عن حمد القارئ وغيره لله عز وجل بخلاف النصب الذي يشير بالدلالة على الحمد الشخصي، إلى جانب ما في الرفع من جودة اللفظ باعتباره اسم معرفة أخبر عنه.

والنصب قد يكون على المصدر بمعنى أحمدُ الحمد لله وقيل هي لغة قيس وبني الحارث بن سامة، وبعض البدو يقولون الحمد لله (بخفض الدال)، وروى إسماعيل بن عياش عن زريق عن الحسن البصري هذه القراءة وحكى عن رؤية^(١)، وهي لغة تميم لأنها أخف من الضم خاصة وإن كسرة تأتي بعدها، فاتبعوا الكسرة بالكسرة وصارت بمنزلة شيء واحد، ولكنها لغة لا يعبأ بها ولم تنل من الأهمية شيئاً يذكر، وذكر أن كسر الدال أو فتحها من الشواذ في القراءة وكذلك ضم الدال واللام معا.

(١) أبو محمد رؤية - بضم الراء - بن أبي الشعثاء الملقب بالعجاج البصري التميمي السعدي. وهو وأبوه شاعران وراجزان مشهوران، وكان رؤية مقيماً بالبصرة فلما ظهر بها إبراهيم بن عبد الله بن الحسن بن علي بن أبي طالب وخرج على أبي جعفر المنصور وجرت الواقعة المشهورة بينهما، اختار رؤية الذهاب إلى البادية خوفاً على نفسه ومتيحاً عن الفتنة ولكنه مات في الناحية التي أرادها بعد وصوله سنة خمس وأربعين ومائة.

أن قراءة إبراهيم بن أبي عبلة ((الحمد لله - بضم اللام - إتباعاً للضم بالضم والتجاء البعض إلى كسر الدال لكراهم الخروج من الضم إلى الكسر، والقراءة بنصب الدال لجوازه في النحو عند جعل الحمد مصدراً لا تعني جواز هذه القراءات الثلاثة في أم الكتاب وإن كانت سائغة في اللغة العربية وقواعدها، بالإضافة إلى إنها لم ترتق إلى عهد الصحابة في دلالتها الإلزامية واعتبار السيرة.

والقراءتان الأخيرتان رويتا عن الحسن البصري، وشاركه في الأولى منهما رؤية، وقراءة الحمد لا تكون إلا بما هو متواتر وثابت في المصاحف بضم الدال وكسر اللام، وهو الشائع والمتعارف في عموم الأمصار. والأصل في (الحمد) النصب وتقديره: أحمد الله حمداً وإنما ورد بصيغة الرفع للدلالة على أمور:

الأول: عموم الحمد، وصدوره من الخلائق كلها.

الثاني: إطلاقه في أفراد الزمان الطولية المقدرة وغير المقدرة.

الثالث: ثبات إستدامة الحمد لله.

الرابع: إنه من الشواهد على إستغناء الله عن الخلائق فالأصل هو

الحمد له سبحانه، وإن تخلفت الناس عن الحمد، قال تعالى ﴿لَهُ الْمُلْكُ وَكَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾^(١).

الخامس: إرادة الإستغراق من الألف واللام في الحمد، وهو لا

يتعارض مع معنى العهد والمعهود حمد الله من الخلائق.

واسم الجلالة مرتجل جامد، والألف واللام فيه ملازمة وجزء منه وليست للتعريف، وهي مثل حرف ميم من محمد، وقيل أنه ليس مشتقاً من صفة كالرزاق والحكيم والسميع (وقال الغزالي: كل ما قيل في إشتقاقه فهو تعسف).

وفي (الله) ثلاثة لامات لدخول لام التحقيق عليها أي استحق الله

الحمد، ووجود لامين في الأصل لام اسم الجلالة، لام التعريف، والأخرى لام سنخية على القول بان الأصل (لاه)، ولكن الخط جاء بلامين لكراهية اجتماع ثلاثة منها باعتباره اشد استثقلاً من اجتماع صورتين الذي يدغم العرب فيه.

وشددت الباء في (رب) لأنها في الباءين اللتين في ربيت، وعن الفراء انه يقال: رب ورب - بتشديد الباء وتخفيفها - وانشد المفضل :

وقد علم الأقبام^(١) أن ليس فوقه

رب غير من يعطي الحظوظ ويرزق^(٢)

وقال الكسائي بجواز رب العالمين كما في القول: الحمد لله رباً وإلهاً أي على الحال، وقال أبو حاتم النصب بمعنى احمد الله رب العالمين، وقيل بنصبه على المدح، واختلف في جواز النصب على النداء المضاف. وروي نصب الباء عن زيد بن علي وحمل على بيان جوازه لا انه قراءة.

والقراءة المتواترة والتي عليها رسم المصحف هي بالتشديد والكسر أي (رب).

وفي الياء التي في (العالمين) ثلاث علامات: علامة الجر، والجمع والتذكير، وفتحت النون لالتقاء الساكنين - الياء والنون - وللفرق بينهما وبين نون الاثنين التي تأتي مكسورة دائماً.

والعالمون - بفتح اللام - أصناف الخلائق كل صنف منهم عالم، والعالم جمع أيضاً ولكن لا واحد له من لفظه، واختلف هل له واحد من غير لفظه، قيل ليس له واحداً من غير لفظه لأنه جمع لأشياء مختلفة، وذكر بأن له واحد من غير لفظه مثل نساء وامرأة أو نحوها، ويرد على الرأي الأول انه قد يكون العالم جمعاً لأشياء متشابهة او ليست مختلفة،

(١) ورد في الأصل لفظ (الأقوال) سهواً من النساخ.

(٢) لسان العرب ٣٩٩/١ .

قال العجاج :

يا دار سَلَمى يا اسَلَمى ثم اسَلَمى

فخندف هامةً هذا العالم^(١).

والعالم اسم بني على مثال فاعل كما قالوا : حاتم وطابع ودانق.

في سياق الآيات

بعد البسملة يأتي الثناء والحمد لله عز وجل فيكون هذا الإقتران بين البسملة والحمد لله مدرسة عقائدية وأخلاقية لبيان قانون بالحمد لله عنوان العبودية والإقرار بالنعم.

لم يأت بعد الافتتاح بالبسملة سؤال الحاجة، بل جاء الشكر لله تعالى بلغة المدح والثناء وانه سبحانه رب العالمين، وكأن الشكر هو أسمى حاجة عند المسلم، كما انه مقدمة لسؤال الحوائج وتلخصت تلك الحوائج بطلب الهداية ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾^(٢) والنجاة من الضلالة والغواية.

ومن الآيات أن الحمد لله يأتي بين إسمي الرحمة لله تعالى فقد تقدمها "الرحمن الرحيم" كجزء من البسملة، وجاءت بعدها آية مستقلة تتضمن الإسمين ذاتهما من الأسماء الحسنى وهما "الرحمن الرحيم"، وجاءت هذه الآية باسم من الأسماء الحسنى وهو الرب مع بيان أن الله عز وجل رب العالمين .

لتكون هذه الآية مع البسملة مدرسة في العلوم الكلامية، ويؤدي التدبر في مضامينها القدسية إلى الغرق في جلال الله.

ومن الآيات التداخل والترابط والاتحاد الموضوعي بين آياتها وتشملها وحدة الموضوع في التوجه إلى الله تعالى بالنداء والاستغاثة والرجاء .

ويتجلى هذا التداخل والاتحاد بوصف هذه الآية بان الله رب العالمين ثم مجيء الآيات التالية بوصفه بصفات حسنى أخرى متصلة بها ولم تؤثر

(١) لسان العرب ١٤/٢ .

(٢) سورة الفاتحة ٦ .

في هذا الإتحاد مسألة الإلتفات وفق المصطلح البلاغي، والإنتقال من لغة الخبر إلى الخطاب.

ويبين نظم الآيات الحاجة إلى الثناء على الله تعالى في الدعاء والمسألة، وتقديم هذا الثناء الذي يتضمن في دلالاته الإقرار بالقدرة الإلهية وأن الأمور بيد الله تعالى.

ويبين نظم الآيات أن قوله تعالى ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ ليس من ثناء الله تعالى على نفسه وحده بل من تلقين الله تعالى للمسلمين الحمد والثناء عليه ومن خصائص المسلمين بانشغالهم اليومي مجتمعين ومتفرقين بشكر الله تعالى كل يوم بصيغة الحمد والشكر باللسان بصيغة التلاوة وقصد القرآنية لينعكس هذا الحمد على الجوارح والجوانح، بملكة فعل الصالحات، والإمتناع عن المعاصي، قال تعالى ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾^(١).

إعجاز الآية

إن إفتتاح القرآن بالحمد بعد البسملة تؤكد على موضوعية الثناء والشكر لله عز وجل في الدين الإسلامي، وبرهان على سماوية القرآن لما في هذا الترتيب من الإعجاز.

والآية تأديب عام للمسلمين، وتهذيب لأخلاقهم، ودرس وموعظة في التدبر في الحياة، ومعرفة أسرار الخلق، والحاجة الدائمة إلى رحمة الله عز وجل، وفيها إقرار بربوبيته المطلقة.

وفي الآية دلالة على لزوم توجه الناس جميعاً إلى الله تعالى بالحمد والشكر على نعمة الخلق ونعمة الإنقياد له، فمن فضل الله تعالى على الناس أن جعلهم عبداً له، وهذه العبودية من أشرف مصاديق الحاجة في عالم الممكنات.

والثناء على الله باللسان مرآة لقلب المسلم وامتلأه بحب الله تعالى وشكره والثناء عليه.

وتفيد الألف واللام في "الحمد" الإستغراق فكل الحمد لله تعالى على نحو الإختصاص، لأن كل نعمة عند الإنسان هي من عند الله تعالى. ولا ينحصر إعجاز هذه الآية بذاتها بل يشمل أموراً:

الأول: منزلتها في بداية القرآن وافتتاح أول سورة منه بالحمد لله ليكون جامعة تعليمية للمسلمين في ميادين الحياة، وباباً للأجر والثواب عند التلاوة الواجبة والمستحبة.

الثاني: فرض قراءة سورة الفاتحة في الصلاة مطلقاً أي الواجبة والمندوبة ليكون الحمد صاحباً ملازماً للمسلم في حياته كلها.

الثالث: تلاوة المسلمين اليومية المستمرة لهذه الآية من مصاديق شكر المسلمين لله تعالى على النعم الدنيوية والأخروية.

الرابع: مجيء هذه الآية بعد آية البسملة من غير فاصلة بينهما، وإذ تتكرر البسملة في بداية كل سورة فإن قوله تعالى ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾^(١) لم يرد في القرآن في آية مستقلة إلا في هذه الآية مع كثرة آيات الحمد لله وابتداء بعض السور منها سورة فاطر ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنَحَةٍ مَّتَنًى وَثَلَاثَ وَرَبَاعٍ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنْ أَلَّهِ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾^(٢).

لتبقى ضياء سماوياً متجدداً يملأ قلوب المسلمين بالرضا والغبطة وهو من أسرار القرآن وموضوعية سورة الفاتحة، وأهمية قراءتها في الصلاة، فمع الحاجة إلى هذه الآية، ومضامينها القدسية، فإنها لا تأتي في القرآن إلا في سورة الفاتحة.

(١) سورة الفاتحة ٢.

(٢) سورة فاطر ١.

ويمكن ان نسمي هذه الآية آية (الحمد لله) ولا تعارض بينه وبين تسمية سورة الفاتحة بذات الاسم .

الآية سلاح

الآية رحمة إلهية تضمنها القرآن وتفضل الله سبحانه وجعلها في أوله وفي السورة التي تقرأ في كل فريضة ليفتح المسلم يومه بالثناء على الله عز وجل .

لقد إصطفى الله المسلمين بهذه الآية لتكون ضياء ينير لهم دروب الهداية، وشاهداً على تقيدهم بمفاهيم الشكر لله، ليتعاهدوا مدرسة النبوة في الأرض التي تتقوم بالشكر والثناء على الله تعالى، والإقرار بان كل ما في الخلق هو رشفة من رشحات رحمته، ومنقاد إليه، وعلامة كاشفة عن بديع صنع الله تعالى وأنه سبحانه يتعاهد الخلق باللطف ومضامين الربوبية.

وتنزع الآية عن الإنسان رداء الكبر والتعالي، وتجعل نفسه ممتلئة بالخضوع والخشوع لله تعالى.

وتلاوة هذه الآية من مقامات العبودية لله وهي إنقطاع إليه سبحانه، وهي سلاح في أمور وحوائج الدنيا والدين.

وأما في الدنيا فمضامين الرضا والقبول بأمر الله وما فيه الإنسان من الحال في المتغير، فقد جعل الله الدنيا دار امتحان وبلاء واختبار.

فتأتي أحوال وأيام على الإنسان بالسعادة والخير والبسط، وأيام بالشقاء والخوف أو الحزن وتصاحبه هذه الآية في جميع تلك الأحوال ليكون حامداً شاكراً لله تعالى في السراء والضراء، فينفعه هذا الحمد في الدنيا بان يكون سلاحاً مركباً فهو يمنع من الغرور والطغيان والزهو في حال البسط والغنى والجاء.

ومن القنوط اليأس والجزع في حال البأساء، ويبين مجيء هذه الآية في أول سورة الفاتحة وتكرارها في الصلاة حاجة الإنسان إلى ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾

بصيغة الشكر القولي، وبقوله تارة بصيغة التلاوة والقرآنية وفيها اجر إضافي وهو أجر التلاوة والإقرار بنزول القرآن من عند الله تعالى وتلك خصوصية ينفرد بها المسلمون، فليس من أحد يتلفظ بالحمد الله بقصد القرآنية إلا المسلمين، وفيه دعوة للناس للحقوق بهم ونيل الثواب في الآخرة.

وأما في الآخرة فان قيام المسلم بالشكر لله تعالى مناسبة لنيل الثواب وزيادة الحسنات وارتقاء الدرجات.

لذا فمن منافع تلاوة هذه الآية في الصلاة الأجر والثواب وزيادة النعم لعمومات قوله تعالى ﴿لَنَسْكَرُتُمْ لِأَزِيدَنَّكُمْ﴾^(١) وهذه الزيادة نعمة من الدنيا والآخرة، وباعث على المواظبة على الحمد لله في الليل والنهار، وفي الصلاة وغيرها.

آية (الحمد لله) برزخ من عذاب النار في الآخرة، ووسيلة للنجاة من الفزع والخوف الشديد يوم الحشر، وهي باب لنيل الرحمة الإلهية في الدنيا والآخرة.

مفهوم الآية

الآية إشاعة لمفاهيم الشكر واستدامة نعم الله تعالى وإقرار بعظيم مقام الباري وإن كل خير منه تعالى، وفيها ترويض للسان لدوام ذكره تعالى وإستحضار نعمه سبحانه في النفس وتوكيد على حاجة الإنسان لتلقي النعم وعدم إستغنائه كممكن عن واجب الوجود، والحمد لله سعي للكمال الإنساني وبيان لأصل الخلق ونشأة العالم وحاجته إلى المحدث والمتعاهد لوجوده، وهاتان الوظيفتان لا يقدر عليهما أحد من الخلائق فإستقل الله سبحانه بالربوبية.

والآية حرز ووقاية من اللجوء إلى غير الله وتوجيه الشكر على نعمة الخلق واستدامة الحياة لغيره سبحانه، وهي دعوة للتدبر في النعم المتوالية

منه سبحانه في النفس والجماعة والعقيدة والآيات الكونية، وهذه الآية ادخار كريم لعالم البرزخ ولليوم الآخر وهي وثيقة وشاهد على الهداية والإمامة.

ومن مفاهيم الآية الكريمة أمور:

الأول: قانون موضوعية الحمد لله في حياة الإنسان، فما أن يصل إلى سن التكليف إلا ويتوجه إليه الخطاب الإلهي بالقول كل يوم مرات عديدة ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ في الصلاة الواجبة.

الثاني: التدبر في معاني هذا اللفظ وما فيه من النعمة على الإنسان، فقول العبد ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ نعمة تستلزم الشكر لله تعالى، وتوفيق يدعو الإنسان إلى المواظبة على الشكر لله بلسان العبودية والخضوع له سبحانه. الثالث: لم تقف الآية عند قوله تعالى ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ بل جاءت بوصفه تعالى بأنه رب العالمين ومالك الخلائق كلها، وفيه دلالة على هداية المسلمين إلى التفقه في الدين ومعرفة أحكام الحلال والحرام، ولزوم العمل بالأوامر الإلهية، واجتناب ما نهى الله عنه من المعاصي.

الرابع: قانون زجر الناس عن الجحود والكفر بنعم الله وتحذيرهم من الغفلة عن الآيات التي جعلها الله في أنفسهم وفي الآفات، وما في كل آية من النعم على كل إنسان.

الخامس: لزوم نطق الرجل والمرأة بالحمد، ويتجلى هذا اللزوم بتوجه الخطاب التكليفي بتلاوة هذه الآية إلى المرأة بعرض واحد مع الرجل، إقراراً بالنعم الإلهية التي رزقها الله تعالى للناس، قال تعالى ﴿إِنْ تَعَدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ (١)(٢).

(١) سورة النحل ١٩.

(٢) سيأتي الجزء السادس والأربعين بعد المائتين من هذا السفر خاصاً بقانون (علم الإحصاء القرآني غير متناه) ومنه فصول خاصة بالآية أعلاه.

إفادات الآية

جاءت الآية بياناً لحقيقة وهي أن الله عز وجل خالق ومالك كل شيء، مما يبعث في نفس المسلم الغبطة والسعادة لمعرفة ذاته ، والصلة بينه وبين الله عز وجل وهي صلة العبد والمعبود، ومن خصائص ربوبيته تعالى أن جعل العالم بأبهى صورة ، وعالم التكوين وفق النظام الأحسن ليكون دليلاً على انقياد كل الكائنات له سبحانه وأنه ﴿أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾^(١). ومن عظمة الآية أنها تتضمن أموراً:

الأول: قانون التوجه بالحمد والشكر لله تعالى.

الثاني: إحصار الحمد به تعالى ، وفي التنزيل ﴿فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾^(٢).

الثالث: قانون الإقرار بأن الله عز وجل هو الإله ومالك الخلائق كلها.

الرابع: ان الله عز وجل أهل لأن يحمد ويشكر.

وهذه الآية مدرسة في الصبر ، وتبين الملازمة بين الشكر لله وبين الصبر والتداخل بينهما وان كل واحد يصح أن يكون مقدمة للآخر من غير تعارض او تزاحم .

فمرة يكون الحمد لله وتلاوة هذه الآية مقدمة للصبر وسبباً لبعث السكينة في النفس لذا ورد أن الإنسان يقول عند المصيبة والبلاء (الحمد لله على كل حال).

ومرة يكون الصبر مقدمة للشكر وتلاوة هذه الآية عنوان لإظهار الرضا بأمر الله تعالى.

وتفتح هذه الآية آفاق العلم والعمل للإنسان وإن كان في أقسى

(١) سورة الجاثية ٣٦.

(٢) سورة .

الأحوال فعندما يقول ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ يعلم ان مقاليد الأمور كلها بيد الله تعالى وانه سبحانه يستحق الحمد والثناء في كل حال وزمان ومكان، مما يطرد اليأس عن النفس ويكشف عنها الحجب والكدورات الظلمانية، ويجعل الإنسان يتدبر في نفسه وعمله وماله، وينظر الى الغد بعين الرضا والأمل ويسعى في دروب الحياة مع الرجاء من غير أن يغادره الشكر والحمد وما يترشح عنه من الصبر .

فيكون الحمد والصبر مقدمتين للوصول الى الغايات الحميدة، وتقييد الغايات بالحميدة عنها لان الحمد لله واقية من المعصية والجحود، فمن يواظب على شكر الله تعالى يزداد تفقهاً في الدين، ويحرص على اجتناب المعاصي والسيئات، قال تعالى ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيَعْلَمَ اللَّهُ﴾^(١).

لقد جعل الله عز وجل الحياة الدنيا دار عبادة قال تعالى ، ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾^(٢)، ويحتمل الشكر والحمد لله معاً وجوهاً :

الأول : إنه من رشحات العبادة .

الثاني : إنه من مقدمات العبادة .

الثالث : إنه من مصاديق العبادة .

الرابع : إنه ليس من ذات العبادات أعلاه .

بإستثناء الوجه الأخير فإن الوجوه الثلاثة أعلاه من مصاديق الآية الكريمة أعلاه ، ومن بديع قدرة الله عز وجل ، ومن منافع وغايات الآية القرآنية قانون من خصائص القرآن إحاطة كلماته المحدودة باللا محدود من الوقائع والأحداث ، ومن الآيات في المقام :

الاول : إبتداء القرآن بعد البسملة بالحمد لله .

الثاني : إقتران ذكر الحمد لله بالربوبية المطلقة لله تعالى .

(١) سورة البقرة ٢٨٢.

(٢) سورة الذاريات ٥٦.

الثالث : قيام كل مسلم ومسلمة بتلاوة الآية أعلاه عدة مرات في اليوم وهذا لتواعد من مصاديق قوله تعالى ، ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾^(١).
ولو لم يقرأ المسلمون سورة الفاتحة كل يوم فهل تستمر الحياة والرزق على ما هو عليه أم أن قراءتهم لها نفع عام للناس.
والجواب هو الثاني ، وهو من مصاديق قوله تعالى ، ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾^(٢).

الآية لطف

من بديع خلق الله ، ومصاديق رحمته تعالى قانون توالي النعم منه تعالى على الخلائق فلا يشغله مخلوق عن مخلوق ، ولا نعمة عن أخرى فتأتي النعم على نحو متحد ومتعدد ، ودفعي وتدرجي لكل مخلوق وليس من مانع أو برزخ يحول دون النعم من الله سبحانه ، فيأتي الحمد من المسلمين ليكون وسيلة لإستدامة رحمة الله بالعباد ، وسيلاً لنيل المزيد من النعم قال تعالى ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾^(٣).

والآية مدرسة في المعارف الإلهية ، وفرار إلى الغني القادر الذي أحاط بكل شيء علماً ، ومن معاني الشكر أنه دليل على معرفة المنعم وانه لله تعالى ولم تذكر الآية نعمة مخصوصة مما يدل على مجيء الحمد على النعم كلها والإقرار بالعجز عن إحصاء نعمه تعالى.

وإذ سأل الملائكة الله عن علة جعل الإنسان ﴿فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾^(٤) ،
فان هذه الآية وتلاوة المسلمين لها شاهد على أهلية الإنسان للخلافة.

(١) سورة آل عمران ١١٠.

(٢) سورة الانبياء ١١٧.

(٣) سورة ابراهيم ٧.

(٤) سورة البقرة ٣٠.

لما فيها من إظهار لمصاديق العبودية لله تعالى، ومن الآيات أن المسلمين يقومون بالشكر لله على نحو الاجتماع والتعدد، فليس من مسلم أو مسلمة أن يتخلفا عن الثناء على الله تعالى.

ويتجلى الاجتماع والتعدد بقراءة المسلمين للآية في الصلاة وتلاوتها، وما تبعته في نفوسهم من السعادة والرضا، وهذه الآية فضل من عند الله إختص به المؤمنين من الأولين والآخرين.

ومن الدلائل على تفضيل المسلمين وبقائهم بمنازل التقوى تعاهدهم لهذه الآية وتلاوتها في الليل والنهار بشوق ورغبة.

وفيه دعوة للناس جميعاً للتوجه بالشكر لله تعالى على نعمة الخلق والرزق واستدامة الحياة الشخصية والعامة فعلى الإنسان أن يشكر الله تعالى على إستدامة حياته، وحياة الناس ودوام الحياة، لحاجة الإنسان إلى غيره في مأكله وملبسه ومشربه .

ومن الآيات في الخلق أن جعل الله عزوجل التكاثر وزيادة النسل بالرجل والمرأة معاً، فلا يستطيع أحدهما الإنجاب بمفرده.

ومن اللطف الإلهي في الآية إقتران صفة رب العالمين باسم الجلالة في مقام الحمد والثناء، وفيه إشارة إلى وجوب توجه كل الخلائق بالحمد لله تعالى، وعدم استحقاق غير الله تعالى الحمد والثناء على نحو الإطلاق لأن النعم جميعاً منه تعالى.

مما يدل على ان الحمد شكر وزيادة ويتضمن الإقرار والرضا بالنعمة وظهور أثرها، ومن الآيات ان نعم الله عزوجل على العبد ظاهرة ومستديمة في ذاتها وأثرها.

ومن اللطف الإلهي أن الله سبحانه يرضى بالقليل على الكثير ومنه قبول الله تعالى شكر العباد له مع قلته على النعم العظيمة التي أنعم بها عليهم ولو انقطع الإنسان طيلة أيام عمره إلى النطق بالحمد لله في ليله

ونهاره فان حمده هذا لا يعادل نعمة واحدة من النعم اللامتناهية التي رزقه الله تعالى.

واختص المسلمون بالقيام بالحمد اليومي المتكرر لله تعالى، ومن كل فرد منهم ، إذ يتلو كل مسلم ومسلمة آية البحث سبع عشرة مرة في اليوم واللييلة في الصلاة اليومية.

لذا ورد عن النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم انه قال: لواء الحمد بيدي يوم القيامة^(١).

واللواء عنوان للرياسة والإمامة ووجود الأتباع والأعوان، وفيه إشارة إلى تعاهد تلاوة هذه الآية، ومن الآيات أن يكون اسم النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم مشتقاً من الحمد.

وجاءت تسميته بمحمد وأحمد في القرآن تشريفاً، وبياناً لأثر نبوته في دوام الحمد لله في الأرض.

من غايات الآية

الآية حصانة من نزغ الشيطان والإنقطاع الى قوانين الأسباب والمسببات، والعلة المادية ومعلولها فهي عنوان للتفاني المحض في عشق رب العالمين وسياحة في عالم الملكوت وإقرار بان كل شيء من الله والأشياء جميعاً مستجيبة له.

والآية تأديب للمسلمين في باب الشكر اللساني مع موضوعيته في صرح الإسلام ، وهي من آيات الشكر لله تعالى، وفيها تأديب للمسلمين وإرشاد لكيفية الشكر لله، وتأتي قراءة هذه الآية في الصلاة لتكون شكراً لله تعالى على نعمه وإحسانه.

وفي الآية تذكير للإنسان بضعفه وعجزه وحاجته لرحمة الله تعالى إذ يتضمن قوله الحمد الإقرار بنعمه تعالى وتوكيد حاجة الإنسان إليها رجاء استدامتها.

وتبين الآية انحصار الربوبية بالله سبحانه، فليس من إله غيره، وكل ما سواه محتاج إليه تعالى ابتداء ورحمة ليبقى كل مخلوق عبداً وملكاً لله تعالى، وفي الآية إشارة لعدم طرو الخوف من غير الله، فمن يحمد ويرجو الخالق لا يخشى المخلوق.

وتبعث الآية الرحمة في قلوب المسلمين بالناس جميعاً لالتقاء الناس جميعاً بالعبودية لله تعالى، وهو سبحانه ربهم جميعاً، ومن وجوه هذه الرحمة الإجهاد في دعوتهم للإسلام، وجعلهم يتنعمون بنعمة الحمد لله ويشاركون المسلمين تلاوة هذه الآية ونيل الأجر والثواب على تلاوتها الى جانب ما يترشح عنها من الأثر الذي يتجلى بالأخلاق الحميدة والصلاح واجتناب الرذائل والفواحش.



التفسير

في ﴿الْحَمْدُ﴾ مسائل:

الحمد نقيض الذم ، وقد حمده يحمده حمداً ومحمداً ومحمدةً فهو محمود وحميد.

الأولى : والحمد هو الثناء باللسان على الجميل بقصد التعظيم والتبجيل والإطراء الحسن ومدح المنعم على النعم، والشكر المقرون بالرضا، وفي علم الكلام اشترط في الحمد صدوره عن علم وليس عن ظن ، ولا أصل لموضوع هذا القياس.

الثانية : يمكن ان يدخل الحمد في سلك الأعمال لأنه فعل للسان وبه يثقل الميزان.

الثالثة : الحمد والمدح والشكر متقاربة المعنى، وتتصل في مضامينها، وتلتقي في غاياتها مع الإغماض عما بينها من خيوط للفرق دقيقة، فالفرق بين الحمد والمدح والشكر أن الحمد نقيض الذم، والمدح نقيض الهجاء، والشكر نقيض الكفران.

الرابعة : قد يأتي الحمد من غير نعمة تتغشى الشخص، وهو اعم من الشكر لأنه يأتي عن نعمة وإحسان أو بدونها.

الخامسة : الشكر فعل ينبئ عن تعظيم المنعم في رد فعل لإحسانه وإقرار ضمني بكونه محسناً، والحمد أخص مورداً بظهوره على اللسان وفي القول فقط، والشكر يكون باللسان أو الجنان أو الأركان.

السادسة : بين الحمد والشكر عموم وخصوص من وجه اذ ينطبق كل واحد منهما على بعض مصاديق الآخر، فهما يلتقيان في صدق الثناء باللسان على الإحسان، ويستقل كل منهما في الانطباق على مصاديق أخرى.

السابعة : الحمد أعم من جهة المتعلق فتأتي بالحمد سواء كان الأنعام واصلاً اليك او الى غيرك ، وقيل اما الشكر فيتعلق بالإنعام الذي يصل

اليك.

وموضوع المدح اعم من الإحسان، فقد يمدح الإنسان غيره من غير ان يتلقى منه احساناً، اما الحمد فيأتي متعباً للإحسان وقد جمع الشاعر موارد الشكر بقوله :

أَفَادَتْكُمْ النُّعْمَاءُ مِنِّي ثَلَاثَةٌ ... يَدِي وَلِسَانِي وَالضَّمِيرَ الْمُحَجَّبًا^(١).
الثامنة : و(عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: الحمد رأس الشكر ما شكر الله عبد لا يحمده)^(٢)، أن ذكر النعمة باللسان إعلان بالإقرار بها وثناء صريح ومباشر على موليتها ودلالة على مكانها.

أقسام الحمد

يقسم الحمد تقسيماً إستقرائياً عقلياً الى :

الأول : حمد لغوي: وهو الوصف بالجميل بقصد التعظيم.

الثاني : حمد عرفي: أي إتيان فعل يرمز إلى تعظيم المنعم ويكون دلالة على كونه منعماً فهو أعم من أن يكون باللسان أو الأركان فقد لا يكون صريحاً بيناً مباشراً، بل يدرك بالعرف والوجدان انه شكر.

الثالث : صرف الطبيعة من الحمد: وهو ما يدل عليه ولو على نحو

المسمى.

الرابع : حمد قولِي : وهو الثناء باللسان بما مدح الله عز وجل به نفسه سبحانه مما جاء به الأنبياء وما تضمنته الكتب السماوية والآيات القرآنية واحاديث السنة مملوءة بمصاديق من هذا المدح، وفيها تخفيف عن المسلمين باعانتهم على إيجاد صيغ المدح وتثبيتها ومنع اللبس او التردد او التوقف والخشية من عدم مناسبة بعض الصيغ المخترعة، بالإضافة الى توفير الجهد الشخصي والنوعي والإتيان بها على نحو المجموع والإستغراق وبذا تكون مصاديق وصيغ الحمد هذه منطلقاً للوحدة الإيمانية والإلتقاء

(١) الكشف ٤/١.

(٢) الثعلبي / الكشف والبيان ٢٦/١ .

على عمل عبادي مندوب مشترك.

الخامس : حمد فعلي: هو الإتيان بالواجبات والأعمال العبادية البدنية ابتغاء مرضاة الله تعالى وتعبيراً عن الإقرار بنعمه.

السادس : حمد حالي: وهو الذي يتجلى بصفاء الروح وسلامة القلب والاتصاف بالكمالات والسعي لها والتأمل في عظيم قدرة الله تعالى وسعة ملكه والتزام الاستكانة والخضوع لسلطانه والاشتغال بالدؤوب بالعبادة.

السابع : الحمد لله: جملة خبرية وفي المعنى إنشائية أي قولوا الحمد لله.

الثامن : أنها جملة إسمية جاءت لقصد بيان الثبوت والدوام إذ ناب المبتدأ مناب الفعل، ليس في عمله ولكن في معناه باستثناء دلالة الحدث التي يدل عليها الفعل فقولك احمد الله وحمداً لله كل منهما جملة تدل على الحدث والتجدد، ففي الجملة الأولى جيء بالفعل وفاعله، وفي الجملة الثانية اختزل الفعل وفاعله لانتفاء الحاجة لذكرهما ليؤتى بالمصدر نائباً منوب الفعل وهو المفعول المطلق.

التاسع : المصدر أقوى ركيزة ودلالة من الفعل في المقام، والجملة التي تبدأ بمصدر منصوب هي أيضاً جملة فعلية لأنها منصوبة بفعل محذوف فإذا رفعت هذه المصادر صارت الجملة إسمية.

العاشر : بيان الفرق بين الجملة الفعلية والاسمية أن دلالة الفعل على اقتران الحدث بزمان معين تبدو واضحة في مفهوم الجملة الفعلية ومعناها فإذا جئت بالفعل الماضي وقلت (حمدت الله) كان الفعل قد مضى وانقضى، وإذا جئت بالفعل المضارع وقلت (احمد الله) ففيه دلالة على ثبوت الحمد واتصاله وإطلاقه لعناوين الأزمنة الثلاثة من غير تخصيص بزمان معين، أما إذا قلت (سأحمد الله) فالمراد المستقبل القريب، وإذا قلت (سوف أحمده الله) فالمقصود المستقبل البعيد.

الحادي عشر : الحمد في هذه الآية أكثر شمولاً وإتساعاً وأوضح

دلالة على الثبوت والدوام، وقد ظهر رجحان الرفع في قوله تعالى ﴿قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ﴾^(١).

فقد رد إبراهيم عليه السلام عليهم بجملة إسمية تدل على الثبوت إختياراً للأحسن على الرد بالمثل لقوله تعالى ﴿وَإِذَا حُيِّتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا﴾^(٢)، وهو شاهد قرآني على وراثة المسلمين للأنبياء في باب التحية والسلام.

ومعنى ﴿قَالُوا سَلَامًا﴾: أي سلموا سلاماً، ولم تثبت القاعدة التي اشتقها بعض الأصوليين من هذه الآية وذكرها السيوطي في الإتيان بأن المصدر إذا جاء منصوباً فالإتيان بالفعل مستحب لأن الابتداء بالسلام مستحب، وإذا جاء المصدر مرفوعاً فإن الأمر يفيد الوجوب لأن رد السلام واجب.

الثاني عشر: ومن الفرق بين النصب والرفع انك إذا نصبت تظهر العمل والسعي لإثبات الفعل في حال حديثك، وإذا رفعت فانك تبتدأ شيئاً قد ثبت عندك ولتشير إلى إستقراره ودوامه، والدوام لا يثبت إلا بالرفع، وقيل لو لم يعدل إلى الرفع لم نعر على ما يدل على الدوام للإقتران الدائم بين النصب والتجدد لما في النصب من ملاحظة الفعل وتقديره.

قانون الحمد لله دعاء

من فلسفة الدعاء انه عنوان جامع للخوف منه تعالى ورجائه وسبيل إلى فعل الصالحات وإتيان أعمال البر في حرص على دوام تلك النعم وأمل في المزيد منها إذ أن الله عز وجل جعل الحمد طريقاً لنيل المزيد من النعم.

(١) سورة هود ٦٩.

(٢) سورة النساء ٨٦.

إن قول الحمد لله بلغة الإطلاق في كل نعمة فردية أو جماعية تخص الأبدان أو الأرزاق أدب حسن في مقام العبودية، ودليل على الرشد وحسن توظيف العقل وقد استدل العدلية على وجوب شكر المنعم بإحتمال الضرر في تركه واستحقاق تاركة العقاب وقيام الحجة عليه في الحياة الدنيا وفي الآخرة.

عن صفوان بن يحيى عن الكاهلي قال كتبت إلى الإمام عليه السلام في دعاء: "الحمد لله منتهى علمه، فكتب إلي: لا تقولن منتهى علمه فليس لعلمه منتهى ولكن قل منتهى رضاه"^(١).

ويعكس الحمد حالة العلم عند الإنسان وإدراكه للعلل الحقيقية لما يتنعم به وإقراره بعظمته تعالى في إجلال وحب وثناء مطلق، كما جاء الحمد باسم الذات المقدسة وليس باسم آخر من أسماء الله الحسنى لأن الحمد لا ينحصر بنعمة معينة أو باب محدد من أبواب النعم، فكل نعمة تستحق حمداً وثناءً ولا مانع من قصد نعمة معينة بالحمد، فمرة تحمده تعالى على العافية، وأخرى على السلامة من الأمراض وأخرى على الرزق، ولكن صيغة الإنفراد لا يمكن أن تحيط بنعمه تعالى لأنها دفعية وتدرجية وفي كل منها نعم متعددة بما يعجز الإنسان عن الإحاطة بها، فجاء التكثير والإطلاق وقصد العموم المجموعي بالحمد لله تخفيفاً ورحمة وتسهيلاً من الله تعالى ليكون مجزياً ولينبسط على النعم كلها على نحو العموم الإستغراقي.

قانون شكر المنعم واجب

أجمع المليون على وجوب شكر الله تعالى وانه مستحق للحمد، واختلف المتكلمون من المسلمين هل الشكر ثابت نقلاً أي من القرآن والسنة أم ثابت عقلاً وان العقول تدرك وجوب شكره تعالى. والقائلون بالأول استدلوا بقوله تعالى (الحمد لله) لأنها تفيد إستحقاقه تعالى الحمد على نحو الإطلاق وصحيح أن الجملة الإسمية تدل

على الثبوت والدوام والإنبساط على أنات الزمان المختلفة إلا أن حمده تعالى أعم من أن ينحصر بالدليل السمعي، بل أن العقل كحجة يدرك وجوب شكر المنعم، وافتتاح آدم لكلامه بالحمد لله آية عقلية فحالما عطس عند بعث الروح فيه قال الحمد لله.

فثبت أن الله تعالى يستحق الحمد على نحو الإطلاق ليس هذا فحسب بل النقل والعقل يحكمان بأن تعاهد الحمد والثناء لواجب الوجود حاجة مستديمة لكل إنسان وللناس على نحو العموم المجموعي، فقد يشكر إنسان الله عز وجل فينعم عليه أو يصرف عنه بلاء نازلاً وإن كتب عليه البلاء وقضي قضاء مبرماً والله واسع كريم.

إنه لفظ وقول يرقى إلى مستوى العمل كي يؤجر ويثاب الإنسان عليه، كما يتحلى بإيمان الجوارح وظهوره على الأفعال، والحمد لا ينحصر متعلقه بما يصل إليك من الإنعام بل يشمل الغير على نحو الإشتراك أو الإستقلال، والاتحاد أو التعدد.

في قول (الحمد لله) على نحو الثبوت والدوام فضل الهي متجدد، إذ أن مدة حياة الإنسان محدودة فحينما يقول (الحمد لله) تبقى كلمته هذه تسبح في الفضاء وتحفظ في سجلات الأعمال ويتعاهدها الله عز وجل بالنماء وزيادة الأجر والثواب، وكأنه يقولها كل يوم.

فلا غرابة أن تنزل شآبيب الرحمة على المؤمن في عالم البرزخ، ويكون قبره روضة من رياض الجنة لأن قوله (الحمد لله) يبقى حياً بعد حياته وكأنه روح الأعمال ومادتها، فكما تبقى الأرواح ولا تفنى بالموت كذلك قول (الحمد لله).

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: قال عمر: قد علمنا سبحانه الله، ولا إله إلا الله، فما الحمد؟ قال علي عليه السلام: كلمة رضيها الله لنفسه، وأحب أن يقال^(١).

وبقاء قول العبد (الحمد لله) إلى ما بعد مماته فضل منه تعالى بان جعله ادخاراً كريماً وأوكله ملائكة كراماً.

ولم ترد اللفظة بحمد الله لأن الحمد ليس إختراعاً وإبتداعاً وتفضلاً من العبد ، وليبان أنه لم يأت بها إلا مع اليقين بحصول النعمة، فلأن الله عز وجل مستحق بذاته الحمد جاءت الآية على نحو الإطلاق والدوام. ومع كثرة الأحكام المتعلقة بالرياء وموضوعه وإمكان تسربه إلى العبادات فان قول (الحمد لله) خال من الرياء في الجملة لأنه ليس أمراً إختياراً وإجتهاداً من العبد، بل أمر إنتزاعي قهري متولد عن حقيقة ولزوم إستحقاقه تعالى للحمد.

أقسام أل الجنسية

أما (أل) في الحمد فهي جنسية تفيد الإستغراق، وتقسم (أل) المعرفة إلى قسمين: عهدية وهي التي تدخل على فرد واحد من أفراد الجنس، وجنسية: وهي التي تدخل على الجنس مطلقاً دون أن يكون المراد منها واحداً معيناً من تلك الأفراد.

وتنقسم (أل) الجنسية أيضاً إلى قسمين: أحدهما لتعريف الحقيقة وهي التي لا تأتى (كل) بدلا عنها، والأخرى التي تأتى للإستغراق، وهي أيضا على نوعين:

الأولى : وهي التي تفيد استغراق جميع أفراد الجنس وتختلفها (كل) حقيقة فقوله تعالى ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ أي كل حمد لله بلا إستثناء.

والأخرى: وتسمى الكمالية وتفيد استغراق جميع خصائص الأفراد تجاوزاً.

فقول (الحمد لله) للمبالغة في المدح والثناء والإتيان بالحمد على وجه الكمال.

وما في عنوان الحمد من مضامين ومعان متفرقة ومتنوعة فأنها تلتقي في هذا الحمد الذي ينحصر بمجموعه بالله تعالى، أي أن قسمي الاستغراق موجودان في الحمد لله، والمعارف الإلهية تفوق حد التصور والقواعد

اللغوية والنحوية التي وضعها الإختصاصيون وقال بعضهم : أن الألف واللام في الحمد عهدية.

قال الفاكهي: سمعت شيخنا أبا العباس المرسى يقول: "قلت لابن النحاس ما تقول في الألف واللام في الحمد أجنسية هي أم عهدية؟ فقال: يا سيدي قالوا أنها جنسية، فقلت له: الذي أقول أنها عهدية وذلك أن الله تعالى لما عَجَزَ خلقه عن كنه حمده حَمَدَ نفسه بنفسه في أزله نيابة عن خلقه قبل أن نحمده، فقال أشهدك أنها للعهد وأستأنس له ما صح عن قوله صلى الله عليه وآله وسلم: "اللهم لا تحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك".

وقد ذهب بعض أهل الإشارات إلى أبعد من هذا. والحقيقة أن مثل هذا القول لا يمنع من أن تكون جنسية أيضاً والله واسع كريم. فان مصاديق الحمد النوعية والشخصية المقرونة بالتبجيل وصفات الكمال لله عز وجل وحده.

وقد يأتي الحمد لله مطلقاً في قوله تعالى ﴿وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾^(١).

وقد يأتي الحمد والشكر بخصوص نعمة قال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾^(٢). واللام حرف جر أصلي له معان أوصلها بعضهم إلى أكثر من عشرين من أظهرها:

الإستحقاق: وهي التي تقع بين معنى وذات.
والإختصاص مثل قوله تعالى ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ

(١) سورة الروم ١٨.

(٢) سورة البقرة ١٧٢.

لِلْمُتَّقِينَ ﴿١﴾ ومثل : الجائزة للفائز.

قانون الحمد لله على ربوبيته المطلقة

جاء ذكر اسم الجلالة لتوكيد إستحقاق الله تعالى للحمد وبيان أهمية موضوع الحمد وتعلقه باسم الذات والألوهية، ولم يأت بالصفة أو احد الأسماء الحسنی الأخرى لمنع التوهم باختصاص الحمد وإستحقاقه بوصف دون وصف، ولبيان ان الأمور وأسباب المنافع من الله عز وجل فيكون الحمد والثناء في مجموعه وحقيقة صدقه لله عز وجل، ويصبح الحمد وجهاً من وجوه العبودية ودعوة وسبيلاً للتفكر في بديع صنع الله تعالى ومفتاحاً لذكره ووسيلة للمزيد من فضله وإحسانه.

قال الإمام علي عليه السلام: "الحمد لله المتجلي لخلقه بخلقه" (٢)، أي ان بديع خلقه آية حاضرة تدل على واجب الوجوب وتهدي الى العباداة.

قانون أمر وتدبير الخالق لله وحده

الرب هو الله عز وجل وهو رب كل شيء أي أنه مالك الأشياء جميعاً ، قال تعالى ﴿الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ (٣)، وفي اللغة رب الشيء: سيده ومالكة وصاحبه ومصلحه ومدبره ومربيه والقيم والمنعم عليه، والله عز وجل رب الأرباب ومالك الملوك والأملاك. وفي معنى السيد المطاع قال لييد : واهلكن يوماً رب كندة وابنه

ورب معد بين خبت وعرعر (٤).

وفي معنى المالك قول النبي صلى الله عليه وآله لرجل: "أرب غنم أم رب ابل.

(١) سورة آل عمران ١٣٣.

(٢) نهج البلاغة ١/١٨٣.

(٣) سورة طه ٥٠.

(٤) المحرر الوجيز ٢/١.

فقال: من كل ما أتى الله فأكثر وأطيب^(١).

وفي حديث إجابة الدعوة "اللهم رب هذه الدعوة" أي صاحبها، والمتمم لها والزائد في أهلها والعمل بها.

ويمكن تقسيم لفظ الرب في معناه إلى ثلاثة أقسام :
الأولى : الرب هو المالك.

الثانية : السيد المطاع، قال تعالى ﴿فَاسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا﴾^(٢) أي سيده.

الثالثة : المصلح، رب الشيء إذا أصلحه كما في قول الشاعر :
يرب الذي يأتي من العرف انه

إذا سئل المعروف زاد وتمما^(٣)

وربه يربه كان له رباً، ومن المجاز ربّ المعروف والصنيعة والنعمة يربها رباً: نمّاها وأتمّها وأصلحها.

ولا يأتي (الرب) باللام وبعنوان الإطلاق إلا لله عز وجل، ويقال هذا الاسم لغير الله بالإضافة ليكون مقيداً كرب الدار ورب الناقة، ولا يعتد بما ورد بإطلاق اللفظ في الجاهلية لغير الله لافتقاره إلى المسوغ الشرعي ولطبيعة الكفر السائدة آنذاك.

قال الحارث بن حلزة في المنذر بن ماء السماء :
وهو الربّ والشهيد على يو..

م الحيارين والبلاءُ بلاءً^(٤)

بل يمكن تأويله وصرف الضمير لله عز وجل لأن آثار حنيفة إبراهيم الخليل كانت موجودة عند العرب قبل الإسلام وهي جزء من المقدمات الموطئة لبعثة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وتيسير تصديقه.

(١) المعجم الكبير ٢٤٢/١٩.

(٢) سورة يوسف ٤١.

(٣) الكشف والبيان ٢٨/١

(٤) تفسير اللباب لابن عادل ٨/١.

الحمد في القرآن

ورد ذكر الحمد ومشتقاته في القرآن خمساً وأربعين مرة كلها لله عز وجل بإستثناء واحدة هي أيضاً لم تستوف مستلزمات الحدوث والفعل إذ قال تعالى ﴿وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسِبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ﴾^(١).

وتظهر آيات الحمد قانون إشتراك الخلائق في الثناء على الله عز وجل وحمده ويمتد زمان الحمد من قبل خلق آدم إلى أيام الحياة الدنيا ثم يلزم أصحاب الخلود من أهل الجنة . ولم ينحصر الحمد في مكان دون آخر فهو يغطي السماوات والأرض ويسمع في أركانها في كل وقت.

فمن فلسفة الخلق والتكوين ملازمة الحمد للممكنات، قال تعالى ﴿وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾^(٢). ودائرة الحمد وموارده متسعة تارة تكون لنعم شخصية وأخرى للجماعات وأخرى لبديع صنعه تعالى ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾^(٣).

والحمد باب للمدح والثناء وإستحضار عظم مخلوقاته كدعوة للتفكر في صنائع الله عز وجل وقدرته اللامتناهية واتصال وجوه نعمه الظاهرة منها والباطنة، وهي جسور ترسخ في النفس الإنسانية روح العبودية والخضوع لله عز وجل.

إن إبتداء القرآن بالحمد لله رحمة للمسلمين وإشارة إلى موضوعية

(١) سورة آل عمران ١٨٨.

(٢) سورة الروم ١٨.

(٣) سورة النحل ٨٩/.

الحمد في ميزان الهداية والإيمان وتشريع تكرار وجوبه في افتتاح كل صلاة من الفرائض اليومية ليتصل الإتيان به بالنعم النازلة المتجددة مع الليل والنهار.

ومن الضروري ملاحظة ودراسة منازل الحمد في ابتداء الخلق واستمراره وخاتمته بغية التوصل إلى معرفة بعض وجوه الحكمة في فلسفة ومضامين إظهاره وتكراره فهي أول كلمة قالها أبونا آدم وافتتح بها كلامه فحينما بلغت الروح سرته عطس، وقال ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

أي أن ابتداء العالم ووجود الإنسان مبني على الحمد، كذلك كان ابتداء القرآن بالحمد بهذه الآية بلحاظ أن القرآن له الحكومة وفيه البيان على نحو الإطلاق قال تعالى ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾^(١)، ليرشح عنه قانون من التبيان مجيء الحمد في بداية القرآن.

ويكون الحمد آخر دعوة أهل الجنة والفائزين بالخلود فيها، قال تعالى ﴿وَحَيِّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾^(٢).

ولتكون أحوال الإنسان تجسيدا وموافقة لأحوال العالم الكبير ولاقتراح قراءة القرآن ببدايات مرحلة التعليم، وتلقي المعارف وضرورة تعلقها بالحمد لأن كل النعم من الله تعالى، لما فيه من الشكر على النعم المتقدمة في الزمن الماضي وما يحدثه من إستعداد لتجدد النعم وإستحقاق المزيد منها في المستقبل لقوله تعالى ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾^(٣).

ورد عن الإمام علي عليه السلام لما سُئِلَ عن تفسير (الحمد لله) قال: "هو أن الله عز وجل عرف عباده بعض نعمه عليهم جملاً إذ لا يقدرّون على معرفة جميعها بالتفصيل لأنها أكثر من أن تحصى أو تعرف فقال:

(١) سورة النحل ٨٩.

(٢) سورة يونس ١٠.

(٣) سورة إبراهيم ٧.

قولوا الحمد لله على ما انعم علينا^(١).

وقد روي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم إن إبراهيم الخليل عليه السلام سأل ربه قال يا رب ما جزاء من حمدك فقال الحمد لله فاتحة الشكر وخاتمة^(٢).

قانون الحمد لله إقرار بالنعم

إن الإتيان بالحمد لله والنطق به تقرير لإثبات الصانع وإقرار بنعمه علينا ودعوة للذات للسعي في دروب الشكر والإجتهاد في طلب رضاه سبحانه، بالإضافة إلى إجتنب ما نهى عنه إستحياء منه تعالى وعرفانا للجميل، لتبقى ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ مدرسة عبادية وأخلاقية ينتفع منها أفراد المجتمع من قائل وسامع وقارئ ومتأدب ومتدبر.

وهي حجاب ومانع من الضلالة وسلاح لصرف البلاء، لأن الحمد أحد وجوه الشكر وشعبة منه، وقد ورد عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم انه قال: "الحمد رأس الشكر، ما شكر الله عبد لم يحمده" فالحمد كاشف عن حقيقة الشكر وتعبير لما في الجوارح والأركان والجنان من الرضا والإمتنان وعدم الكفران.

إن شكر النعم واجب كما هو مرسوم في علم الأصول وهو بين العبد وخالقه وجوب العبادة، لذا فإن الشكر على عظيم النعم لا تستوفى أسبابه إلا بالالتزام والتقيد بأداء الفرائض لإن العبادة أساس الوجود الإنساني وعلة خلق أهل الأرض، وهي لا تصح إلا لله عز وجل القادر على أصول النعم وقيامه بتنزيلها على العباد رافة منه وإصلاحاً لشأنهم.

والله تعالى أولى بالشكر في كل نعمة تأتي للإنسان وإن كانت تأتيه من قبل الناس من حيث البشارة لأن الله عز وجل هو الذي خلق تلك

(١) مفاتيح الغيب ١/ ٢٨٤.

(٢) تفسير الصافي طبعة حجرية غير مرقمة عن العيون.

الإرادة وبعث هذه الداعية في قلب ذلك المحسن، أي انه لم يكن إلا سبباً متصلاً سخره الله لينال بسببه الثواب والكرامة وليكون الإحسان بين الناس سبيلاً ومناسبة لتجدد الحمد لله تعالى من الذي إستقبل النعمة ومن وفقه الله لإسدائها إلى الآخرين على يديه.

وليبقى ثواب هذا الحمد وأجره محفوظاً للعبد ومتامياً للزيادة لأنه غير متناه وان كانت تلك النعمة متناهية.

ومما يبدو واضحاً لكل إنسان أن الحمد والشكر لا يساوي معشار نعم الله عز وجل، كما أن النعم أمور مادية محسوسة وجواهر وأعراض، والحمد لا يعدو أن يكون ثناء باللسان، والله عز وجل غني عنه وعن قائله، قال تعالى ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾^(١).

وقد روي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم انه قال: "إذا أنعم الله على عبد نعمة فيقول العبد الحمد لله فيقول الله تعالى: أنظروا إلى عبيدي أعطيته ما لا قدر له فأعطاني ما لا قيمة له".

ثم يتعاهد الله الشكر والحمد الذي لم يوفق له العبد إلا بفضل الله تعالى ورحمته ولولاه لم يستطع الناس الاهتداء إلى الحمد، الأمر الذي يستلزم الشكر على أصل الحمد وخلقه في الذات الإنسانية وجعله ركناً من أركان البصيرة في الدين والدنيا.

ونقل أن داود عليه السلام قال: "يا رب كيف أشكرك وشكري لك لا يتم إلا بأنعامك عليّ وهو أن توفقني لذلك الشكر، فقال: يا داود لما علمت عجزك عن شكري فقد شكرتني بحسب قدرتك وطاقتك"^(٢).

إن الله عز وجل يرضى بالقليل على ما يعطيه من كثير النعم وعظيمها وجعل قول العبد الحمد لله ثمناً لها وسبباً لدوامها، وعنواناً للواجب من الشكر، ورابطة آدمية بين أفراد النعم، لتكون شاهداً على الإستحقاق وعدم تعقب العقاب.

(١) سورة الذاريات ٥٦.

(٢) مفاتيح الغيب ٢٢٢/١.

أخرج بسند ضعيف عن النواس بن سمعان قال: "سُرقت ناقة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فقال: لئن ردها الله لأشكرن ربي، فوقع في حي من أحياء العرب منهم امرأة مسلمة، فوقع في خلدتها أن تهرب عليها، فرأت من القوم غفلة فقعدت عليها ثم حركتها فأصبحت بها في المدينة، فلما رآها المسلمون فرحوا بها ومشوا بمجيئها حتى أتوا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فلما رآها قال (الحمد لله) فإنتظروا هل يحدث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم صوماً أو صلاة فظنوا انه نسي، فقالوا: يا رسول الله قد كنت قلت لئن ردها الله لأشكرن ربي قال: ألم أقل (الحمد لله) ^(١).

لقد أراد النبي صلى الله عليه وآله وسلم إعطاء درس أخلاقي وعرفاني يتضمن الإكتفاء بالقليل مع عظيم النعمة وإعلان الإستعداد للشكر وإنتظار المسلمين ما يناسب النعمة والكرامة والفضل ومقام النبوة في وجوه الشكر المستحدثة لتوثق في السنة القولية والفعلية فجاءت بسيطة لتؤكد ان المتعارف القليل من الشكر فيه نفع عظيم وهو مناسبة للصالح. لقد ورد في السنة النبوية الشريفة التي هي تفسير للقرآن والمصدر الثاني في التشريع من بعد القرآن ما يجعل التلفظ بالحمد لله وقوله أداءً للشكر ووظيفته، فقد روي عن الإمام علي عليه السلام أنه قال: "بعث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم سرية من أهله فقال: اللهم لك علي أن رددتهم سالمين أن أشكرك حق شكرك، فما لبثوا أن جاؤا سالمين. فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: الحمد لله على سابغ نعم الله، فقلت: يا رسول الله ألم تقل أن أشكره حق شكره، فقال: أولم أفعل ^(٢).

وكانت كيفية شكره صلى الله عليه وآله وسلم من جوامع الكلم ، ودرساً وموعظة وتحفيزاً وحثاً على الشكر وتيسير صيغه.

(١) روح المعاني ٦٠/١.

(٢) السيوطي / الدر المنثور ٣٢/١.

وقد ورد عن الإمام جعفر الصادق انه قال: "ما أنعم الله على عبد بنعمة صغرت أو كبرت فقال الحمد لله إلا أدى شكرها".

ولا يعني الإلتقاء والتشابه في صيغة الشكر المساواة بين النعمة والشكر فان قضاء العمر كله في شكر المرء نعم الله التي لا تحصى لا يرقى إلى ما يوازي أصغر مقدار أو نسبة منها، وان كانت كل نعمة منها عظيمة وجسيمة ولكن لحاظ الشكر هذا يتحقق بفضل الله تعالى واتصال كرمه وواسع رحمته ورأفته.

وجاء في دعاء الإمام علي بن الحسين زين العابدين عليه السلام: "أنك المنان بجسيم المنن، الوهاب لعظيم النعم، القابل يسير الحمد"^(١).

قانون وجوب إستدامة الحمد لله

لقد زاد الله في فضله على الناس فجعل الحمد ثمن زهيد للنعمة لما فيه من معاني العبادة والشكر واستحضار ذكر الله وتوظيف العقل في ادراك نعم الله والتدبر في مصدرها الاساسي من الفيض الرباني والمشئئة الالهية. وعن أنس قال: "قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: لو ان الدنيا كلها بمحذافيرها في يد رجل من أمتي ثم قال: الحمد لله لكان الحمد أفضل من ذلك"^(٢).

ليبان آية ونعمة أخرى منه تعالى فالكثير الذي للعبد يرجح عليه الحمد والثناء، أما الذي لا يحمدته تعالى على النعمة سواء كانت في البين أو الجاه أو العلم وغيرها فان تلك النعم تكون موضوعاً للحساب الشديد والعقاب الأليم.

فالحمد نعمة منه تعالى برزت إلى الخارج على لسان العبد وباختيار منه مع أن الله عز وجل هو الواسع الكريم فالخزائن التي أعطى منها النعم لا تنفذ ولا ينقص منها شيء مهما خرج منها للخلائق، والعبد هذا الممكن المتناهي خصص جزء من عمله لشكره تعالى.

(١) الصحيفة السجادية ١٥٦.

(٢) السيوطي / الدر المنثور/ ٣٢/١.

وفي روايه عن الحسن البصري مرسله عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: "ما أنعم الله على عبد نعمة يحمد الله عليها إلا كان حمد الله أعظم منها، كائنه ما كانت"^(١).

لقد أنزل الله عز وجل الحمد منزلة يغبط عليها أهله، وفيها حث ودعوة للناس للمبادرة إليه والتزامه إلى جانب ما فيها من رحمة . وتتضمن التخفيف عن أهل التقوى من المؤمنين الذين يدركون واقع العجز عن شكر نعمه تعالى وعما ألهمهم من الشكر والثناء والتوفيق إلى قول الحمد لله.

عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام قال: "أوحى الله عز وجل إلى موسى عليه السلام: يا موسى اشكرني حق شكري، فقال: يا رب وكيف أشكرك حق شكرك وليس من شكر أشكرك به إلا وأنت أنعمت به عليّ، قال: يا موسى الآن شكرتني حين علمت ان ذلك مني"، وفي رواية قال موسى عليه السلام: إلهي أمرتني بالشكر على نعمك وشكري إياك نعمة من نعمك".

وفي هذا المعنى قال الشاعر:

إذا كان شكري نعمة الله نعمة

عليّ له في مثلها يجب الشكر

فكيف بلوغ الشكر إلا بفضل

وإن طالت الأيام وإتصل العمر

وقيل أن من إعتقد أن حمده وشكره يساوي نعم الله تعالى فقد أشرك وإن هذا معنى قول الواسطي الشكر شرك.

ولكن المقام أعم من أن يكون مقام توحيد أو شرك، كما أن جعل هذه المقولة تأويلاً لقول الواسطي يفتقر إلى القرينة والدلالة، خصوصاً وإن قول الواسطي نفسه مخالف في ظاهره للواقع وبعيد فيما يتبادر من

فهمه عن لغة الإيمان، والحقيقة والمجاز وصيغ العرفان ويمكن أن يستغله الذي في قلبه مرض فيأوله على وجه ضار ولم يلتفت إلى المضامين المجازية ولغة أهل الإشارات والصوفية، ولعل نسبة هذا القول إلى الواسطي لم تتم.

وقال الرازي بأن (الحمد لله ثمانية أحرف وأبواب الجنة ثمانية فمن قال هذا الثمانية عن صفاء قلبه إستحق ثمانية أبواب الجنة)^(١).

والقول إذا لم يرفع يحتاج إلى دليل أو قرينة معتبرة مباشرة أو ضمناً، نعم، الالتقاء بالعدد بين أبواب الجنة والحمد لله لم يقع إتفاقاً ومصادفة، ولكن الملازمة بينهما تحتاج إلى دليل تحقق مثل هذا القول وما هو على الله بمستعص أو بعيد، خاصة بالنسبة لأولئك الذين يؤمنون إيماناً عفواً بما يقرأون طمعاً برحمته تعالى وثقة بالعلماء المسلمين، بالإضافة إلى رحمته تعالى بمن يحسن الظن به وعدم خيبة من رجاء وأحاديث من بلغ.

ولم يرد في القرآن بيان بأن عدد أبواب الجنة ثمانية، نعم ذكر عدد أبواب النار وأنها سبعة ، وأبواب الجنة الثمانية ذكرت في أحاديث نبوية مستفيضة وعن (أنس قال : توفي ابن لعثمان بن مظعون فاشتد حزنه عليه ، فقال له النبي صلى الله عليه وآله وسلم : إن للجنة ثمانية أبواب وللنار سبعة أبواب ، أفما يسرك أن لا تأتي باباً منها إلا وجدت ابنك إلى جنبك ، آخذاً بحجزتك يشفع لك إلى ربك؟ قال : بلى .

قال المسلمون : يا رسول الله ولنا في افراطنا ما لعثمان؟ قال : نعم ، لمن صبر منكم واحتسب .

وأخرج النسائي عن ابن عمرو قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : إن الله لا يرضى لعبده المؤمن إذا ذهب بصفية من أهل الأرض فصبر واحتسب بثواب دون الجنة)^(٢).

(١) مفاتيح الغيب ٢٢٠/١.

(٢) الدر المنثور ٣١٧/١.

ويمكن أن يكون الحمد غالباً لأبواب النيران وفتحاً لأبواب الجنان بما يتضمنه من الإقرار بالله عز وجل إلهاً ورازقاً إلى جانب ما فيه من عناوين الشكر لله عز وجل وإن كانت مزروعة في النفس بفضلته تعالى.

إن الحمد لله سبيل إلى الجنة بإعتباره ضياء ينير دروب الحياة بتقوى الله، فالإعتراف بان النعم كلها من عند الله عز وجل طريق لحفظها وحائل دون زوالها وأنه يجزي لسان الحمد والشكر لدوامها والزيادة فيها.

تفسير ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾

من معاني ربوبية الله عز وجل أنه خلق الموجودات بيديع صنعه ولطفه ، وهو القائم على إستدامتها وصلاحتها وهدايتها والمدبر لنظام العوالم الكونية باعجاز لا تقدر على معشار منه وإن إجتمع.

والله هو رب العالمين الذي انفرد بخلق الأشياء كلها لتكون مستجيبة له ومنقادة لأمره ، وفي التنزيل ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَيْثُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِ اللَّهِ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ (١).

وأختلف في الأبعاد العرضية والطولية لسعة لفظة العالمين، ففي إطار اللغة قيل أن الواو والنون تأتي لجمع القلة، والحال يذهب بالمعنى إلى جمع الكثرة، والظاهر أن جمع المذكر السالم يفيد إرادة القلة والكثرة، والعالم اسم جامع لما يعلم به، والمراد في المقام كل ما سواه سبحانه من الأشياء والكائنات مما يعلمه الله عز وجل.

وعلم الله تعالى لم يأت عن نظر أو حس أو تدبر، كما انه ليس بضروري ولا مكتسب، وعلمه بالأشياء عبارة عن حضورها عنده تعالى وظهورها لذاتها لا بمعنى أنها كانت خافية وانكشفت.

وورد لفظ (العالمين) في القرآن ثلاثاً وسبعين مرة ليس فيها رفع ولا

نصب بل جاءت الباء علامة لإعرابها باعتبارها إسماً مجروراً أو مضافاً إليه. وفي إطار الشريعة وعلم التفسير يقع العالم على الناس والملائكة والجن.

وقال ابن عباس في قوله تعالى ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾^(١) ربّ الجن والإنس، وقال قتادة: رب الخلق كلهم، ومال الأزهري إلى قول ابن عباس وإستشهد على صحة قوله بدليل ما جاء في سورة الفرقان ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾^(٢) وأن النبي صلى الله عليه وآله وسلم ليس نذيراً للملائكة مثلاً وهم خلق الله وإنما بعث محمد صلى الله عليه وآله وسلم نذيراً للجن والإنس. ومما يرد على هذا القول أن مقام استعمال اللفظ يختلف بلحاظ القرائن والمقاصد السامية مما يظهر احتمال التباين في المعنى والقصد، فالربوبية في الآية الكريمة تفيد الإطلاق والعموم وما هو أعم من الإنذار والتبليغ.

ففي سورة الفاتحة ورد بمعنى الربوبية العظمى والإحاطة التدبيرية لعالم التكوين وبما يؤكد وجوب إستحقاق الله تعالى للحمد خاصة وإن اللغة تساعد على الاتساع في المعنى والمفهوم.

(وأخرج عن ابن عباس في قوله تعالى ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ قال: إله الخلق كله السموات كلهن ومن فيهن والارضون كلهن ومن فيهن ومن بينهن مما يعلم ومما لا يعلم)^(٣).

ويجوز أن يفهم من لفظ العالمين في الآية الكريمة ما سبق من العوالم والأجناس وما سيأتي منها مستقبلاً. وقيل أن المراد من العالمين هم الناس لأنهم المقصودون بالتكليف

(١) سورة الفاتحة ٢.

(٢) سورة الفرقان ١.

(٣) الدر المنثور ١/٢٤.

وأداء الفرائض وإرسال الرسل، وعالم الإنسان واحد بل هو نفسه يمر بعوالم طويلة وهي عالم الدنيا وعالم البرزخ وعالم النشر والحشر والحساب وعالم الخلود، وفي كل من هذه العوالم عوالم فرعية أخرى، وما روي من شعر منسوب للإمام علي عليه السلام لا يفيد الحصر لأنه جاء بلغة المفرد وفيه من المجاز التأديبي:

دواؤك فيك وما تبصر

وداؤك منك وما تشعر

تزعم أنك جرم صغير

وفيك انطوى العالم الأكبر^(١)

(وروي عن وهب بن منبه أنه قال: لله تعالى ثمانية عشر ألف عالم، الدنيا منها عالم واحد، وما العمران من الخراب الا كفسطاط في الصحراء)^(٢) ولكن وهب لم يرفع هذا القول.

وان كان مثل هذا الخلق أمراً هيناً في قدرة الله عز وجل وعظيم صنعه، وروي في بعض الأخبار: "أن الله تعالى خلق مائة ألف قنديل وعلقها بالعرش، والسموات والأرض وما فيهن حتى الجنة والنار في قنديل واحد ولا يعلم ما في القناديل إلا الله تعالى"^(٣).

(وورد عن العباد بن عبد الخالق عمن حدثه عن الإمام الصادق عليه السلام قال: "أن لله عز وجل أثنى عشر ألف عالم، كل عالم منهم أكبر من سبع سماوات وسبع أرضين ما يرى عالم منهم أن لله عز وجل عالماً غيرهم"^(٤))، والرواية ضعيفة بالإرسال ولكنها لا تتعارض مع بقاء معنى العالم متسعاً قابلاً للزيادة والتعدد.

(١) الكشكول ٢١٢/١.

(٢) ابن منظور / لسان العرب ١٢ / ٤٢١.

(٣) الألوسي / روح المعاني في تفسير القرآن والسبع المثاني ١ / ٦٨.

(٤) الصدوق / الخصال / ٦٣٩.

وروي عن الإمام علي عليه السلام : أن أول ما خلق الله تعالى في عالم الماديات الماء وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾^(١).

وفي بعض الأخبار : أن أول ما خلق الله في عالم الأعراض الحروف" ، إلى غير ذلك في بيان بدايات ومفاهيم العالم. وقد ورد تفسير عن الإمام علي عليه السلام لمعنى رب العالمين في الآية الكريمة إذ قال: "مالك الجماعات من كل مخلوق من الجمادات والحيوانات وخالقهم وسائق أرزاقهم إليهم من حيث يعلمون ومن حيث لا يعلمون ، يقلب الحيوانات بقدرته ويغذوها من رزقه ويحوطها بكنفه ويدير كلا منها بمصلحته ، ويمسك الجمادات بقدرته ويمسك المتصل منها أن يتهافت ، ويمسك المتهافت منها أن يتلاصق ، ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بأذنه ، والأرض أن تنخسف إلا بأمره".

ويظهر الحديث القدسية التي ينطوي عليها هذا الاسم والمنزلة العظيمة له بإعتباره من أمهات المسائل المقدسة وما فيها من خصوصية وشأن في نشأة الخلائق وترتيب عالم التكوين وتنظيم شؤون الموجودات جميعا في أحسن تدبير وأكمل نظام.

الرب من أمهات الأسماء الحسنى

وورد الرب إسماً لله عز وجل في القرآن تسعمائة وخمساً وثلاثين مرة ، وتبدو خلال التدبر في مضامينها ومواردها القدسية التي يجسدها هذا الاسم والمرتبة الخاصة التي يحتلها بلحاظ إنه عنوان الملك ورمز السيادة ، بالإضافة إلى ما يتضمنه من معاني التدبر والقيومة ومصدر الإنعام على أهل الأرض والخلائق كافة ، كما انه دعوة إلى طاعة الله عز وجل وإشارة إليها وتذكير بما أمر به من العبادة.

إن هذا العدد لاسم (الرب) في القرآن له دلالات ويتضمن أصولاً

ومفاهيم ويستحق أن يكون علماً مستقلاً يبحث من خلاله في الحجج التي تدل على وجود الصانع وإثبات صدق الربوبية ولزوم العبودية ودفع الشبه عن حقائق التوحيد، واستظهار ما فيها من التأويل.

فاسم الرب من أمهات الأسماء المقدسة لما يرمز إليه من دلالات لعالم التكوين وأسباب تنظيم شؤون الخلائق وقوام الموجودات، وتقدير للأسباب والعلم المطلق وإحاطة بجميع الأشياء، لذلك ترى هذا اللفظ محاطاً حين وروده في القرآن بهالة من التعظيم والإجلال، وعن معاذ بن جبل (عَنْ مُعَاذٍ قَالَ كُنْتُ رَدَفَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ عَلَى حِمَارٍ يُقَالُ لَهُ عُفَيْرٌ، فَقَالَ: يَا مُعَاذُ، هَلْ تَدْرِي حَقَّ اللَّهِ عَلَى عِبَادِهِ وَمَا حَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّهِ . قُلْتُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ .

قَالَ: فَإِنَّ حَقَّ اللَّهِ عَلَى الْعِبَادِ أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَحَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّهِ أَنْ لَا يُعَذِّبَ مَنْ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا . فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَفَلَا أَبْشُرُ بِهِ النَّاسُ قَالَ « لَا تُبَشِّرُهُمْ فَيَتَكَلَّبُوا » (١).

كما في هذه الآية والآيات الأخرى مثل قوله تعالى ﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ (٢) وقوله سبحانه ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ﴾ (٣). ومن التعظيم إتيان كل مسلم ومسلمة لاسم الرب كل يوم سبع عشرة مرة في القراءة في صلواتهم اليومية وأنت ترى التعظيم له في قلوب المسلمين كما أن الخشية تظهر عليهم عند قراءة الفاتحة. لقد أفاد هذا الاسم ضمن مدلولاته السامية حالة الانقطاع إلى الله عز وجل والإيمان به والتسليم لأمره كما ورد في التنزيل ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي

(١) صحيح البخاري ٢٩٤/١٠.

(٢) سورة المؤمنون ٨٦.

(٣) سورة الصافات ١٢٦.

رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ ﴿١﴾.

وفيه تأكيد وتصديق لما ثبت في الفلسفة بأن كل شيء في الوجود يحتاج إلى الله تعالى في استمرار البقاء ودوام الحياة مثلما احتاج إليه في أصل الخلق وبداية التكوين، أي أن كل مخلوق محتاج إلى ربوبيته تعالى في كل لحظة إحتياجاً يتعلق بذات المخلوق وديمومة وجوده وبما ينعكس عليه من التغيير والتبديل الحاصل في عالم الموجودات ومسيرة نظامه والإفاضات النازلة من الله تعالى.

قانون توحيد الربوبية

من معاني الربوبية المطلقة لله عز وجل وجوه :

الأول : قانون الإقرار بأن الله عز وجل خالق ومالك كل شئ .

الثاني : قانون الله رب كل شئ لا شريك له ، وعن (أنس قال : قال

رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : تعرض أعمال بني آدم بين يدي

الله عز وجل يوم القيامة في صحف مختمة ، فيقول الله : ألقوا هذا واقبلوا

هذا . فتقول الملائكة : يا رب ، والله ما رأينا منه إلا خيراً . فيقول : إن

عمله كان لغير وجهي ولا أقبل اليوم من العمل إلا ما أريد به وجهي) (٢).

الثالث : أن الله عز وجل هو المحي والمميت ونواحيه .

الرابع : قانون التسليم بأن الله هو ﴿الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ (٣).

الخامس : قانون التصديق بالنبوة واليوم الآخر ، وفي التنزيل ﴿لَنْ

أَمْلِكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ (٤) أما توحيد الإلهية فهي عبادة الناس لله وحده

، وإخلاص العبودية له سبحانه ، وفي التنزيل ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ

(١) سورة الانعام ١٦٤.

(٢) الدر المنثور ٦/٤٣٣.

(٣) سورة الذاريات ٥٨.

(٤) سورة غافر ١٦.

مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حَنَّاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ ﴿١﴾ .
وتقسيم التوحيد إلى توحيد الربوبية وتوحيد الإلهوية تقسيم استقرائي ، ومن العلماء من قال أنها بمعنى واحد .

ويمكن القول أنها مما إذا اجتمعوا افترقا ، وإذا افترقا اجتمعوا .
وقيل أن الربوبية لها مراتب تختلف باختلاف مراتب المربوب والمتعلق واستشهد بقوله تعالى ﴿ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴾ (٢) وقال تعالى ﴿ وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ﴾ (٣) ، وليس من تفاوت في الربوبية ذاتها ، وهي عنوان الكمال المطلق وبمعنى ومفهوم مقدس واحد ، لذا ترى لغة الدعاء في القرآن تبدأ باسم الرب .

كما ورد في التنزيل ﴿ رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ ﴾ (٤) ﴿ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ (٥) ﴿ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾ (٦) ، ولكن الاختلاف في توجه المربوب وإرادته وإيمانه وما يستطيع الارتقاء إليه من منازل الخضوع والعبودية لله تعالى .

وكان الدنيا ميدان يتبارى به الناس للارتقاء في منازل العبودية ولا تنحصر الأطراف بالأقرب والجار أو الأحياء من الناس بل تشمل السابق في زمانه واللاحق ، لذا جاءت قصص الأنبياء والصالحين دعوة للإقتداء بهم ولتخاذهم أسوة وقادة في دروب الهداية ، قال تعالى ﴿ فِيهِ قَصَصُهُمْ

(١) سورة البينة ٥ .

(٢) سورة العلق ٣ .

(٣) سورة الزمر ٧٥ .

(٤) سورة إبراهيم ٤٠ .

(٥) سورة طه ١١٤ .

(٦) سورة البقرة ٢٠١ .

عِبْرَةُ لَأُولَئِى الْأَبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهَدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١﴾.

أن الدراسات والبحوث الخاصة بلفظ الرب إسماً لله تعالى متخلفة عن وظيفتها وقاصرة عن استيفاء ما يتضمنه هذا الاسم من المضامين العالية وما تنفرع عنه من الإفاضات الملكوتية، إذ أن تسليط الأضواء عليها وسبر أغوارها يساهم في لفت الأنظار إلى ما يمثله هذا الاسم من الحضور الإلهي الدائم ووجوب تعزيز روح التوكل وإرادة الإستعانة بالله إلى جانب ما يتعلق به من معاني الكمال وتوفير حاجات الوجود ومستلزماته لذا جاءت الآية التالية باسمين من الأسماء الحسنى ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ (٢) ثم تعقبها قوله تعالى ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ (٣)، ثم ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ (٤).

بحث فلسفي

قوله تعالى ﴿الْعَالَمِينَ﴾: جمع عالم كالقوم والرهط، وقيل أن اشتقاقه من العلامة وهي الدلالة والأمرة فكل شيء في العالم آية كاشفة عن وجود الصانع وحجة في بيان عظمة الخالق. وقد ثبت في علم الفلسفة أن الجائز لا يستغني عن المؤثر، وهذه القاعدة طريق إلى إثبات الصانع إذ أن الاختلاف في العلة والمعلول يكون في ثلاثة وجوه:

الأول: التقدم والتأخر .

الثاني: الإستغناء والحاجة .

(١) سورة يوسف ١١١.

(٢) سورة الفاتحة ٣.

(٣) سورة الفاتحة ٤.

(٤) سورة الفاتحة ٥.

الثالث : الوجوب والإمكان.

بالبدئية يدرك أن العلة المؤثرة أقوى لذاتها من معلولها سواء في وقوع العلية أو في غيرها، وأن المعلول يحتاج إلى العلة لذاته وطبيعته وسماته الخاصة مما يقتضي اختلافه في الماهية عن العلة التي تكون مفيدة ونافعة، والمعلول يتلقى تلك الفائدة من وجوده المتأخر عن العلة التي تكون أقوى وأقدم في الوجود وأوجب.

ويأتي عنوان الربوبية وما فيه من معاني قدسية وإفاضات إلهية بياناً لعظيم فضل الله تعالى بإيجاد هذه الخلائق بمشيئته وإبداع الكائنات بلطفه، وإن ما في العالم من المخلوقات يفتقر الله تعالى في دوام وجوده وأنه يحتاج إلى فيض رحمته في كل لحظة من لحظات حياته.

فالربوبية رمز حفظ هذه العوالم ، ولولا أمر الله تعالى إلى السماوات وإمساكها وتثبيتها لتهافتت ولبادت الأملاك وتساقطت الكواكب والنجوم وتفجرت الأنهار ولدثر العالم بلحظة واحدة ، قال تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ يُسَكِّنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّه كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾^(١).

إن قوله تعالى ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ طرد للفكرة القائلة بأن العالم مستقل بذاته مستغن في وجوده عن أحكام مشيئة الله تعالى، وفيه دفع لوهم قدرة الإنسان الذاتية في أذهان الناس، والآية تحصين للأفكار بإدراك حقيقة أن العالم محدث مبتدع، منشأ بقدرته، يتعاهده الله تعالى بالربوبية التي تستحق الحمد والثناء لما تتضمنه من النعم والإحسان المتصل والرحمة الواسعة.

وتشير الآية إلى ماهية وجود العالم فهو بالنسبة للباري عز وجل لا يشبه في وجوده وجود الدار عن البناء، والكتابة عن الكاتب فحسب، بل كوجود ضوء الشمس في الأفاق عندما تكون الشمس طالعة من جهة

وجود الأثر وعدم الجزئية إذ أن الضياء الذي يرى وإشعاعاته في الجوليس جزء من الشمس ولكنه فيض منها، كذلك ما ينبعث في الليالي البيض^(١) وغيرها من نور القمر، وهو رمز الواسطة لما ثبت أن القمر يأخذ نوره من ضياء الشمس.

وجئنا بهذا المثال التقريبي مع الفارق في الاختيار وغيره للدلالة على أن وجود العالم ليس جزء من الذات المقدسة بل هو فضل من الله تعالى وفيض تجلت فيه كبريائه وظهرت آلاؤه ليلتمس الناس عظمة القدرة ويلتزموا بأحكام الربوبية وآداب العبودية لله عز وجل، كما وأن الربوبية في الآية تؤكد أن إيجاد العالم تم بإرادته تعالى وإختياره ولطف مشيئته وحسن اختياره الذي ينبع من علمه الذي لا حدود له، قال تعالى ﴿لَا يَسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾^(٢).

إن ذكر الحمد والثناء لله عز وجل في الآية الكريمة وبعنوان الربوبية للعالمين إقرار بان المؤثر في الوجود وديمومته هو الله تعالى، وإعتراف بأن الرزق وجميع النعم تترى علينا بأمره وعن مشيئته وهو أمر يستحق الشكر والثناء الذي لا نتردد في إثباته ولا نتكاسل عن ولوج ساحته.

لقد كان قوله تعالى ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ حرباً على الوثنية والإلحاد ومرتبة في الإعتقاد ينالها من يتلفظ بها ويواظب على قراءتها كما ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: "أن قوماً عبدوا الله شكراً فتلك عبادة الأحرار"^(٣).

بحث كلامي

تبين الآية الكريمة أن الممكنات حادثة فאלله سبحانه الصانع لها والمؤثر

(١) أي الليلة الثالثة عشرة والرابعة عشرة والخامسة عشرة من الشهر القمري .

(٢) سورة الأنبياء ٢٣.

(٣) البحار ١٩٦/٦٧.

دائماً فيها وهو القديم الذي كان قبل كل شيء، ولقانون عقول البشر وأوهام الخلائق لا تحيط ببديع صنع الله وعظيم إحسانه جاء الحمد في هذه الآية مطلقاً.

والآية حصانة فكرية لعقول المسلمين لكي لا يظن الناس أن العالم مستقل في وجوده أو أنه خال من الخضوع والإنقياد لسلطان الربوبية، وهي عون لهم على التماس طرق الإيمان بإدراك أن العالم يعود في نشأته وديمومته إلى علة موجبة منفصلة عنه .

فكل موجود بغيره هو ممكن الوجود بذاته وإن العالم وما فيه لا يستطيع أن يستغني عن فضل الله وإفاضاته ورحمته في الإبقاء على أسرار الحياة وأدامة البقاء والإمسك بالسموات والأرض، وأن العالم فعل من أفعال الله عز وجل منقاد لأمره تعالى ، ولا تأثير فيه إلا الله عز وجل، وما يحدث بين المخلوقات والكائنات وفيها من تغيير إنما بأسباب من عنده تعالى ولا تجري إلا بعلمه.

ولقد إشتهر بين الفلاسفة الأقدمين أن المؤثر في الوجود مطلقاً هو الله تعالى والفيض كله منه سبحانه.

إن الربوبية المطلقة لله تشمل جميع الخلائق، وهي إحدى ركائز عقيدة التوحيد وأنه تعالى يتعاهد العالم بالإصلاح الدائم المتصل وفي ذلك منع لإنتشار الفلسفة القاصرة وتأثير العقيدة التي تنحرف عن مسار جادة الحق، وبالإسلام وانتشاره وثبات مبادئه وبالآيات المباركات التي جاءت في بيان حقيقة التوحيد ومفاهيم الربوبية أمكن التصدي للآراء ذات الزيف والبطلان ، وفي التنزيل ﴿قُلْ أَغَيَّرَ اللَّهُ أَبْنِيَّ رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ١١﴾.

بحث أخلاقي

القرآن مدرسة الإصلاح وجامعة الآداب ففيه مقومات تهذيب النفس وصيغ نبذ الرذائل وكيفية الإبتعاد عن القبائح، وتجدر الدروس فيه مركبة تتناول عدة مطالب سنوية في آن واحد ولكل منها عدة جهات مباركة وفروع.

وأصبحت (مدرسة الحمد) مثال الإرتقاء الإنساني والنقاء النفسي والصلاح النوعي العام فان بلوغ مراتب الحمد يستلزم التخلص من الشوائب وتلك مهمة شاقة لما تحتاجه من هدم وإزاحة للعوائق التي تحول دون امتلاء القلب بالشكر وتوجه النفس لقصد إبرازه على اللسان ليتحقق انشغال تام بضرورة الشكر وكيفيته وبذا تتولد ملكة نفسانية تصون الإنسان وجوارحه من إتيان الفواحش والسيئات لتشع أمامه أضواء الهداية فيستطيع التمييز بين الحق والباطل في كافة أحواله ما دام الحمد لله مصاحباً له.

وترى الحمد في الآية لم يرد بصيغة الأمر الإلهي إلى العبد بل يصدر منه طوعية وليتدبرها الإنسان ويأتي بها عن إيمان وإقرار بعظيم مقام الربوبية، والحمد إقرار بالنقص والضعف والحاجة إلى المنعم الكامل، مما يجعل الفرد خائفاً راجياً ممتنعاً عن المعصية .

بحث عرفاني

ذكر الله تعالى من أفضل منازل الدنيا وهو عنوان الشوق إلى المعشوق ولا غرابة أن يصاحب الذكر رجاء الرضا كما انه يتضمن السؤال قهراً وانطباقاً لأن الحبيب يقابله بالعطاء الجميل .

فإذا قلت يا رزاق فانه تعالى يفتح أبواب الرزق من حيث لا تحتسب لتزداد حباً وشوقاً له ، وفي التنزيل ﴿وَكَانَ مِنْ دُونِهِ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا

وَأَيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١﴾.

وإن قلت يا غفور فانه تعالى يمحو الذنوب ولا يطلع عليها الملائكة المقربون، مع أن الحمد في الأصل لطف وتوفيق منه تعالى، والحمد والثناء إرتقاء في مقامات النفس وسعي لبلوغ مقاصد البهجة العظمى وإزاحة لأدناس علائق الدنيا لتستفيق النفس وتعترف بالذنب وتغترف من المعارف وتتعلم المنافع والمضار وكيفية الرجوع إلى دار القرار.

بحث تأريخي

التأريخ مدرسة الأجيال لما فيه من الموعظة والعبرة ، واستخلاص الدروس ، وإستنتاج الأحكام وزيادة المعارف وبلوغ مراتب الحكمة، وهناك شواهد تأريخية كثيرة تدل على قدسية وموضوعية الحمد.

إلتقى الإمام علي بن الحسين عليه السلام بالخليفة عبد الملك بن مروان ليشفع لنفر كانوا في السجن ولما رآه استعظم أمره ورق لحاله وسيماء السجود وآثار كثرته بادية عليه .

فقال عبد الملك: لقد بان عليك الإجهاد ولقد سبق لك من الله الحسنى، وأنت بضعة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قريب النسب، وكيد السبب وانك لذو فضل عظيم على أهل بيتك، وذوي عصرك ولقد أوتيت من الفضل والعلم والدين والورع ما لم يؤته احد مثلك، ولا قبلك إلا من مضى من سلفك.

وبعد إن ذكر مآثر الإمام وفضله قال له الإمام: كل ما ذكرته من فضل الله سبحانه وتأييده وتوفيقه، فأين شكره على ما أنعم يا أمير المؤمنين ؟
لقد كان الجواب درساً بليغاً بلزوم شكر الله تعالى بالحكم بالعدل والإحسان والتوكيد قاعدة كلامية وهي أن تكرار الأفعال العبادية يرسخ ملكة التقوى ويمكن من سيطرتها على النفس، لقد كان الجواب نهياً عن الإنكباب على شهوات الدنيا وإغراءات الشيطان لقانون الشكر لله تعالى

نوع ذكر وسبيل رشاد.

ثم قال كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقف للصلاة حتى تتورم قدماه، ويظماً في الصيام حتى يعصب فوه، فقيل له يا رسول الله ألم يغفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر فقال صلى الله عليه وآله وسلم: أفلا أكون عبداً شكوراً.

ثم أردف: الحمد لله على ما أولى وأبلى وله الحمد في الآخرة والأولى والله لو تقطعت أعضائي وسالت مقلتا عيني على صدري لن أقوم لله جل جلاله بشكر عشر العشير من نعمة واحدة من جميع نعمه التي لا يحصيها العادون، ولا يبلغ أحد نعمة منها، على جميع حمد الحامدين، لا والله أو يراني الله لا يشغلني شيء عن شكره وذكره في ليل ولا نهار، ولا سر ولا علانية ولولا أن لأهلي علي حقاً ولسائر الناس من خاصهم وعامهم علي حقوقاً لا يسعني إلا القيام بها حسب الوسع والطاقة حتى أؤديها إليهم لرميت بطرفي إلى السماء، وبقلبي إلى الله، ثم لم ردهما حتى يقضي الله على نفسي وهو خير الحاكمين.

وبكى الإمام من خشية الله توكيداً لسعادته في التزام الإنقطاع إلى العبادة، واثراً ذلك في نفس عبد الملك وبكى وقال: شتان بين عبد طلب الآخرة وسعى لها سعيها، وبين من طلب الدنيا من أين جاءته ما له في الآخرة من خلاق، ثم استجاب له وشفعه فيمن سألته وأطلق سراحهم^(١). إذ (أقبل يسأله عن حاجاته وعما قصد له فشفعه فيمن شفع، ووصله بمال)^(٢).

علم المناسبة

(١) انظر بحار الأنوار ٦٥/٤٦.

(٢) البحار ٥٧/٤٦.

ورد لفظ الحمد لله في القرآن ثلاثاً وأربعين مرة وكلها لله تعالى، منها أربع وعشرون مرة بلفظ الحمد.

وجاءت آيات القرآن بذكر حمد الناس والملائكة وكل المخلوقات لله تعالى، وقد احتجت الملائكة بأفضليتها على الإنسان في موضوع خلافته في الأرض بأنها تسبح بحمد الله ، كما ورد في التنزيل ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ﴾^(١).

وفيه بيان لرفعة قام من يقوم بالحمد لله تعالى، مع أن الملائكة أقروا بأن تسييحهم وتنزيهم لمقام الربوبية إنما جاء بفضل الله تعالى وأنه سبحانه هو الذي هداهم للتسييح، وتلك آية في أدب العبودية عند الملائكة إذ نسبوا ما يتفاخرون به على الإنسان إلى الله تعالى وأنه نعمة منه تعالى تستحق الشكر والثناء بلحاظ أن الباء للإستعانة كما في قولك كتبت بالقلم، فهم يسبحون الله بفضله ولطفه والثناء عليه وإن نطقهم بالحمد لله طريق وسبيل إلى التسييح وتنزيه مقام الربوبية، فأجابهم الله بقوله تعالى ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾^(٢).

وعلم الله آدم الحمد والثناء عليه سبحانه فكانت أول كلمة نطق بها آدم هي الحمد لله، ليأتي تكرار المسلمين للفظ (الحمد لله) بفضل من الله أيضاً ويجعل الحمد له سبحانه بأول القرآن مع قراءة المسلمين له في كل يوم مرات متكررة

(١) سورة البقرة ٣٠.

(٢) سورة البقرة ٣٠.

وإضافة كريمة منه تعالى وهي وصف الله تعالى بأنه رب العالمين، فمع قول المسلمين الحمد لله فأنهم يقرون بأنه رب العالمين وأنه الرحمن الرحيم، ومن رحمته تعالى أن هداهم لقول ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾^(١) وجعلهم أهل التحميد أي يكثرون من حمد الله تعالى مرة بعد مرة بالحمد والذكر الحسن، ومنه صفات الله تعالى الواردة في سورة الفاتحة، والتحميد ابلغ من الحمد، وقد فاز المسلمون به بنعمة وفضل من الله تعالى.

وجاءت هذه الآية وتلاوتها في الصلاة شاهداً على هذا الفوز، وهو نعمة تستحق الشكر المتصل منهم لله تعالى، وتضمنت آيات القرآن الإخبار عن قانون من الإرادة التكوينية وهو مواظبة الخلائق كلها على الشكر والحمد لله تعالى، قال سبحانه ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾^(٢).

وفيه دليل على لزوم تعاهد الإنسان للحمد لله من باب الأولوية القطعية لإنفراد الإنسان بنعم عظيمة، فإذا كان المخلوق الأدنى من الإنسان يتعاهد تنزيهه مقام الربوبية والثناء على الله فعلى الإنسان أن يقوم بالحمد له سبحانه بالأولوية القطعية وجاءت هذه الآية لإعانة الإنسان وهدايته لهذه النعمة وبلحاظ التفسير الذاتي للقرآن فقد جاءت الآيات الأخرى لبيان معنى الربوبية المطلقة لله

(١) سورة الفاتحة ٢

(٢) سورة الإسراء ٤٤.

تعالى ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾^(١).

ومع موضوعية الحمد لله تعالى في حياة المسلمين وكثرة عدد المرات التي جاء بها في القرآن فانه جاء في سورة الفاتحة في آية إعجازية تدل على أهمية وموضوعية هذه الآية ومحيتها في أول القرآن وتلاوة المسلمين لها في الصلاة اليومية.

الصلة بين أول وآخر الآية

لقد ابتدأت الآية بالحمد والثناء على الله تعالى، وجاء الحمد مطلقاً في ذاته وموضوعه ومتعلقه، فليس من حصر للنعم وللمواضيع والعلل التي يستحق الله تعالى بها الحمد، لأن نعمه سبحانه من اللامتتهي سواء على الفرد أو على الجماعة أو عليهما معاً متحدتين.

فجاءت الآية بذكر (الحمد لله)^(٢) من غير ذكر متعلقه، وفيه دعوة للتدبر في الآيات والنعم التي أنعم الله تعالى بها على الناس عامة والمسلمين خاصة.

ليكون التفسير بالتقدير على وجوه كثيرة منها :

الأول : الحمد لله لأنه رب العالمين .

الثاني : الحمد لله رب العالمين على نعمة الخلق .

الثالث : الحمد لله رب العالمين على نعمة الهداية .

الرابع : الحمد لله رب العالمين لا شريك له .

الخامس : الحمد لله رب العالمين في النشأة الأولى والآخرة .

السادس : الحمد لله رب العالمين على النعم المتوالية .

(١) سورة سبأ ١.

(٢) سورة الفاتحة ٢ .

السابع : الحمد لله رب العالمين على هدايتنا للحمد له وحده .
الثامن : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾^(١).

التاسع : الحمد لله ﴿ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴾^(٢).

ومن الآيات إن جملة (الحمد لله) خبرية إلا أنها تفيد إنشاء الحمد وجاءت الجملة إسمية لقانون استمرار وإستدامة وتحدد الحمد ليكون مصاحباً للمسلمين في أجيالهم المتعاقبة.

ومن الآيات أن المسلمين يتلون هذه الآية في صلاتهم اليومية لتكون عهداً وصلة بينهم وبين الله عز وجل، وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ﴾^(٣) إذ يأتي الإعتصام بالقرآن بتلاوة آية الحمد وثبات المسلمين على نحو العموم المجموعي والإستغراقي في ميادين الحمد وتعاهدهم رجالاً ونساءً للحمد لله.

وجاء آخر الآية صفة لله تعالى وأنه رب العالمين ليكون الحمد والشكر لله مقترناً بالتعظيم لمقام الربوبية، وهو شاهد على إرتقاء المسلمين في المعارف الإلهية، وإقرارهم بالقدرة المطلقة لله تعالى وإحاطته علماً بالمخلوقات وأنها جميعاً مستجيبة له .

والعالمون جمع عالم، والعالم جمع لا واحد له من لفظه كالجيش، وإشتقاق العالم من العلامة لأنه يدل على صانعه ومبدعه وربّه، وقيل من العلم لأنه يدل على العلم به ولكن لفظ العالمين أعم من العقلاء وإن جاء بصيغة جمع المذكر السالم العاقل تغليياً، والمراد منه العوالم المختلفة

(١) سورة الإنعام ١.

(٢) سورة الروم ١٨.

(٣) سورة آل عمران ١٠٢.

للمخلوقات والكائنات وما في السموات والأرض.
ويتضمن هذا اللفظ الإطلاق والشمول لأنه يشمل الأنواع المختلفة التي تقع تحت كل واحد منها أجناس كثيرة تعجز الخلائق عن إحصائها، ويبعث إختتام هذه الآية بصفة التعظيم والتقديس لله تعالى الشوق في نفوس المسلمين إلى الحمد والمواظبة عليه ويجعلهم يدركون حقيقة وهي أن الله سبحانه أهل للحمد والثناء.

ومن معاني يوم الدين أنه يوم الجزاء ، وفي التنزيل ﴿يَوْمَئِذٍ يُوفِيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ﴾^(١).

قوله تعالى ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ الآية ٣

الإعراب واللغة

الرحمن صفة لله عز وجل مجرور بالكسرة وكذلك الرحيم في إعرابه، ونصبهما زيد وأبو العالية وابن السميّع وعيسى بن عمرو، ورفعهما أبو زين العقيلي والربيع بن خيثم وأبو عمران الجولي والأولى قراءتهما بالخفض وهو المرسوم في المصاحف.

في سياق الآيات

بعد الثناء على الله عز وجل وحمده بأجزل الألفاظ وأعظم المعاني والمقترن بالتسليم له تعالى بالعبودية، جاءت هذه الآية لتؤكد صفات الرحمة والرفقة والعفو لله عز وجل .

ولما أخبرت الآية السابقة عن كون الله رب العالمين، جاءت هذه الآية متممة لهذه الصفة ليكون الجمع بينهما دليلاً على انه تعالى رؤوف بالعباد، فمع إنقياد كل شيء لله تعالى فانه سبحانه يتغشى الخلائق بالرحمة، وكان هذه الآية شكر لله تعالى على الهداية للثناء عليه في الآية السابقة،

وتعليم المسلمين كيفية حمده وشكره مع التعظيم وبلغة الخشوع والخضوع. ومجموع كلمات هذه الآية والآيتين السابقتين عشر كلمات، كلها أسماء حسنى لله تعالى إلا كلمة واحدة هي ﴿الْحَمْدُ﴾ ويأتي ذكر الحمد في القرآن لله عز وجل وحده لتلحق هذه الكلمة بالأسماء الحسنى لأن المراد منها أنه تعالى الحمود على آلائه ونعمه التي لا تقدر الخلائق على إحصائها مع إشتراكها جميعاً بالحمد والثناء عليه تعالى، كما تأتي الآية التالية ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ بإرادة اسم من أسماء الله تعالى والإخبار عن عائدة ملك كل شيء يوم القيامة لله تعالى بجلاء، فكل شيء يومئذ مملوك لله تعالى. ويدل نظم الآيات على تغشي الرحمة الإلهية للخلائق في الحياة الدنيا والآخرة.

فلم تخبر الآيات عن ربوبية الله تعالى إلا بعد الإخبار عن كون الله تعالى هو الرحمن الرحيم، ولم تذكر ملكيته ليوم القيامة وعالم البعث والنشور إلا بتقديم ذات الإخبار وبآية مستقلة قائمة بذاتها، لبعث الناس للسعي لنيل رحمته تعالى في الآخرة من غير تعارض مع السعي والرجاء لنيل الرحمة في الحياة الدنيا.

ويظهر سياق هذه الآيات التداخل والملازمة بين عالم الدنيا والآخرة ويتجلى هذا التداخل في تغشيها برحمة الله وأسمائه الحسنى، وهذه الآيات من مصاديق قوله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾^(١).

فان الخوف والحزن يطرد عن المسلمين لأنهم في رحمة الله، فتكون واقية لهم من العذاب ومقدماته وأسبابه، ومن رحمة الله تعالى بالمسلمين هدايتهم إلى الإيمان وإتباع النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم

والتصديق بالمعجزات التي جاء بها ومعجزات الأنبياء السابقين، ووصف الله تعالى بصفة الرحمن الرحيم بعد الحمد له سبحانه ببيان لموضوعية الحمد وأن الله سبحانه أهل للثناء والحمد للرحمة المطلقة التي يتغشى الخلائق بها.

إعجاز الآية

في الآية دليل مصاحبة الرحمة المتصلة لحاجة الإنسان الدائمة وبشارة العفو والمغفرة، واقتران الحمد من العبد مع الرحمة من عند الله يدل على نوع ملازمة بينهما وأن المواظبة على الحمد والثناء على الله عز وجل مفتاح تلقي الرحمة.

ومن إعجاز الآية أن صفات الرحمة هي التي تطل علينا في فاتحة الكتاب وهو فضل مركب لتضمن السورة لها، ولموضع هذه السورة وموضوعيتها في العبادة.

وتكرار صفة (الرحمن الرحيم) إخبار إلهي عن تغشي الرحمة للناس بفضل من الله تعالى وليس عن إستحقاق منهم، وفيها رحمة إضافية للمسلمين، لأن الرحمن صفة تشمل الناس جميعاً في الدنيا، أما الرحيم فاسم عام لصفة خاصة فهو خاص بالمؤمنين ويستوعب الدنيا والآخرة .

فالآية تدعو الناس جميعاً إلى تلمس شآبيب رحمته التي تأتي دفعة وفيها إشارة إلى أن الدنيا خلقت للرحمة، ولتكون مصداقاً واقعياً لرحمته تعالى.

ويمكن أن نسمي هذه الآية آية "الرحمن الرحيم" وهذه هي

الآية الوحيدة في القرآن التي يكون هذان الإسمان مجموع كلماتها .

الآية سلاح

تبعث الآية السكينة والأمن في النفس الإيمانية، وتحث على قراءة سورة الفاتحة وتكرارها، وهي مدرسة في اللطف الإلهي بتقدم رحمة الله تعالى على غضبه، وهي حجاب دون غضبه.

وفي الحديث القدسي سبقت رحمتي غضبي^(١).

والآية سلاح ملازم للمؤمن بل للناس جميعاً ولكن بمراتب متفاوتة والمسلم ينتفع منه في الدارين، وتنفي الآية اليأس وتطرد القنوط عن القلوب المنكسرة.

وتبين هذه الآية حاجة الخلائق عامة والناس خاصة إلى رحمة الله تعالى، وتفضله بقضاء حاجة الإنسان بأحسن وأتم وجه، إذ إن الله تعالى يتغشاه بالرحمة في النشأتين وليس من أحد من الخلائق يستطيع أن يواظب على رحمة غيره على نحو الإستمرار والدوام والإنسان الذي يرحم غيره تلازمه الحاجة إلى رحمة الله.

فجاءت هذه الآية لتبين سعة رحمة الله بالخلائق كلها، وفيه دعوة للإنسان للجوء إليه تعالى في السراء والضراء.

وهذه الآية سلاح وقائي ودفاعي للإنسان وسبيل للنجاة والفوز، فكل سلاح مادي عند الإنسان يتخلف عن نصرته أحياناً ويقصر عن الذب عن صاحبه، وقد لا ينتفع منه الإنسان بما ينجيه، أما هذه الآية فهي سلاح مصاحب للإنسان يطرد عنه الغفلة، ويصونه في ليله ونهاره.

فجاءت تلاوتها في الصلاة لترسيخ مفاهيم التوحيد في أذهان المسلمين، ويحمل الإنسان السيف ونحوه لدفع عدوه وإيقاع الضرر به، أما هذه الآية فهي سلاح يدفع عن الإنسان الضرر والأذى الظاهر والخفي من غير أن يلحق بعدوه الضرر والأذى، أما رجوع كيد الكفار إلى أنفسهم فتدل عليه آيات أخرى بلحاظ تبدل

الموضوع والحكم كما في قوله تعالى ﴿وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾^(١)، وفيه دلالة على تغشي الرحمة الإلهية للناس جميعاً، وعدم نزول الغضب الإلهي إلا بعد الجحود والإعراض عن رحمة الله.

(١) سورة آل عمران ٦٩ .

مفهوم الآية

جاءت هذه الآية مستقلة لتبعث في نفوس المسلمين السكينة والطمأنينة ولتكون جزاء عاجلاً على الإنتماء العقائدي للإسلام مع قانون التسليم بأن القرآن من عند الله تعالى.

ومن مفاهيمها أنها بشارة وأمان يوم القيامة لمن يتلوها وهو مؤمن، وشهادة وإقرار باستحقاق الخالق سبحانه الحمد لربوبيته المطلقة وصفاته الحسنى وعظيم إحسانه وإتصال نعمه ودوام رحمته.

وإجتماع صفتي الرحمن الرحيم عنوان جامع للرحمة والمغفرة والعفو والرفقة والرزق والهداية، وفي الآية استعانة بالله من غضبه وبطشه وإنتقامه .

وتتضمن الآية دعوة الناس للتدبر في مصاديق وأفراد رحمة الله تعالى بهم في الدنيا، والنعم التي أنعمها عليهم، وحلمه ولطفه بهم، وهي وسيلة لجذب الناس للإيمان، وإخبار بأن التكاليف العبادية هي من رحمة الله تعالى بالناس، فإن قيل في أداء التكاليف تعب وعناء وجهد فكيف تكون من رحمة الله.

والجواب من وجوه:

الأول: قانون التكاليف إمتحان مقصور على أيام الحياة الدنيا.

الثاني: قانون تعقب البركة والرحمة لأداء التكاليف ، قال تعالى

﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾^(١).

الثالث: قانون الثواب العظيم والأجر الجزيل في الآخرة على أداء

التكاليف.

الرابع: من رحمة الله تعالى أنه يعطي الكثير بالقليل، فقيام العبد بأداء التكليف من القليل في مدته وفعله، أما ما يناله عليه العبد من الجزاء فهو أكثر من أن يحصى، قال تعالى ﴿وَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾^(١).

الخامس: مع أداء التكليف تترى النعم الإلهية على الفرد والجماعة، وينتفع من أدائها الموجود والمعدوم، فيقوم الشاب بأداء الصلاة اليومية فيأتي الثواب إلى والديه وآبائه الأحياء منهم والأموات ويكون سبباً لصلاح ذريته من بعده، وباباً لنزول الرحمة عليه، وهذا التعدد في مواضع الثواب على الأداء الواحد من مصاديق وإطلاقات قوله تعالى ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾.

إنفاذات الآية

جاءت الآية باسمين من أسماء الله تعالى، ويؤكدان منفردين ومجتمعين على سعة رحمة الله تعالى، وإقتران الربوبية بالرحمة، وجاء الوصف على نحو الإطلاق والاستغراق الشامل لأمر:
الأول: قانون تغشي رحمة الله للخلائق كلها.

الثاني: تسع رحمة الله المواضيع والأحكام المختلفة.

الثالث: قانون عدم إنحصار رحمة الله بالحياة الدنيا، بل تشمل العوالم المتعاقبة بعرض واحد فتشمل رحمته أيضاً عالم البرزخ والنشور والحساب، مع إختصاصها في الآخرة بمن يؤمن بالله ويتلو آياته.

وهذه الآية سياحة في عالم الملكوت، وتأخذ بيد المسلم في عالم الصفات الحسنى وما في كل واحدة منها من الدلالة على القدرة الإلهية وعظيم الفضل الإلهي، وهي إشراقة تطل على النفوس فتملأها نوراً وبهاء لما فيها من البشارة والوعد الكريم، إلى جانب ملازمتها للعبد في أطوار حياته كلها، فهي حاضرة عند النعمة، وعند البلاء والشدة، لذا جاء

قوله تعالى ﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾^(١)، لبيان التسليم والرضا برحمة الله تعالى المصاحبة للمصيبة والمتعقبة لها. ولا تكون الآية سبباً للتفريط والتقصير في الواجبات لأن الله تعالى هو الرحمن الرحيم، ولإدراك المسلمين لحقيقة وهي أن التكاليف والواجبات واجتنب النواهي من رحمة الله تعالى بالعباد، بالإضافة الى رحمته تعالى بتيسير أداء الواجبات وإعانة المسلمين عليها، ولغة الإنذارات والوعيد على تركها والتفريط بها.

الآية لطف

آية قرآنية كاملة تتكون من اسمين من أسماء الله الحسنى ليس معهما حرف زائد أو كلمة أخرى، وتنجذب النفوس لكل منهما وتغرق في جمالهما وجلالهما ومضامينهما القدسية، وما يدلان عليه من التذكير بنعم الله على العبد في نهاره وليله.

ومن النعم الإلهية نزول القرآن وتضمنه هذه الآية الكريمة وما فيها من البشارة والوعد الكريم، والدعوة إلى الثناء عليه تعالى، ومن رحمته تعالى أن جعل المسلم يذكر الله كل يوم بصفة الرحمن والرحيم ليكونا واقية له من الآفات والهلكات، وحرزاً من الغفلة والجهالة.

الصلة بين أول وآخر الآية

جمعت هذه الآية بين اسمين من أسماء الله تعالى، وكثيرة هي الآيات التي تجمع بين اسمين من أسمائه سبحانه وفيها شاهد على بديع صنعه، وثنائه على نفسه، ودعوة للناس جميعاً للتسليم بربوبيته والإنقياد لأوامره، ولكن هذه الآية تختص بخصوصية من وجهين:

الأول: إنحصار كلماتها باسمين من أسماء الله تعالى.

الثاني: مجيء الإسمين في موضوع الرحمة وهي أهم ما يحتاجه الناس والخلائق جميعاً.

وجاء اسم (الرحمن) في القرآن سبعاً وخمسين مرة، و(الرحيم) مائة وخمس عشرة مرة، واجتمعا في خمس آيات تتضمن معاني التوحيد وأخبار التنزيل وإحاطة الله تعالى علماً بكل شيء .

بالإضافة إلى آيات البسملة في أوائل السور باستثناء سورة براءة. والآية محل البحث هي الوحيدة التي تنحصر كلماتها بالإسمين المباركين لتكون آية وموعظة ومدرسة تدل على حضور رحمته تعالى في كل الأمور.

وجاءت صفة (الرحمن) على وزن فعلان لإرادة الكثرة والتعدد، لأن رحمة الله وسعت كل شيء، أما الرحيم فجاء خاصاً بالمؤمنين في الدنيا والآخرة ليتضمن البشارة والوعد الكريم.

وحكى الأزهري عن أبي العباس في قوله (الرحمن الرحيم) : جمع بينهما لأن الرحمن عبراني والرحيم عربي ، وأنشد لجرير :
لن تدركوا المجد أو تشروا عباءكم
بالخز أو تجعلوا الينبوت ضميرانا

أو تتركون إلى القسين هجرتكم

ومسحكم صلبهم رحمان قربانا^(١)

ولا أصل لهذه القسمة، وكلا الاسمين عريان لوحدة الإشتقاق من الرحمة كما يقال نديم وندمان، والرحمة العطف والإحسان والرزق والنماء والبركة، وتدل الآية على توالي أسباب الرحمة على المسلمين من غير ان

يلحقهم ضرر أو أذى، قال تعالى ﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنَّا بَعْدَ ضَرَاءٍ﴾^(١)، أي سعة وخصباً بعد جذب، أو فرجاً بعد ضيق، ورخاء بعد شدة، قال تعالى ﴿وَهُوَ الَّذِي يَنْزِلُ الْغَيْثَ مِنَّا بَعْدَ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَكِيلُ الْحَمِيدُ﴾^(٢).

وجاء اجتماع الاسمين لبيان فضل الله تعالى على المسلمين بحجب أسباب الضيق والشدة عنهم، وبلحاظ العطف على وحدة السياق مع الآية السابقة فإن هذه الآية جاءت لتوكيد الثناء على الله تعالى من وجوه:

الأول: إن الله تعالى هو أهل أن يحمد في قوله تعالى ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ لأنه رب العالمين ولعجز الخلائق عن تعداد نعمه ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾^(٣).

الثاني: قانون إقتران الربوبية بالرحمة والرفقة.

الثالث: بشارة دوام عالم الخلق والإمكان، لأن الرحمة تتغشاه.

الرابع: قانون إنفراد الله تعالى بالرحمة المطلقة.

الخامس: إن الله تعالى خلق الخلائق ليرحمها ويرأف بها.

السادس: قانون تنمية ملكة الرحمة في قلوب المسلمين.

السابع: في الآية إخبار عن إمهال الله تعالى للكافرين والمشركين لأن

الخلائق جميعها تعيش في كنف رحمته.

(١) سورة يونس ٢١.

(٢) سورة الشورى ٢٨.

(٣) سورة إبراهيم ٣٤.

الثامن: الآية دعوة للإستغفار والإنابة، ومناسبة لطرد اليأس والقنوط من رحمة الله، فلا بد أن تدرك الإنسان إفاضات صفة (الرحمن) أو (الرحيم) أو هما معاً.

ومن وجوه الجمع بين الآيتين إفادة الثناء بصيغ متعددة:

الأولى: الحمد لله رب العالمين الرحمن.

الثانية: الحمد لله الرحمن، لأن رحمة الله المطلقة تستحق الحمد

والثناء.

الثالثة: الحمد لله الرحيم لأنه تعالى رحيم بالمؤمنين، وإن سعة ملكه لا تمنعه من إختصاص المؤمنين بأفراد ومصاديق خاصة من الرحمة، بأن يرحمهم الله تعالى بآيات من الرأفة والعطف كما أن خروجهم إلى الناس رحمة بهم وبالناس جميعاً، وهو من مصاديق رحمته تعالى، قال تعالى ﴿هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾^(١).

من غايات الآية

الآية رحمة بالمسلمين وإخبار عن رحمة الله تعالى بالناس جميعاً، فقد يستغرب بعضهم نزول النعم على الكافر والجاحد، فتأتي هذه الآية لتخبر عن تغشي رحمته تعالى للخلائق كلها، ومن رحمته إمهال الناس إلى يوم الحساب.

وتبين الآية سراً من أسرار العبودية لله تعالى، وهو إقتران الشكر له تعالى بتعظيمه والإقرار بالتقصير والقصور عن بلوغ أدنى درجات الشكر له تعالى لأن رحمته للعباد متجددة ومستمرة، وهي أكبر وأعم من أن يحيط بها حمد قولِي أو فعلي.

ومن اللطف الإلهي أن يقبل الله من العباد القليل من الشكر، ومن

رحمته تعالى أن يكون هذا القليل كثيراً في ميزان الحسنات.
لقد أراد الله تعالى للمسلمين تلاوة هذه الآية كل يوم عدة مرات في الصلاة على نحو الوجوب لتكون مدرسة كلامية، وتأديباً لهم ولغيرهم من الناس لما تبعته من الضياء، وما تدخله على النفوس من السكينة والرجاء والبشارة والأمل .

ففي كل يوم يتوجه المسلمون الى الله تعالى بالمدح والثناء وبوصفه أنه الرحمن الرحيم، وتتضمن تلاوة هذه الآية أموراً:

الأول: صبغة الدعاء والمسألة لحوائج الدنيا والآخرة، وكأن التلاوة تفيد معنيين:

الأول: اللهم أنت الرحمن فارحمني.

الثاني: اللهم أنت الرحيم فارحمني في الدنيا والآخرة.

الثاني: قانون اللجوء إلى الله تعالى للأمن والسلامة من المهالك والآفات.

الثالث: قانون تلاوة ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾^(١) حرز للوقاية من العذاب الأليم في الآخرة، والسلامة من الغضب الإلهي.

الرابع: تلاوة الآية رجاء نزول البركة والخير على الفرد والجماعة والأمة.

ولقد فاز المسلمون بتلاوة هذه الآية باعتبارها من فضل الله، وشاهداً على رحمته ورأفته تعالى بالناس جميعاً، وفيها دعوة للإنابة والتوبة وتفضله تعالى بقبول التوبة .

وتمنع الآية من تسرب القنوط إلى نفس المسلم في أمور وحاجات الدنيا والآخرة فالله تعالى رب العالمين وييده تعالى مقاليد الأمور وهو الرحمن الرحيم الذي تترى نعمه على الناس في ميادين الحياة كلها.

ومن رحمة الله بالناس بعثة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وهدايتهم بنبوته والقرآن إلى سواء السبيل، وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾^(١).

التفسير

لما جاء الحمد والثناء على الله عز وجل مع صفة الربوبية المطلقة على الخلائق جاءت هذه الآية المباركة لبيان ماهية هذه الربوبية وان قوامها الرحمة والرأفة بالخلائق سواء في علة الخلق والتكوين أو في تعاهد الكون وأنظمة سيره وما كتب الله على نفسه من الرحمة في التصرف بشؤون الخلائق وإصلاح أمورها.

ومن أهم مصاديق الرحمة الإلهية في الحياة الدنيا تربية وأمهال الناس وعدم المبادرة إلى مؤاخذتهم بما يرتكبون من سيئ الأعمال مع إستحقاقهم للعقاب.

وقد أثار بعضهم مسألة التكرار للآية بلحاظ أن ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ آية من سورة الفاتحة و(الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ) شطر منها، ويجاب عليه بعدة وجوه منها:

الأول: تضمنت الآية فائدة إضافية أعم من مسألة التكرار.

الثاني: ورود الرحمة بوجهيها العام والخاص مع عنوان الربوبية وبلغة الثناء توكيد لإستمرار الصلة بين الخالق والكائنات ومنها الناس .

وبقاء تلك الصلة قائمة وفاعلة في كل حال وفي كل زمان .

ولكي يطمئن المؤمنون لذكره تعالى وتسكن النفوس عند إستحضار عظيم سلطانه ودوام ربوبيته وفي التنزيل ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾^(٢).

ولبيان تعاهد الله للعالمين ولمواجهة النظريات الإلحادية وتلك التي

(١) سورة الأنبياء ١٠٧.

(٢) سورة الرعد ٢٨.

غلب عليها طابع الغفلة، وعدم فهم أسرار الطبيعة وواقع نظام التكوين. فارسطو مثلاً الذي ينظر له كمدرسة فلسفية متطورة في زمانه يقول بان الله اوجد هذا الكون ثم لم يعره اهتماماً لأنه أرفع وأعز من أن يفكر بما هو دون ذلك، انه لا يفكر إلا في نفسه، (سبحانه وتعالى عما يقولون علواً كبيراً)^(١).

الثالث: إن تكرار وذكر صفة الله الدالة على الرحمة والرأفة رحمة متجددة وشعبة مستحدثة منها ، وباب فتحه الله لأهل الإسلام خاصة، وهو حجة على الكفار.

الرابع: لو كان قوله تعالى (الرحمن الرحيم) تكراراً مجرداً من أية فهو زيادة في المعنى والمفهوم وهو نعمة إلهية ورحمة نلتقاها باستبشار فكيف وهي تحمل مضامين سامية ومعاني مباركة مستحدثة معها، منها ما يتوصل إليه المفسرون، ومنها ما نعجز عن بلوغ مراميهِ تقصيراً وقصوراً.

الخامس: إن وصف الله عز وجل بالرحمة بعد الحمد والإقرار له بالربوبية ثناء حسن ومدح وشكر مركب لينال العبد فيه ثواباً أوفى.

السادس: ورد عن عبد الله بن عمر "أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حدثهم أن عبداً من عباد الله قال: يا رب لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك، فعضلت الملكين فلم يدريا كيف يكتبانها فصعدا إلى الله فقالا: يا ربنا ان عبداً قد قال مقالة لا ندرى كيف نكتبها، قال الله عز وجل وهو اعلم بما قال عبده: وما الذي قال عبدي؟

قالا: يا رب انه قال: يا رب لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك، فقال الله لهما: اكتبها كما قال عبدي حتى يلقاني فأجزيه بها".

السابع: ورد ذكر (الرحمن الرحيم) في البسملة بالمعنى العام صفتين للذات الأقدس تبركاً وتيمناً وتزلفاً إلى الله تعالى عند افتتاح كل سورة، وفي المقام جاءت عنواناً وبياناً لإستحقاقه المدح وتعلق بعض جوانب الحمد

بهما في خصوصية تظهر الفرق، وتوجب الاختلاف، وتبدد القول بالتكرار.

إن إقتران صفة الرحمة بالربوبية دعوة للتوجه إلى الله عز وجل في سؤال الحوائج وأمل متجدد، وحالة من الرضا تملأ النفوس ونزوع إلى الدعاء لطلب الحاجات صغيرها وكبيرها. وكما في الحديث إن الله عز وجل قال لموسى: "يا موسى سلني عن ملح قدرك وعلف شاتك"^(١).

إن الحمد والثناء والشكر لله بصفة الربوبية وما يلزمها من عناوين الرحمة والرفقة إقرار بنعمه تعالى الظاهرة والباطنة وتفضله بتعاهد الناس باستمرار الحياة وإتصال الرزق ودفع البلاء والحفظ من الآفات.

روى ذو النون^(٢) أنه قال: كنت في البيت إذ وقعت ولولة في قلبي، وصرت بحيث ما ملكت نفسي فخرجت من البيت وأنتهيت إلى شط النيل، فرأيت عقرباً قوياً يعدو فتبعته فوصل إلى طرف النيل فرأيت ضفدعاً واقفاً على طرف الوادي، فوثب العقرب على ظهر الضفدع واخذ الضفدع يسبح ويذهب فركبت السفينة وتبعته، فوصل الضفدع إلى الطرف الآخر من النيل ونزل العقرب من ظهره واخذ يعدو فتبعته فرأيت شاباً نائماً تحت شجرة، ورأيت أفعى يقصده فلما قربت الأفعى من ذلك الشاب وصل العقرب إلى الأفعى، فوثب العقرب على الأفعى فلدغه والأفعى أيضاً لدغ العقرب، فماتا معاً وسلم ذلك الإنسان منهما^(٣).

وتتغشى رحمة الله تعالى عباده وهي قرية من أهل الصلاح ومن نعمه عز وجل على المخلوقات إن الرحمة صفة ثابتة من صفاته فهو الجواد

(١) تفسير الرازي ٢١٤/١.

(٢) ذو النون المصري ثوبان بن إبراهيم، أحد الزهاد المشهورين من أهل مصر نوبي الأصل من الموالي. إتهمه المتوكل العباسي بالزندقة فاستدعاه وبعد أن سمع كلامه أطلقه فرجع إلى مصر وتوفي فيها.

(٣) مفاتيح الغيب ٢٣٣/١.

المطلق الذي يفتر كل شيء في وجوده إليه، والآية تأديب للمسلمين وزرع للإيمان في قلوبهم وجعلها تميل إلى عشق المعبود والإشتغال بمناجاته، وهي بيان لقانون الإسلام دين الرحمة.

إن تكرار (الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ) في السورة التي يفتح بها القرآن والتي تنفرد بمائز كريم وهو وجوب قراءة كل مسلم ومسلمة سبع عشرة مرة في اليوم مدرسة أخلاقية تظهر موضوعية الرحمة والرافة في الإسلام وهي حجة على الأمم الأخرى للزوم التفكير والتدبر واجتناب التحريف ومحاولات تشويه الإسلام، والتركيز على أثر السيف في إنتشاره .
وهذه الآية تثبت أن الدعوة إلى القرآن فرع الرحمة الإلهية وان منافعه أكثر من أن تحصى.

إن جهل الآخرين بحقيقة الدين الإسلامي وان تعددت أسبابه وتوزعت مسؤولياته يجب إن لا يؤدي إلى التعجل في النقد، أو مدح الضلالة وليس القرآن وحده جاء بصفات العظمة والسلطان لله عز وجل وهو حق ورحمة أيضاً، كما أن مقامات ورودها في القرآن قليلة بالقياس إلى صفات الرحمة والرافة، فصفة الجبار والمتكبر لم ترد في القرآن صفة لله عز وجل الا مرة واحدة ومسبوقة بصفات الرحمة في قوله تعالى ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾^(١).

الفرق بين [الرحمن] و[الرحيم]

في بيان الفرق بين صفة الرحمن والرحيم وجوه منها :
الأول : الرحمن هو الذي تتصف ذاته بالرحمة، فلأن تعالى هو الخالق والمبدع والمنشأ فهو الرحمن، والرحيم صفة له تعالى لأنه يتغشى

الخلائق برحمة مستديمة وهذه الرحمة متعددة الوجوه والأبعاد والكيفيات، فهو الذي يجيب الدعاء ويدفع الأسقام والبلاء ويغفر الذنوب والسيئات.

الثاني : الرحمن صفة لله عز وجل لتفضله بالإنعام بجلال النعم وعظيم المنن، وهو الرحيم لتفضله بدقائق النعم.

الثالث : الله هو الرحمن الذي خلق النعم في أصولها كخلقه للإنسان وللموجودات الأساسية في الكون مما يتعذر على جميع الخلائق الإتيان بها أو التمكن من المحافظة على استمرار وجودها وإستقرارها في مواضعها، فماذا يحدث لو سقط جرم من السماء على الأرض.

والله هو الرحيم لأنه أنزل المطر وأرسل الرياح وجعل خلق الإنسان في أحسن تقويم وسخر له أسباب القدرة على العيش.

الرابع : الله الرحمن لأنه نفخ الروح في آدم وجعل الأرض مسكناً للناس، والرحيم لأنه تعاهدهم ونظم معاشهم.

الخامس : الرحمن لواسع رحمته، فتشمل البر والفاجر والمؤمن والكافر في الحياة الدنيا، والرحيم لإتصال رحمته وشمولها للمؤمنين في الدنيا والآخرة.

السادس : الرحمن اسم يؤكد عظيم سلطان وعزة الله واستيلائه على كل ما دق وكبر وعلو عرشه، وفي بيانه وتوكيده رحمة للخلائق في خضوعها لربوبيته وانقيادها لأمره وعدم تعدي بعضها على بعض.

السابع : هو الرحمن الذي ينتقم من أهل البغي والفساد، وفي هذا الإنتقام رحمة وحفظ لبني الإنسان وارشادهم لحكم الشريعة وسيرة العقلاء.

الثامن : هو الرحيم الذي يرأف بعباده ويأخذهم بلطف ويعفو عن سيئاتهم ويرزقهم ابتداءً، ومن غير إستحقاق ويقربهم إلى منازل التقوى.

التاسع : الرحمن صفة لله تعالى لربوبيته المطلقة ودليل وحدانيته وهو ظاهر شواهد كثيرة في القرآن منها ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾

﴿^(١)﴾، وقوله تعالى ﴿وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾^(٢)، وهو الرحيم الذي فتح للعباد باب الدعاء والمسألة، ولم يغلق أبواب التوبة، بل حثهم عليها وجعل رحمته قريبة منهم.

قانون سعة وتعدد رحمة الله

لقد ورد في الحديث "أن لله عز وجل مائة رحمة انزل منها رحمة واحدة بين الجن والإنس والبهائم والهوام فيها يتعاطفون وبها يتراحمون وآخر تسعاً وتسعين رحمة".

ويمكن النظر في مضامين الحديث بخصوص رحمته في الآخرة بالمؤمنين وبين أسمائه تعالى التي هي تسعة وتسعون اسماً لأنهم أهل معرفة باسمه وهم الذين حملوا في الدنيا لواء التوحيد وأدوا وظائف العبودية، وإن الكافر لا ينتفع إلا من رحمة الله تعالى في الدنيا ولأنه جحد ولم يؤد ما افترض عليه من واجبات العبودية وأفعال الطاعة، ورحمة الله الواسعة في الآخرة تكون لأهل الإيمان والمبادرين إلى التوبة.

وحكي عن عمران بن حصين قال: "كان في عهد النبي صلى الله عليه وآله وسلم شاب فيه إتراف ورهق، وكان له أب يزجره فلا يزدرج فلما فارق الدنيا لم يصل عليه أبوه ولم يصلح من تجهيزه ما ينبغي أن يفعله . فلما جن عليه الليل رأى ابنه في المنام في قصر على سرير يجل حسنها عن الوصف وعليه حلل خضر ووجهه يتهلل إشراقاً فسأله عن حاله .

فقال: لما بلغت روعي التراقي ندمت على ما سلف مني ولم أر منك إشفاقاً ورحمة فقدمت على ربي مجفواً مهجوراً يبرأ مني ولم يرحمني أقرب الناس مني سبياً وأخصهم بي نسباً، فرحمني ربي ولم يقنطني من رحمته فأدخلني هذه الروضة كما ترى".

ومن رحمة الله تعالى أن أرسل محمداً صلى الله عليه وآله وسلم

(١) سورة طه ٥.

(٢) سورة مريم ٩١.

رحمة للعالمين ، فهو سبحانه رحيم بالواسطة وبلا واسطة ، ووجوه رحمته متعددة تشمل الحياة الدنيا والآخرة ، والنبوة من أهم مصاديق الرحمة.

إن إطلاق صفة الرحمة لله تعالى وعلى نحو التعدد والتداخل "الرحمن الرحيم" بشارة العفو والمغفرة وعدم القنوط من رحمته تعالى بعد الموت .

لذا ورد عن النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم : "إذا مات ابن آدم انقطع عمله من الدنيا الا من ثلاث صدقة جارية ، او علم ينتفع به من بعده ، او ولد صالح يدعو له"^(١).

علم المناسبة

لقد ورد لفظ (الرحمن الرحيم) في البسملة ، وفي هذه الآية لكريمة وجاء هذان الاسمان من الأسماء الحسنى في مواضع من القرآن:

الأول: قوله تعالى ﴿وَالْحُكْمُ لِلَّهِ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾^(٢) ، وفيه دلالة على الملازمة بين إحصار الربوبية بالله تعالى وأنه هو الرحمن الرحيم ، وانه تعالى لا يظلم الخلائق بل يتغشاهم برحمته ، وليس من حاجب أو برزخ دون وصول رحمته للخلائق جميعاً ، فقد يكون عند شخص غل على آخر ويتمنى كل واحد منهما نزول الضرر والبلاء بصاحبه ، ولكن رحمة الله تتغشاهما معاً ، ولا يستطيع أحدهما منعها من الوصول إلى الآخر ، وقد يمنع سلطان أو غني نواله وعطاءه عمن اعتاد عليه.

فتأتي هذه الآية للإخبار بان رحمة الله عز وجل دائمة ومتصلة ولا يستطيع احد حجبها ، وفيه دعوة للجوء إليه تعالى.

(١) تفسير ابن كثير ٢٤٢/١.

(٢) سورة البقرة ١٦٣.

الثاني: قوله تعالى ﴿إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِاسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾^(١)، أي أن كتاب سليمان عليه السلام إلى بلقيس ملكة سبأ مصدر بسم الله، وفيه بيان للدعوة إلى الإسلام، والإخبار على لزوم الإقرار بالوحدانية لله تعالى، وكانت كتب الأنبياء جملاً وخالية من الإطالة والتفصيل لتوكيد حقيقة وهي أن الإيمان بسيط جلي واضح.

وتؤكد الآية ذكر الأنبياء لصفة الرحمن الرحيم مع التسمية لبعث الأمل في نفوس الملوك والناس جميعاً بالتوبة والإنابة، وورثت بلقيس الملك عن أبيها، وقيل ولده أربعون ملكاً، ولكنه لم يعقب غيرها، (وكانت هي وقومها مجوساً يعبدون الشمس، وكان أهل مشورتها ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً كل واحد على عشرة آلاف)^(٢).

وجاءت دعوة سليمان عليه السلام لهم جميعاً بما ورد في التنزيل ﴿أَلَّا تَعْلَمُوا عَلَيَّ وَأُتُونِي مُسْلِمِينَ﴾^(٣).

ليكون إفتتاح الكتاب باسم الله وذكر صفتي (الرحمن الرحيم) له سبحانه سبباً لبعث السكينة في قلوب الذين تتوجه إليهم الدعوة ومنع النفس الغضبية والشهوية من الإستحواذ عليهم والتغلب على جوارحهم وأقوالهم وأفعالهم.

وورد قوله تعالى ﴿بِاسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا﴾^(٤)، بذكر التسمية من قبل نوح عليه السلام حينما ركب ومن آمن معه في السفينة التي صنعها بيده في

(١) سورة النمل ٣٠ .

(٢) الكشاف ١٤٤/٣ .

(٣) سورة النمل ٣١ .

(٤) سورة هود ٤١ .

البر قبل الطوفان الذي حل بقومه، ولم يذكر نوح صفة (الرحمن الرحيم) مع التسمية، وفيه احتمالان:

الأول: جاءت الآية على نحو الاختصار والحذف والتقدير (إركبوا فيها بسم الله الرحمن الرحيم مجراها ومرساها).

الثاني: ليس في الآية حذف وإن نوحاً عليه السلام اكتفى بذكر بسم الله أي متبركين وذاكرين اسم الله على السفينة في رحلتها الشاقة والطويلة.

والصحيح هو الثاني لوجوه:

الأول: السفينة ذاتها رحمة من عند الله.

الثاني: إن نوحاً لم يصنعها إلا بأمر من الله تعالى، قال سبحانه ﴿وَاصْنَعُ الْفُلَ بِأَعْيُنِنَا﴾^(١).

الثالث: كفاية ذكر اسم الله على الفعل، وكانوا إذا أرادوا أن تجري السفينة قالوا: بسم الله مجراها، وإذا أرادوا أن تقف قالوا: بسم الله مرساها فتقف.

الرابع: مع كفاية المعنى الظاهر من اللفظ لا تصل النوبة إلى تقدير محذوف.

الخامس: جاءت خاتمة الآية حكاية عن نوح عليه السلام بالتوكيد بأن الله عز وجل هو الغفور الرحيم ﴿وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِاسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾^(٢).

وفيه دعوة للإسلام والإخبار عن وجوه:

الأول: قانون المواظبة على ذكر اسم الله .

(١) سورة هود ٣٦ .

(٢) سورة هود ٤١ .

الثاني : قانون الذكر رحمة ومجلبة للمغفرة .

الثالث : قانون ذكر اسم الله سبب للنجاة من الآفات والهلكات.

الرابع : قانون ذكر اسم الله موضوع للصالح ودوام عمارة الإنسان للأرض.

قوله تعالى ﴿مَالِكِ يَوْمَ الدِّينِ﴾ الآية ٤

القراءة والإعراب واللغة

مالك: صفة لله مجرور وعلامة جره الكسرة في آخره وهو مضاف.
يوم: مضاف إليه مجرور وعلامة جره الكسرة في آخره وهو مضاف.
الدين: مضاف إليه مجرور وعلامة جره الكسرة في آخره.
وفي قراءتها وجوه:

الأول: ذكر ابن خالويه أن انس بن مالك قرأ ﴿مَلِكِ يَوْمَ الدِّينِ﴾ جعله فعلاً ماضياً ونصب يوم مفعولاً به^(١)، وقيل هي قراءة الإمام أبي حنيفة وقرأها جبير بن مطعم وأبو عاصم عبيد بن عمير الليثي.
وقال ابن عطية: هذه قراءة الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام.
وقال أيضاً أنها قراءة الحسن البصري ويحيى بن يعمر.
الثاني: قرأ انس بن مالك وأبو نوفل عمرو بن مسلم البصري ﴿مَلِكِ يَوْمَ الدِّينِ﴾ بنصب الكاف من غير ألف.
الثالث: روي أن سعد بن أبي وقاص وعائشة قرءا ملك، برفع الكاف.

الرابع: وروي عن أبي هريرة ثلاث قراءات مالك يوم الدين على النداء المضاف، مالك يوم الدين، ملك يوم الدين على وزن سهل، وقرأها الجحدري ورواها الجعفي وعبد الوارث عن أبي عمرو وهي لغة بكر بن وائل، وإنما نزل القرآن بلغة قريش مالك يوم الدين بالرفع والإضافة، وقرأها أيضاً أبو رجاء العطاردي.
الخامس: روى الحلبي القراءة أعلاه عن الإمام جعفر الصادق عليه

السلام.

السادس: بالإسناد عن داود بن فرقد قال: "سمعت الصادق عليه السلام يقرأ ما لا أحصي ﴿ملك يوم الدين﴾"^(١).

وتصح القراءة في الصلاة على الوجهين (ملك يوم الدين) (مالك يوم الدين) والأخير هو الأولى لأنه المرسوم في المصاحف ولقاعدة زيادة المباني تفيد زيادة المعاني.

السابع: وقرأ ملك بكسر الميم على وزن عجل أبو عثمان والشعبي وعطية.

الثامن: وقرأ (مالك) بالنصب الأعمش وله قراءة أخرى سيرد ذكرها وقرأ به ابن السميع وعثمان بن أبي سليمان وعبد الملك قاضي الهند، وذكر ابن عطية أنها قراءة عمر بن عبد العزيز وأبي صالح السمان.

التاسع: روى ابن عاصم عن اليماني مالكا بالنصب والتنوين. العاشر: وقرأ مالك برفع الكاف والتنوين ونصب اليوم، روي عن خلف وابن هشام وأبي عبيد وأبي حاتم.

الحادي عشر: قرأ (مالك) بالإمالة البليغة يحيى بن يعمر وأيوب السخيتاني^(٢) وبين بين قتيبة بن مهران عن الكسائي^(٣)، والحجازيون لا يملون إلا قليلاً، وقال أبو علي الفارسي: لم يمل أحد، وعلل قوله هذا بأنه لم يطلع على هذه القراءة.

الثاني عشر: ذكر أن أبا علي الفارسي قرأ ملاك بالألف وتشديد اللام وكسر الكاف.

الثالث عشر: قرأ أبو حياة شريح بن يزيد:

(١) تفسير العياشي ٢٢/١.

(٢) أيوب السخيتاني (٦٦ - ١٣١) هجرية، أيوب بن أبي تيممة كيسان السخيتاني البصري، أبو بكر، فقيه تابعي زاهد، روي عنه ثمانمائة حديث.

(٣) روح المعاني ٧٠/١.

♦ مَلِكُ يَوْمِ الدِّينِ .

♦ مَلِكُ يَوْمِ الدِّينِ .

♦ مَلِكُ يَوْمِ الدِّينِ بالنصب والإضافة.

الرابع عشر: قرأ ملكي ياشباع كسرة الكاف أحمد بن صالح عن ورش عن نافع.

الخامس عشر: قرأ بعضهم مَلِك على وزن فلس.

السادس عشر: قرأ بعضهم ملك يوم الدين على وزن فاعيل.

السابع عشر: روى عبد الوارث عن أبي عمرو: ملك يوم الدين بسكون اللام، وقال ابن منظور هذا من إختلاس أبي عمرو^(١).

ان هذه الكثرة من القراءات لكلمة واحدة من القرآن أمر لا يخلو من التأمل لغرابة وقوعها واحتمال عدم قراءة النبي صلى الله عليه وآله وسلم لشطر غير قليل منها، مما يلح بالوقوف عندها للدراسة والتحليل وإستنباط النتائج.

والمتواتر منها قراءة (مالك) و(ملك) إذ قرأ (مالك) كفاعل مخفوضاً عاصم والكسائي وخلف في اختياره ويعقوب وهي قراءة كثير من الصحابة منهم ابن مسعود ومعاذ وابن عباس وأبي بن كعب وبعض التابعين منهم قتادة والأعمش.

وأخرج الطبراني عن ابن مسعود أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قرأ مالك يوم الدين بالألف.

وقرأ (ملك يوم الدين) على وزن فعل بالخفض أبو الدرداء وزيد وابن عمر والمسور وعدد من الصحابة والتابعين .

قال ابن خالويه وفي ملك لغات أحسنها ملك ومالك وقد رويت عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وذكر: "إن إعرابياً جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فشكا إليه امرأته ، فقال:

(١) لسان العرب ٤٩٢/١٠.

إليك اشكو ذربة من الذرب

يا مالك الملك وديان العرب^(١)

فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: ذلك الله"، ونقل عن الزهري مرسلاً أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأبا بكر وعمر كانوا يقرؤون (مالك يوم الدين) وأول من قرأها بغير ألف مروان، وروي أيضاً عن ابن شهاب.

ومن حيث العربية ذكر بعضهم فيه أربع لغات مالك وملك وملك - بكسر اللام - ومليك، ويجوز فيها وفق الصناعة النحوية أربعة وعشرون وجهاً منها :

الأول: مالك يوم الدين، على الصفة.

الثاني: الرفع على إضمار مبتدأ.

الثالث: النصب على المدح.

الرابع: على النداء.

الخامس: على الحال.

السادس: على الصفة على قراءة رب العالمين.

فهذه ستة أوجه، وفي كل من اللغات الأخرى مثلها.

ولكن القراءة سنة ولا تخضع لقياس العربية وما يجوز من أوجه النحو وصناعتها التي قد تتعدى الأصول الموضوع لها في يوم ما ويدخل في معتركها رجال متخصصون ذوو إبداع وإجتهاد في ميادين اللغة وإستنباط قواعدها، الأمر الذي يضغط بشدة ويدعو لضرورة العناية ببيان القراءة التوقيفية المتواترة وإظهارها على نحو مستقل.

في سياق الآيات

بعد آية الرحمة والإخبار عن إتصاف الله تعالى بالرحمة المطلقة، وما فيها من المدح والثناء عليه سبحانه، جاءت هذه الآية لتبين إنحصار الملك والسلطنة في الآخرة به تعالى، ومجيء الإخبار عن ملكيته المطلقة بعد صفات الرحمة ببيان للمواضيع المترتبة على الحاجة إلى رحمته تعالى وأنها متصلة ومستمرة في الدارين.

وفي الآية تأكيد لنفي الظلم عن الله تعالى وإخبار عن الرحمة والمغفرة والعفو الإلهي في الآخرة .

وانتقلت الآية التالية إلى صيغة الدعاء، ولغة النداء والتضرع والإعلان عن إقرار المسلمين بالعبودية لله تعالى، ومواظبتهم على العبادة، ومجيئها عن معرفة وتفقه في الدين، لتكون العبادة في الدنيا طريقاً إلى التمتع في ملك الله عز وجل في الدنيا والآخرة، أما في الدنيا فيتجلى بقوله تعالى ﴿وَيَاكَ نَسْتَعِينُ﴾^(١) إلى جانب ما يترشح عن الإيمان من نزول الفضل الإلهي .

ومن إعجاز سياق الآيات في القرآن إفادة الجمع بين هذه الآية والآية التالية النداء والاستغاثة في تلاوة هذه الآية بتقدير (يا مالك يوم الدين إياك نعبد وإياك نستعين).

كما يدل الجمع بينهما على حاجة الناس للعبادة كواقية وحرز ليوم الحساب لذا جاء التوسل بالآية بعد التالية بسؤال الهداية من الله تعالى . ويفيد الجمع بين هذه الآية وآية (إهدنا الصراط المستقيم)^(٢) طلب الصلاح في الدنيا للنجاة في الآخرة.

(١) سورة الفاتحة ٥.

(٢) سورة الفاتحة ٦.

إعجاز الآية

مع قلة كلمات الآية الكريمة فانها تكشف عن العالم الآخر وما يميزه
بأنحصار الملك بالله تعالى، ووصف يوم القيامة بأنه يوم الدين حث على
التقوى والعبادة.

والآية حرب على الشرك، وتدل بالدلالة التضمنية على حتمية يوم
القيامة وأنه يوم الجزاء، ومن الآيات أن يأتي الإقرار عن المسلم بأنحصار
الملك يوم القيامة بالله تعالى.

ومن مضامين الآية الإخبار عن الحساب في الآخرة، ونيل المحسن
الثواب، والمسيء العقاب، وفيها إنذار من الظلم والشره والتعدي على
الآخرين وأموالهم لأن الملك كله يرجع إلى الله تعالى في الآخرة.

ولم تقل الآية مالك يوم القيامة، أو مالك اليوم الآخر بل ذكرت
الآخرة باسم يوم الدين لإرادة ما فيه من الحساب والجزاء، واتصاله
وتعقبه لها، وإدراك المسلمين هذه الحقيقة فبعد الإخبار عن ملك الله تعالى
ليوم الجزاء والحساب جاءت الآية التالية للجوء المسلمين إليه تعالى في
العبادة والإستغاثة.

ونعت يوم القيامة بأنه يوم الجزاء والحساب شاهد على عظيم قدرة
الله تعالى، فهو الذي يجمع أجزاء الإنسان المتفرقة في التراب والشجر
وغيره ويفصلها عن غيرها.

ولا يؤثر التداخل والإستهلاك بين الأشياء في دقة الجمع فلا يحصل
إشتراك أو لبس بل يعود كل إنسان الى ما كان في الدنيا من غير نقص.

ولا عبرة بما ذكر من شبهة الأكل والمأكول لأن القوة لله جميعاً وهو
الذي أحاط علماً بالموجودات والمعدومات، والقادر على الممكنات كلها
وتخبر الآية عن حتمية وقوع يوم القيامة لأن اسم المالك يدل على وجود
الملك، والإخبار عن ملكية الله تعالى مع تأخر أوانه وزمانه إلى ما بعد
إنقضاء الحياة الدنيا دليل على انه واقع حتماً.

وتفيد الآية جعل يوم القيامة وما فيه من إقامة المؤمنين في النعيم الدائم، والكفار في العذاب المهين ملحقاً بالأمر الحال والواقع وذكر ملكيته لله تعالى.

ويمكن أن نسمي هذه الآية آية "مالك يوم الدين"

الآية سلاح

الآية عز للمسلمين في الدنيا والآخرة ، فالقطع بان الملك والسلطان بيد الله تعالى يوم القيامة بشارة للمؤمنين ودعوة لهم للإلتزام بالفرائض، وفي الآية تأديب لهم للإقرار بالبعث والنشور والإستعداد ليوم الحساب. وفيها حجة على الكفار والمشركين والمنافقين، لما فيها من الإخبار عن قانون الموت إنتقال من الدنيا إلى الآخرة وليس انعداماً على نحو السالبة الكلية الدائمة، وقانون التنعم بالحياة الدنيا من رحمة الله بالناس جميعاً لقوله تعالى في الآية السابقة ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾.

وجاءت هذه الآية للدلالة على قانون عدم ترك الكفار وشأنهم يعيشون في الأرض فساداً ويظلمون الناس، ويعتدون على المسلمين وثغورهم بل يمهلهم الله في الدنيا برحمته لعلهم يتوبون إليه، والآخرة موعد لوقوفهم جميعاً للحساب، قال تعالى ﴿وَقَفُّهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ﴾^(١).

لقد جعل الله عز وجل الإنسان كائناً محتاجاً، ومن وجوه حاجته مصاحبة هذه الآية ومضامينها له في الحياة الدنيا ليكون عالم الحساب حاضراً عنده، وهذا الحضور واقية من فعل السيئات، ودعوة ملحة لعمل الصالحات.

ومن فضل الله تعالى وجوب تلاوة المسلم والمسلمة لهذه الآية في الصلاة، لما فيها من إحضار لمضامين ودلالات الآية في الذهن، ومنه النطق بها باللسان جهراً في صلاة الصبح والمغرب والعشاء عدة مرات في اليوم.

مفهوم الآية

لا تنحصر آيات الله تعالى وظواهر آثاره بالحياة الدنيا بل تشمل الدار الآخرة وفيها تزول الغشاوة عن الأبصار وينكشف الغطاء وتتجلى أنوار الربوبية، قال تعالى ﴿لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾^(١).

ومن مفاهيم الآية قانون المنتهى إلى الله تعالى، قانون كل ملك زائل إلا ملكه تعالى الذي يقترن بالقدرة والإستيلاء على كل شيء بالتدبير والحكمة والرحمة.

وتبين الآية قانون موضوعية الاعتقاد والديانة يوم القيامة وإن المدار في الجزاء على الدين وهذه الحقيقة التكوينية حث واقعي متجدد على دخول الإسلام، وتنبه على إنتفاء الإنتفاع يومئذ إلا من الدين والعقيدة الواجبة على نحو الحصر والتعيين، ولذا ترى الأعمال لا تقبل إلا بالنية كما يشترط في العبادات إتيانها بقصد القربة إلى الله.

والآية تذكير دائم بسفر الآخرة وتثبيت لقوانينه وحقائقه التي تفيض على الإنسان في الدنيا الصلاح والتقوى، ومنها الملكية الكاملة لله تعالى يومئذ، وفيها دعوة للحرص على الجسد والروح بالإستعداد لليوم الآخر، والنجاة مما في عالم البرزخ والنشور من الأهوال وشدة الحساب.

وتقسم الآية في مفهومها الملك إلى قسمين:

الأول: الملك في الدنيا.

الثاني: الملك في الآخرة.

وتؤكد الآية على قانون من عالم والخلق الإرادة التكوينية وهو عدم

وجود مالك غير الله في الآخرة، وفيه حث على قطع الرجاء والأمل إلا بالله عز وجل، والإلتجاء إليه، والإستجارة به تعالى لأُمور الدين والدنيا. ومن مفاهيم الآية قانون طرد الوهم بعدم وجود عالم آخر بعد الدنيا كما ورد على لسان الكفار في التنزيل ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَحَيَاتُنَا نَحْنُ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ (١).

والأحوال الزمانية الطولية ثلاثة وهي الماضي والحاضر والمستقبل ، وبالنسبة للإنسان فان ماضيه على قسمين:
الأول: انه كان معدوماً، ولم يك شيئاً فأخرجه الله تعالى من نطفة وخلقه فسواه.

الثاني: أيام الرضاعة والصبا والأيام الماضية من عمره.
وأما الحاضر فهو الأوان والوقت الذي هو فيه، وأما المستقبل فهو على قسمين:

الأول: ما تبقى من أيامه في الحياة الدنيا ولحين مفارقة الروح الجسد.
الثاني: عالم الآخرة، الذي يتضمن الدوام والبقاء والخلود.

وتتجلى هذه العوالم الشخصية بقوله تعالى ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى * أَلَمْ يَكُنْ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنًى * ثُمَّ كَانَ عَاقِلَةَ فِخْخٍ فَسَوًى * فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى * أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُخْبِيَ الْمَوْتَى﴾ (٢).

وجاءت هذه الآية بذكر القسم الثاني من زمان المستقبل، وهو أطولها واكبرها وأهمها للإنسان، إذ أن عدمه انقطع بخلقه، والماضي بالحاضر ،

(١) سورة المؤمنون ٣٧.

(٢) سورة القيامة ٣٦-٤٠.

وينقطع الحاضر بالموت ، أما عالم الآخرة فإنه لا ينقطع ابداً ، ومن الآيات تعلق احوال الإنسان في الآخرة بالحياة الدنيا.

ومن رحمة الله تعالى ورود هذه الآية وما فيها من الدعوة للإستعداد لليوم الآخر ، وتطرد الآية الخوف والفرع عن نفوس المسلمين من الآخرة وما فيها من الحساب ، وقد يدخل الخوف أو الحزن قلوب جماعة منهم بسبب ما يأتيهم من الظلم والتعدي في الدنيا.

فتأتي هذه الآية لتبعث الصبر وتلقي السكينة في نفوسهم ، وتذكرهم بما أعد الله عز وجل لهم من النعيم الدائم ، وما يناله عدوهم الذي ظلمهم من العذاب المهيئ.

وفي الآية مسائل:

الأولى : وجود الملك في الدنيا والآخرة ، وإنحصاره في الآخرة بالله

تعالى وفي التنزيل ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾^(١).

الثانية : قد يملك الإنسان في الدنيا الأموال والأعيان ، ولكنها تغادره عند الممات ليكون بعرض واحد معها في ملكية الله تعالى لهما وللخلائق ، فلا يستطيع التصرف في ملكه في الدنيا ويحضر للشهادة عليه كما تشهد عليه جوارحه ، قال تعالى ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكِ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾^(٢).

الثالثة : قانون ملكية أفراد الزمن مطلقاً لله تعالى ، فالآخرة كلها ملك له سبحانه ، ومن وجوه الملك فيها الحساب والجزاء.

(١) سورة الملك ١.

(٢) سورة آل عمران ٢٦.

الرابعة: موضوعية الحساب والجزاء في عالم الآخرة، بحيث سمي الله تعالى الآخرة يوم الدين، ويوم الجزاء والحساب، بلحاظ أن خلود المؤمن في النعيم، والكافر في الجحيم من مصاديق الجزاء.

الخامسة: دعوة الناس إلى نبذ وإجتنب الشرك ومفاهيم الضلالة.

ومن خصائص المسلمين أمور:

الأول: الإقرار باليوم الآخر والمعاد.

الثاني: أن الآخرة دار حساب وجزاء، فينال المحسن الثواب، والمسيء

العقاب.

الثالث: التسليم بأن الملك في الآخرة لله تعالى، وليس من مالك غيره

سبحانه.

الرابع: حاجة الإنسان في الدنيا والآخرة إلى الإقرار بالوجوه الثلاثة

أعلاه، بمعنى أن يقر ويعترف بها في الدنيا، فيأتيه النفع العاجل ويكتب له

الثواب في الآخرة، وقد فاز المسلمون بهذه النعمة، وتعاهدوا.

إفادات الآية

كما أنعم الله عز وجل على الأنبياء بالإصطفاء بالرسالة، فانه

سبحانه تفضل على المسلمين واصطفاهم للتوجه إليه بالدعاء

والمسألة وإظهار معاني العبودية المحضة لله تعالى، والإقرار بقانون

الملك مطلقاً لله في الدنيا والآخرة، وتتجلي هذه الحقيقة بوضوح في

عالم الآخرة لأن الناس جميعاً يقفون للحساب ولا يملكون إلا

الأعمال التي صاحبهم من الدنيا، وفي التنزيل ﴿وَكُلُّ الْمُلْكِ يَوْمَ يَنْفَخُ

فِي الصُّورِ﴾^(١).

ومع أن أحوال الآخرة من عالم الغيب فإن الآية تجعلها من المحسوسات

والأمور القريبة من النفس ليتدبر الإنسان في مضامينها ويستحضر يوم

الحساب، ويترشح عن هذا الإستحضار إدراك حقيقة وهي لزوم الإستعداد له.

وتدعو الآية المسلمين للتضرع والخشوع لله تعالى وسؤال الأمن والأمان يوم القيامة، والإحتراز له بإكتناز الصالحات.

وتطرد الآية عن النفس الإنسانية حب الدنيا والإنقطاع إليها، واللهث وراء زينتها وزخرفها لما فيها من البيان والكشف عن حقيقة رجوع الملك كله لله تعالى، ويبعث الإقرار بهذه الحقيقة الضياء في النفس، ويزيل عنها غشاوة الهوى وحب الدنيا، ويجعل الإنسان يسعى إلى عالم الآخرة بشوق ورغبة، ويحرص على الإقرار بالعبودية لله تعالى.

وتدعو الآية إلى التحلي بالصبر وإجتنب المعاصي والظلم والتعدي بغير حق على أموال وحقوق الآخرين، لأن الملك يعود لله تعالى إبتداء وإستدامة وعاقبة، ولا يبقى من حطام الدنيا إلا الحساب عليه.

كما تدعو الآية إلى المبادرة إلى فعل الصالحات والتعاون في أعمال البر والإحسان رجاء الثواب.

ويدل توكيد الآية على ملكية الله تعالى لعالم الآخرة على ملكيته للحياة أيضاً، ولكنه تعالى جعل الدنيا مزرعة للآخرة، ودار إختبار وإمتحان، أما الآخرة فدار الحساب والجزاء ، قال تعالى ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ * وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾^(١).

الآية لطف

كما يتضمن القرآن أحكام الحلال والحرام وبيان التكاليف

والفرائض، فانه يتضمن الإخبار عن عالم الآخرة وما فيه من الأهوال، وجاءت هذه الآية لبيان حقيقة وهي عائدة كل شيء في الآخرة لله تعالى، فليس من شريعة، وليس من مالك مجازي أو حقيقي غير الله تعالى، بل الملك المطلق كله لله تعالى .

ويعجز الإنسان عن التصرف فيه يوم القيامة، وهذا البيان لطف إضافي وعون للمسلم على التقيد بأحكام الحلال والحرام والتفقه في الدين، وعدم اللهث وراء الدنيا وزينتها، لأن الملك يعود لله، قال تعالى ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾^(١)، وفيها حث للتطلع إلى رحمة الله في النشاطين لذا جاءت هذه الآية بعد قوله تعالى ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾.

والآية حجة على الكفار، وسلاح بيد المسلمين في الجدل والاحتجاج لما فيها من تأكيد وجود حياة أخرى بعد الدنيا، وتصف هذه الحياة بأمر منها ما يئته هذه الآية وهو ملك الله تعالى لكل شئ في الآخرة، وأنها دار الحساب والجزاء، فلا يستطيع الإنسان يومئذ الهرب من الحساب، ولا يقبل منه فداء أو عوض، ومن شاء التدارك فليتجه صوب التوبة، ويرتدي رداء الإيمان، ويدخل في ملك الله تعالى من غير خوف من العقاب، أو حزن على ما فاته.



الصلة بين أول وآخر الآية

لقد جاءت الآية في موضوع واحد خاص بعالم الآخرة، فبعد أن أخبرت الآية السابقة بأنه تعالى ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾^(١)، وبيان رحمته تعالى المطلقة جاءت هذه الآية لتخبر عن ملكه المطلق لعالم الآخرة ليجتمع أمران يوم القيامة، وهما إحصار الملك المطلق بالله تعالى، وهو الرحمن الرحيم. فبعد الإخبار عن ربوبيته وملكه تعالى للخلائق جميعاً بقوله تعالى ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، جاءت هذه الآية لتبعث السكينة في نفوس المسلمين والناس جميعاً بخصوص مواطن يوم القيامة، وتذهب الفزع عن نفوسهم من أهوالها وظلماتها لأنها لا تخرج عن مضامين الرحمة الإلهية، ولم تقل الآية بأنه تعالى (مالك يوم القيامة) بل جاء نعت اليوم بأنه يوم الدين أي الجزاء في إشارة إلى موضوعية العبادة والتقوى في الدنيا بموازين يوم القيامة ونيل أسباب الرحمة فيه.

وفي حديث لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم (ثم يأمر الله عز وجل إسرافيل فينفخ نفخة الصعق) ﴿فَصَعَقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ﴾^(٢)، فإذا اجتمعوا جاء ملك الموت إلى الجبار ويقول: قد مات أهل السماء والأرض إلا من شئت.

فيقول الله سبحانه وهو أعلم من بقي فقال: أي رب بقيت أنت الحي الذي لا تموت، وبقي حملة العرش، وبقي جبرائيل وميكائيل وإسرافيل،

(١) سورة الفاتحة ٣.

(٢) سورة الزمر ٦٨.

وبقيت أنا فيقول الله عز وجل فيموت جبرائيل وميكائيل فينطق الله العرش فيقول : أي رب يموت جبرائيل وميكائيل .

فيقول : اسكت إنني كتب الموت على كل من تحت عرشي فيموتان . ثم يأتي ملك الموت فيقول : أي رب قد مات جبرائيل وميكائيل فيقول وهو أعلم بمن بقي فيقول : بقيت أنت الحي الذي لا تموت وبقيت حملة عرشك فيقول ليتم حملة عرشي فيموتون ، فيأمر الله العرش فيقبض الصور من إسرافيل فيموت .

ثم يأتي ملك الموت فيقول : يا رب قد مات حملة عرشك فيقول وهو أعلم بمن بقي فيقول : بقيت أنت الحي الذي لا تموت وبقيت أنا فقال : أنت خلق من خلقي خلقتك لما رأيت فمت فيموت فإذا لم يبق إلا الله الواحد الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد وكان آخراً كما كان أولاً طوى السموات كطي السجل للكتب .

ثم قال : أنا الجبار ، لمن الملك اليوم ، ولا يجيبه أحد . ثم يقول تبارك وتعالى جل ثناؤه وتقدست أسماؤه : لله الواحد القهار {يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات مطويات بسطها بسطا} ثم يمدّها مدّ الأديم العكافي {لا يرى فيها عوجاً ولا أمثاً} .

ثم يزجر الله الخلق زجرة واحدة ، فإذا هم في هذه الأرض المبدلة في مثل ما كانوا فيه من الأول ، من كان في بطنها ، كان في بطنها ومن كان على ظهرها كان على ظهرها ، ثم ينزل الله سبحانه عليهم ماء من تحت العرش كماني الرجال ، ثم يأمر السحاب أن تنزل بمطر أربعين يوماً حتى يكون (من فوقهم) إثنا عشر ذراعاً ، ويأمر الله سبحانه الأجساد أن تثبت كنبات الطرائث وكنبات البقل حتى إذا تكاملت أجسادهم كما كانت ،

قال الله سبحانه : لِيَحْيَ حَمَلَةَ الْعَرْشِ ، فَيَحْيَانِ ، فَيَأْمُرُ اللَّهُ إِسْرَافِيلَ ، فَيَأْخُذُ الصُّورَ فَيَضَعُهُ عَلَى فِيهِ ، ثُمَّ يَدْعُو اللَّهُ الْأَرْوَاحَ فَيُؤْتِي بِهَا ، تَتَوَهَّجُ أَرْوَاحُ الْمُؤْمِنِينَ نُوراً وَالْأُخْرَى ظِلْمَةً ، فَيَقْبُضُهَا جَمِيعاً ثُمَّ يَلْقِيهَا عَلَى الصُّورِ ، ثُمَّ يَأْمُرُ اللَّهُ سَبْحَانَهُ إِسْرَافِيلَ أَنْ يَنْفُخَ نَفْخَةً لِلْبَعْثِ فَتَخْرُجُ الْأَرْوَاحُ كَأَنَّهَا النُّحُلُ قَدْ مَلَأَتْ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ .

فيقول الله سبحانه : لِيَرْجِعَنَّ كُلَّ رُوحٍ إِلَى جَسَدِهِ ، فَتَدْخُلُ الْأَرْوَاحُ الْخِيَاشِمَ ، ثُمَّ تَمْشِي فِي الْأَجْسَادِ كَمَا يَمْشِي السَّمُّ فِي اللَّدِيغِ .
ثُمَّ تَنْشِقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعاً ، فَأَنَا أَوَّلُ مَنْ يَنْشِقُ عَنْهُ الْأَرْضُ ، فَتَخْرُجُونَ مِنْهَا إِلَى رَبِّكُمْ تَنْسَلُونَ عُرَاةَ حَفَاةٍ عِزْلاً مُهْطَعِينَ إِلَى الدَّاعِي ، فيقول الكافرون : هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ^(١) .

من غايات الآية

لقد أراد الله عز وجل للمسلمين التفقه في الدين ، وأمور الدنيا والآخرة ، ومعرفة حقيقة الخلق وان الدنيا دار عبور إلى الآخرة ، وأراد للناس التدبر والتبصر في ماهية المال والملك وما يصير إليه وانه يعود هو والناس إلى ملك الله تعالى .

فالدنيا عالم الإختيار والاختبار ، أما الآخرة فهي عالم عودة المال ومالكة ، والدار ومن ينالها والراحلة ومن ركبها إلى ملك الله تعالى .
ومن الآيات أن تأتي تسمية يوم القيامة في المقام بأنه اسم الجزاء والحساب والحكم على الإختيار الشخصي والنوعي للجماعة والأمة .
لتكون هذه التسمية درساً وموعظة وبشارة وإنذاراً وإخباراً بأن ما يقتنيه الإنسان في حياته مادة وموضوع للحساب يوم القيامة ، فإذا كان الإقتناء بالطرق الشرعية وان العبد يقوم بإخراج حقوقه وأداء الشكر

القولى والفعلى لله تعالى على نعمة المال فإنه يقوده إلى الجنة، وأما إذا كان جمعه بالباطل، أو أنه جعله وسيلة للهو والفجور، ومقدمة للمعصية فإنه يسوق صاحبه إلى النار.

ومع أن الآية جاءت بصيغة الجملة الخبرية، وتبين معالم الآخرة فان وظائفها في الدنيا أكثر من أن تحصى وهو من أسرار تلاوة كل مسلم ومسلمة لها عدة مرات في كل يوم.

ومن إعجاز القرآن مجيء الآية بكلمات قليلة وبخصوص عالم الآخرة، لتبعث المسلمين أمة وأفراداً إلى فعل الصالحات والسعي في مرضاة الله، والجهاد بالأموال والأنفس في سبيله تعالى، وتجعلهم يرون منازلهم في الجنة والنعيم الدائم، وهم في الدنيا.

وهذه الآية حرب على الشرك، ومانع من إستحواذه على النفوس، ودعوة إلى الناس جميعاً للإقرار باليوم الآخر والتفقه في أحكامه ومعرفة منازلهم ومواطنهم كما بينه القرآن والسنة، وهي ثمرة من ثمار بشارة الأنبياء ببعثة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وشاهد على حاجة الأمم إلى هذه البشارة وتوارثها لما في التصديق بمضامين هذه الآية من أسباب الهداية والصلاح، وترشح النفع العظيم من إخبارها بملكية الله تعالى لكل شيء في الآخرة.

التفسير

ما وضع من السنن والأخبار والتوثيق في أحكام القراءات والتعدد الذي لم يزاحم أو يضر الدقة والإتقان فيها أمر يدعو إلى التفاؤل وبيعث على الإطمئنان، ويمكن إعتماذه لترسيخ أسس القراءة الصحيحة والسليمة للآية الكريمة كونها منهاجاً وسبيلاً آمناً لنيل مرضاة الله ومنع تضييع أي مقدار من الأفعال العبادية سواء الواجبة منها أو المندوبة، فان القراءة في الصلاة مثلاً تبطل عند الإخلال المتعمد بكلمة منها لذا ورد البيان بجواز قراءة مالك يوم الدين، وملك يوم الدين.

ومع ما في القراءة من الدقة والضبط فان مفهومها يدل على الإلتزام بقراءة كلمات القرآن على نحو الإتحاد وعدم التعدي إلى التعدد إلا مع البيئة والحجة، وبذا تظهر آيات من هذا التعدد في القراءة ومناسبتها وموضوعه، أي أن التعدد ظهر في سورة الفاتحة التي تتكرر قراءتها كل يوم ليكون هذا الدرس وقواعد جواز التعدد في القراءة مع الدليل، وان الأصل فيها الإتحاد الذي يكون راسخاً ومعروفاً عند عامة المسلمين كواقية وحرز ونبراس.

والملك مشتق من الملك، أما المالك فهو مأخوذ من الملك - بكسر الميم - يقال ملكه يملكه ملكاً وملكاً بكسر الميم وملكاً: إحتواه إستيلاء، وقدر عليه إستبداداً.

والملك هو القادر الذي له السياسة والتدبير والسلطان في حدود مملكته، وقيل أن الملك هو الذي يملك الكثير من الأشياء والممتلكات ويشارك غيره من الناس في ملكهم.

والمالك: القادر على التصرف في ماله ولا يجوز لغيره منعه، وكل من يملك يحسب مالكاً بتقريب وتأويل الفعل كما يقال: مالك الدار ومالك المال، والله عز وجل يملك إقامة يوم الدين.

وقيل كل ملك مالك وليس كل مالك ملكاً، ولكن هذا القول لا يصلح أن يكون قاعدة عامة فقد يقال ملكاً بعنوان الرياسة وهو لا يملك ويبدو سلطان المالك أكثر قهراً منه في الملكية، إذ يمكن للرعية الإنفلات من سلطان الملك أو الفرار منه ، والخروج من دائرة سطوته ولكن الناس جميعاً لا يستطيعون الفرار في الآخرة، مما يعني سقوط هذا المبحث والمقارنة في المقام، لأن الملك والمالكية لله تعالى يوم القيامة، نعم هو نافع كمبحث كلامي لبيان عظيم سلطانه تعالى يومئذ هذا بالإضافة إلى أن مقام ملكية العبودية لله أعظم شأناً في الآخرة، وأكثر مناسبة من منصب الملك في الرعية.

واليوم على وجوه :

الأولى : اليوم عند الفلكيين الزمان المحصور بين طلوع الشمس وغروبها.

الثانية : لا يختص بالنهار دون الليل كما ترى أهل هذا الزمان يطلقونه على مجموع الليل والنهار.

الثالثة : قد يراد باليوم مطلق الوقت.:

الرابعة : في الإصطلاح الشرعي هو مقدار من الزمان معروف يمتد بين الفجر الثاني إلى غروب الشمس وبه تتعلق أحكام الصيام^(١)، قال تعالى ﴿وَالصَّبْحُ إِذَا تَنَفَّسَ﴾^(٢).

الخامسة : يوم العمل، أي الذي يعمل فيه الأجير سواء من ارتفاع الشمس إلى ما قبل الغروب بقليل كما كان متعارفاً أو بحسب الشرط والاتفاق والتراضي وحصره في عدد معين من الساعات.

ويوم الدين هو يوم القيامة وساعة الجزاء ومواقف الحساب ، قال تعالى ﴿الْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعٌ﴾ ويمكن اعتماد علة وصف يوم القيامة بأنه يوم الدين لأن المحور الأساسي فيه الدين، وعليه يكون الجزاء وبه تنال المنازل الكريمة في دار الخلود، والدين وضع إلهي يشمل الأصول والفروع لجعل الناس في أحسن نظام وأكمل حال ينقاد له ذوو العقول باختيارهم.

وعن الإمام محمد بن علي عليه السلام وابن عباس وابن مسعود: "الدين - الحساب"، وعن سعيد بن جبير وقتادة: "الدين معناه في الآية: الجزاء"، انه يوم يدين الله العباد بأعمالهم كما في الحديث القدسي: "ابن آدم كن كيف شئت كما تدين تُدان" أي كما تجازي تجزى بما فعلت. وذكر في الأصل فيه "إن امرأة في أيام نبي الله داود عليه السلام كانت

(١) الصيام.. فلسفته واحكامه للمؤلف / ٢٢.

(٢) سورة التكوير ١٨.

(٣) سورة غافر ١٧.

تتعرض لإستكراه على نفسها من قبل رجل، فألقى الله في قلبها فقالت: لا تأتيني مرة إلا وعند أهلك من يأتيهم، فذهب الرجل إلى بيته فوجد رجلاً عند أهله، فجاء به إلى داود عليه السلام، فقال يا نبي الله: أتى إلي ما لم يؤت إلى أحد، فقال: وما ذاك، فقال: وجدت هذا الرجل عند أهلي، فأوحى الله إلى داود عليه السلام قل له: كما تدين تُدان.

قانون يوم الدين

والمراد من يوم الدين أعم منه لأن شطراً من الناس لا خوف عليهم يوم القيامة ولا إدانة، أي أنه يوم الجزاء بالخير.
وعن ابن عباس يوم الدين قال: "يوم حساب الخلائق وهو يوم القيامة يدينهم بأعمالهم أن خيراً فخير، وإن شراً فشر، إلا من عفا عنه فالأمر أمره^(١)."

وفي سورة الفاتحة خمسة من أسماء الله عز وجل وهي: الله، الرب، الرحمن، الرحيم، المالك، مع أن مجموع كلماتها تبلغ تسعاً وعشرين كلمة ومنها كلمات البسملة الأربعة التي هي كنز سماوي يصاحب ويتصدر كل سورة.

وعن الإمام الصادق عليه السلام قال في الفاتحة: أولها تحميد وأوسطها إخلاص وآخرها دعاء.

بعد أن إبتدأت السورة بالتسمية والحمد والثناء على الله تعالى بعنوان الربوبية وبيان سعة رحمته ومدى شمولها بما يبعث في النفس الإنسانية الإطمئنان والسكينة في ميادين الحياة الدنيا ضمن هدى الإيمان، وأنماط ومسار الهداية، جاءت الآية الكريمة لبيان أحوال يوم القيامة ومسائل المعاد والحساب والميزان وخلق حالة الإستعداد عند المسلم لأهوال ذلك اليوم بالتزام العبادة وفعل الطاعات ليحرز الأمن من فزع الآخرة، وتأكيد الإرتباط الشرطي بين الاعتقاد وما يترشح عنه من أفعال، وبين الحساب،

والعروج إلى الجنة، والصلة بين الدار الدنيا والآخرة كون الأولى سبيلاً إلى الآخرة، للجمع بين قانون الدنيا دار عمل بغير حساب، وقانون الآخرة دار حساب بغير عمل.

فالآية تذكير بالحساب وتنبيه إلى وجوب السعي الجاد للنجاة ودفع البلاء والخرج من ساعته والتعلق بانتظاره والشوق إليه لما فيه من حسن الجزاء وثواب الصالحات المكتنزة في الحياة الدنيا، والآية حث على رجاء لطف الله والتطلع بشوق إلى عفوه تعالى فبعد الخلق والربوبية والرحمة تأتي مرحلة إيصال الجزاء إلى العبد في غياب تام لما عبد وأطاع المشركون من دون الله.

وقد يقال بأن الملكية للشيء لا تكون إلا إذا كان موجوداً، ويوم الدين غير موجود الآن، ولكن الآية جاءت لتحقيق وتوكيد قيامه لتستعد العقول لوجوده حقيقة حتمية، وفي هذا الإخبار بلاغ ونعمة على أهل الإسلام بإطلاعهم على الأحوال التي يتعرض لها الناس وجميع الخلائق في عالم ما بعد الموت، كما أن المشهور والمختار أن الجنة والنار موجودتان الآن، وقد ورد ذكرهما في حديث الإسراء.

وبالنظر من خلال تأويل وتفسير قراءة مالك يوم الدين تكون الآية بياناً وإخباراً على أن الملك آنذاك خالص لله عز وجل دون الخلائق كافة، فليس لأحد أية ملكية صغيرة أو كبيرة، دائمة أو مؤقتة، أو اعتبارية أو مجازية أو غيرها، حيث تغيب هناك عروش ملوك الأرض وينفرد الباري عز وجل بالسلطان والعظمة والجبروت لا ينازعه الملك أحد.

والآية تذكير للناس وتنبيه لهم بحقيقة وواقع يوم القيامة وحث لهم على الإستعداد بالإقبال على طاعة الله وإدخال الصالحات وفعل الطاعات التي ترضي الباري عز وجل يوم الجزاء، قال تعالى ﴿يَوْمَهُمْ بَارَزُونَ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ

قانون اختصاص الملك في الآخرة لله وحده رحمة

والأخبار عن إطلاق ملك الله تعالى ليوم الدين وما فيه من الرحمة بشارة ونعمة عظيمة على المسلمين، وهو نوع إنذار ووعيد وتخويف للكافرين، فهذه الملكية لا تكون تعليقية لأنها حتمية، ولا تكون حينئذ مستحدثة بل هي ثابتة منذ الأزل، ويمكن الإستدلال به على أن الجنة والنار مخلوقتان.

وعلى تأويل قراءة (مالك يوم الدين) تكون الآية إخباراً وبياناً وتوكيداً بأن الله عز وجل هو الذي يملك الحكم بين الخلائق، ويفصل بينهم، ويقضي بما يشاء ضمن سلطان عرشه وملكيته المطلقة يوم القيامة، عن الضحاك عن عبد الله بن عباس في قوله تعالى ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ يقول: لا يملك في ذلك اليوم معه حكماً لملكهم في الدنيا، ثم قال: ﴿لَا يَكَلُمُونَ إِلَّا مَنْ أَدْنَىٰ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾^(٢) وقال: ﴿وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ﴾^(٣).

وقيل أن لفظ ملك أعم من مالك لأن ما يقع في حياة الملك من الموجودات أكثر شمولاً وسعة وأهمية مما يقع في حياة المالك بعنوان التملك مجرداً، هذا بالإضافة إلى أن الملك أكثر قدرة على فعل ما يشاء من الفعل والتصرف والتدبير وأقوى إستيلاء على ما تحت يده. وربما كان هذا القول بالنسبة للمخلوقين في الوصف مع أن وصف الملك فيه من العظمة والسلطان، ولكن الوصف بالمالك أعم من الوصف بالملك، وهناك من قال بأنه لا فرق بين المالك والملك كصفتين لله عز

(١) سورة غافر ١٦.

(٢) سورة النبأ ٣٨.

(٣) سورة طه ١٠٨.

وجل، وإن الملك والمالك سواء، ولكن الفرق في المعنى والدلالة والتعريف الخاص لكل صفة منهما، وقيل أن حاجتنا للمالك أكثر لما له من الرأفة وما عنده من الرحمة والملك له هبة وسياسة.

والحق أن حاجتنا لكل من الصفتين دائمة وهما بعرض واحد من جهة الضرورة لنا لعدم إمكان انفكاك كل منا عن الفقر والفاقة إلى ملكه تعالى، وهذا التعدد والعموم والخصوص من وجه بين آثار ومنافع الصفتين فضل عظيم منه تعالى.

روى الزهري أن الإمام علي بن الحسين عليه السلام "كان إذا قرأ (مالك يوم الدين) يكررها ويكاد أن يموت"^(١) فزعاً من أهوال يوم الحساب وشدته، وإستحضاراً للحشر وما يعاينه الناس في منازل.

والخشية مركبة ولا تنحصر باستحضار يوم الحساب فالآية تهدي الإنسان إلى معرفة ربه بالتدبر في عظيم سلطانه وتجلي آيات ملكه يوم القيامة على نحو الحقيقة وفيها إشارات جذب وشوق إلى لقاء المحبوب وإنكشاف زيف زخرف الدنيا.

ولا بأس بالنظر في أسباب النزول وواقع المجتمعات آنذاك عند تناول الآية بالتفسير والتأويل، فمن الناس من كان يؤمن بوجود الله عز وجل خالقاً وإلهاً ولكنه ينكر وجود يوم للجزاء يحاسب فيه أهل الأرض بعد بعثهم ومنهم من لا يكثر لهذا الأمر، ويمكن تلمس هذا الواقع في كل زمان لذا جاءت الآية موثقاً سماوياً لتوكيد هذه الحقيقة وضرورة إعتناء الناس بها والتهيؤ لها.

وجاءت الكتب التي نزلت قبل القرآن مبشرة بيوم القيامة ومخبرة عن حقيقة حدوثه فمثلاً ورد في سفر إشعيا ٣: ٩-١٣ "هو ذا يوم الرب قادم بسخط وحمو وغضب ليجعل الأرض خراباً ويبيد منها خطاتها فان نجوم السماوات وجابرتها لا تبرز نورها، تظلم الشمس عند طلوعها، والقمر لا يلمع بضوئه وأعاقب المسكونة على شرها،

والمناققين على إثمهم، لذلك أزلزل السماوات وتزعزع الأرض من مكانها في سخط رب الجنود، وفي يوم حمو غضبه.

مسائل في آية ﴿مَالِكِ يَوْمَ الدِّينِ﴾

وفي الآية مسائل :

الأولى : تدل الآية بالدلالة التضمنية على الإخبار عن يوم القيامة وحتمية حدوثه وإن مدار الثواب والعقاب يكون يومئذ على الدين والإلتزام العقائدي.

الثانية : فيها إشارة إلى النقص وعدم الدوام في ملك الدنيا وما يقتنيه الإنسان فيها.

الثالثة : في الآية بيان لأهم حيثيات يوم القيامة وهو ملكيته وعائديته لله، وهو الحاكم والسلطان فيه، إذ يتجلى فيه المائز بين واجب الوجود وبين الممكنات فليس فيه إلا مالك واحد وممالك، ولا واسطة بينهما.

الرابعة : الآية بشارة للمؤمنين وإخبار عن قانون نشر رحمة الله يومئذ لأن من مالكيته تعالى رأفته ورحمته بعبده.

الخامسة : جواز القراءة ب (ملك، مالك يوم الدين) حكم لا ينحصر موضوعه بأحكام القراءة والتلاوة بل يتعداه إلى ما فيها من الإشارات الملكوتية والنظر إليها بالمعنى الأعم، ليكون أكثر نفعاً وجامعاً لعنوان القدرة والرافة والسلطان وعدم الحاجة.

السادسة : مما تسالم عليه العقلاء وضبط في أحكام المعاملات أن الملكية لا تصدق إلا مع وجود العين المملوكة، فالإخبار عن ملك الله ليوم الدين مع عدم تحققه وحلول أوانه وعد ووعيد وتوكيد وتعليق لأمر حتمي.

وهل هو من المجاز كما في مبحث المشتق وإطلاق الملكية على ذات لم تتلبس بعد بالمبدأ كما تقول للذي يريد أن يشتري الدار في الغد أنه مالك، أو الذي ينوي السفر غداً بأنه مسافر لأن زمان النسبة الآن وزمان التلبس هو الغد والإجماع على أنه من المجاز، ولكن ملكيته تعالى ليوم

الدين حقيقة وليست مجازاً لإجتماع شرائطها في الزمن الحاضر ولا يمنع منه عدم حصول يوم الدين بعد ما دام حتمي الوقوع.

السابعة : يتجلى في الآية قانون قطع للأمل والرجاء من غير الله، فلا نافع يومئذ إلا هو، وهذا القول لا يتعارض مع الشفاعة إذ أنها لا تكون يومئذ إلا بأذن منه، وتنسب ملكيته يومئذ على الأشخاص فلا يتكلم العبد إلا ان يرضى ويأذن سبحانه، قال تعالى ﴿لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ﴾^(١).

الثامنة: قانون دخول المؤمن الجنة بفضل واحسان من الله تعالى لأنه المالك المطلق فليس لأحد قصر ومنزل في الجنة لا على نحو الإستحقاق المتقدم ولا على نحو الجزاء المتأخر، وتلك المنازل والقصور وان كانت مخصصة لأهل الجنة فانما هي فضل ولطف واحسان من الله تعالى، يتعلق به رجاء الشهداء والصالحين عسى أن تكون من نصيبهم.

عن أنس بن مالك عن أبي طلحة قال: كنا مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في غزوة ، فلقي العدو فسمعتة يقول : يا { مالك يوم الدين إياك نعبد وإياك نستعين } قال : فلقد رأيت الرجال تصرع ، تضربها الملائكة من بين يديها ومن خلفها^(٢).

ليبان إتخاذ آيات سورة الفاتحة موضوعاً للإستغاثة ومادة للنصر والدفاع والغلبة على مشركي قريش الغزاة.

وستأتي ستة وعشرون جزءاً من هذا التفسير بعنوان (لم يغز النبي ص أحداً) ليبان أن المراد من الغزوة في المقام هو الكتبية الدفاعية .

(١) سورة النبأ ٣٨.

(٢) الدر المنثور ٨/١.

قوله تعالى ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ الآية ٥

الإعراب واللغة

إياك: إيا ضمير منفصل مبني على السكون في محل نصب مفعول به مقدم والكاف للخطاب زيدت للبيان لا محل لها من الإعراب كالتاء في أنت، وقال بعض النحويين الكاف في موضع خفض واحتجوا بما حكاه العرب: "إذا بلغ الرجل ستين سنة فإياه وإيا الشواب"^(١)، والشواب البنات.

نعبد: فعل مضارع مرفوع، والفاعل ضمير مستتر تقديره نحن، وإياك: الواو حرف عطف جملة على جملة .

وسياتي مزيد بيان في الجزء الثامن والعشرين بعد المائتين بأن الواو القرآنية قد تجمع بين معنى العطف والإستئناف في آن واحد ، إذ أن تقسيمها إلى واو عطف وواو إستئناف تقسيم استقرائي.

نعم هناك شواهد في عالم القول والفعل تجمع بين العبادة والإستعانة ، لتكون النسبة بينهما هي العموم والخصوص المطلق وأن الإستعانة فرع وجزء من العبادة.

وإياك معطوف على الأول أي في محل نصب مفعول به مقدم. نستعين: فعل مضارع مرفوع، والأصل فيه نستعون على وزن نستفعل ونقلت الكسرة إلى العين لإستثقالها تحت الواو فانقلبت الواو ياء بسبب انكسار ما قبلها، والفاعل ضمير مستتر تقديره نحن.

وقرأ وإياك بقلب الهمزة واواً، وهناك قراءات في المقام يمكن إعتبارها من الشواذ، فقد قرأ الفضل بن عيسى الرقاشي إياك بفتح الهمزة، وقرأ بعضهم هياك بقلبها هاء، وقرأ عمر بن فائد إياك مخففاً. وقرأ الأعمش نستعين بكسر النون الأولى وهي لغة بني تميم فأنهم

(١)لسان العرب ٤٨٠/١.

يكسرون حروف المضارعة سوى الياء إذا لم يضم ما بعدها، وقيل هي لغة بني أسد وقيس وربيعة، وقراءة أهل البيت والجمهور إياك بالكسر والتشديد.

والعبودية أصلها الخضوع والتذلل ولا يقال عبد يعبد عبادة إلا لمن يعبد الله، ويقال للمسلمين عباد الله لأنهم أخلصوا في التوحيد ووجوه الطاعة والتعبد والتنسك، ويقال: هذا طريق معبد إذا كان مذلاً بكثرة السير والوطء.

والإستعانة: طلب العون والمدد والمساعدة، والعون: الظهير على الأمر.

في سياق الآيات

بعد الإخبار الإلهي عن ملكيته لعالم الآخرة والحساب جاءت هذه الآية لإعلان الإخلاص في العبادة وهي ضرورة من ضروريات الحياة الدنيا واللجوء إلى الله تعالى.

ولما جاءت الآية السابقة بالإخبار عن الملك والقدرة المطلقة وصفات الكمال والجلال لله تعالى، جاءت هذه الآية بالخشوع والخضوع له سبحانه.

وفي الجمع بين الآيتين عدة قوانين منها :

الأول: قانون إرتقاء المسلمين في المعارف الإلهية.

الثاني: قانون إنقطاع المسلمين إلى العبادة.

الثالث: قانون التفقه في الدين وجعل موضوعية لعالم الحساب في ميادين العمل.

الرابع: قانون الإقرار بالعبودية لله تعالى .

الخامس: قانون أداء العبادة بشوق ورغبة ورجاء الثواب في الآخرة.

السادس: قانون الحرص على أداء الفرائض والمناسك في أوقاتها وعدم الإنشغال عنها بالدنيا وزينتها.

السابع: قانون تأكيد ملكية الله للحياة الدنيا أيضاً، ويقبل فيها المسلم على العبادة وإكتناز الحسنات لرجحان كفة الصالحات في ميزان الآخرة. وتفيد الصلة بين هذه الآية وآية ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾^(١)، أموراً هي: الأول: إن الله عز وجل أهل للعبادة، ولا تصح عبادة الإنسان إلا الله تعالى.

الثاني: من رحمة الله تعالى بالعباد هدايتهم لعبادته. الثالث: قانون فوز المسلمين بنعمة عبادتهم لله، ونيل الرحمة الإلهية في الدنيا والآخرة.

الرابع: من رحمة الله تعالى أن جعل المسلمين ورثة الأنبياء ، بقيامهم بعبادة الله، ودعوتهم الناس للإيمان.

الخامس: قانون عدم ذهاب العبادة وأعمال التقوى سدى. السادس: أن الله عز وجل يجزي على العبادة القليلة بالثواب الجزيل والخلود في النعيم وهو أمر لا يقدر عليه إلا الله الرحمن الرحيم. السابع: الإخبار بان الإستعانة بالله تعالى مقدمة لقضاء حوائج الدنيا والآخرة، لأنه تعالى هو الرحمن الرحيم.

الثامن: جاء ذكر الإستعانة في الآية وفيها أطراف:

الأول: المستعين.

الثاني: المستعان به.

الثالث: موضوع الإستعانة.

وقد ذكرت الآية الطرف الأول بصيغة الجمع، فكل المسلمين يستعينون بالله، كما يستعين المسلم الواحد بالله لقضاء حوائج الجماعة وهو من أسرار صيغة الجمع في الآية الكريمة وتلاوتها في الصلاة سواء بقصد القرآنية أو الدعاء، أو هما معاً.

وتدعو الجماعة للفرد منهم أو من غيرهم روي (أن الله عز وجل أوحى إلى موسى عليه السلام ادعني بلسان لم تعصني به، فقال: أني لي بذلك، فقال: ادعني بلسان غيرك)^(١).

ولم تذكر الآية موضوع الإستعانة ، والأصل هو الإطلاق وشمولها لأمر الحياة الدنيا والآخرة، وتدلل عليه الآية السابقة وما فيها من الإخبار عن ملك الله تعالى ليوم الدين والجزاء وليس من حصر لموضوع الإستعانة لأن الله تعالى هو الرحمن الرحيم الذي بيده الخير ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾^(٢).

وجاءت الآية التالية لتؤكد موضوعية الهداية في موضوع الإستعانة، فلأن الملك كله يوم القيامة لله تعالى فإن المسلمين يسألون الله عز وجل الهداية إلى سواء السبيل، والتوفيق لأداء الفرائض واجتناب المعاصي. لقد جاء أول الآية بتعريف المسلمين والناس جميعاً بمقام الربوبية لتأتي العبادة عن خشوع وخضوع، وجاءت معها الإستعانة التي تفيد التسليم والإنقياد لأمر الله وأنه سبحانه لا تستعصي عليه مسألة ، وفي التنزيل ﴿أَنْفَ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾^(٣).

إعجاز الآية

تظهر في الآية لغة القطع بتوجه العبادة إلى الله تعالى الذي بيده مقاليد الأمور، والآية شاملة لأفعال الإنسان وتعيين إجمالي لها، لأن الإستعانة سور جامع لحاجات الدنيا والآخرة. ومن الآيات إقتران الإستعانة بالله تعالى بعبادته سبحانه، وفيه بيان لموضوعية الإستعانة في مفاهيم العبودية .

(١) البحار ٢٩٠/٩٠.

(٢) سورة المائدة ١٢٠.

(٣) سورة البقرة ١٦٥.

لقد جاءت الآية بأمرين وهما عبادة الله تعالى والإستعانة به بصيغة الحصر فلا عبادة لغيره ولا إستعانة إلا به سبحانه وفيه بيان لخصائص الإيمان ، وإخلاص المسلمين في ميادين التوحيد التي لا تقف عند العبادة بل تشمل الإستعانة والرجاء والتوسل لبلوغ الغايات ، وهو شاهد على إقرار المسلمين بأن الله عز وجل قادر على كل شيء وإن ملكه يشمل الحياة الدنيا والآخرة وأنه سبحانه هو السميع البصير .

ومن إعجاز القرآن بيان السورة للصفات الحسنى لله تعالى وتوكيد ربوبيته المطلقة ثم مجيء آية العبادة والإستعانة به تعالى للإخبار عن بلوغ المسلمين مراتب التفقه في الدين ، وثقتهم بنيل ما يسعون إليه برحمة الله ، وأنهم لا يستطيعون التوفيق في أداء العبادات والمواظبة عليها إلا بعون ومدد من الله تعالى فجاءت الإستعانة مصاحبة وملازمة للعبادة .

ومن إعجاز الآية أنها تتضمن الإخبار عن مواظبة المسلمين على عبادة الله إلى يوم القيامة وعدم لجوئهم إلى غيره سبحانه ، وتدلل على قانون خلو القرآن ومبادئ الإسلام من التحريف والتغيير .

وقال النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم: صلوا كما رأيتموني أصلي^(١) لتبقى صلاة المتأخر من المسلمين كالمتقدم في موافقتها لصلاة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وكذا بالنسبة للفرائض الأخرى من الصيام والزكاة والحج .

ويمكن أن نسمي الآية آية "إياك نعبد" ولم يرد هذا اللفظ في القرآن إلا في هذه الآية الكريمة .

مفهوم الآية

من مفاهيم الآية قانون امتلاء النفس بالغبطة والسعادة بتوجهها لعبادة الله تعالى دون غيره بلحاظ أن هذه العبادة أحسن إختيار يقدم

عليه الإنسان في حياته لما يعنيه من مضامين السلامة من الشرور والكدورات الظلمانية ولأنها أفضل أنواع المعرفة وتجسيد عملي لها بالجوارح والأركان.

وفيها تأكيد لشرف منازل العبودية ، وإظهار التسليم لحال الفقر والذل الملازم له كمكن ومخلوق ضعيف لا يفارقه الإحتياج ، ويدل تأخر الإستعانة على العبادة على الفناء في ذات الله ولزوم تقديم الحاجة اليه والشكر والثناء عليه وأداء الفرائض والنوافل مقدمة لقضاء الحوائج، وفي الحديث القدسي: وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه^(١).

ومن مفاهيم الآية تأديب المسلمين وردعهم عن الإستعانة بغير الله في قضاء الحوائج من غير أن يتعارض هذا الردع مع اتخاذ الأسباب والوسائط لإنجازها ومنها تنمية ملكة التوكل على الله عندهم على نحو العموم الإستغراقي والجموعي وتبعث الآية القوة والمنعة لدى المسلمين، وتتضمن الآية في مفهومها مسائل:

الأولى : قانون إعلان المسلمين جميعاً إنقطاعهم الى عبادة الله.

الثانية: قانون إنتفاء الشرك الظاهر والخفي عند كل مسلم ومسلمة.

الثالثة: قانون حصر العبادة بالله تعالى.

الرابعة: قانون وحدة المسلمين في أسمى مسألة وهي العبادة .

فحينما جاء قانون الإعتصام بقوله تعالى ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ﴾^(٢)،

جاءت هذه الآية لتخبر عن تمسك المسلمين جميعاً بحبل الله بقيامهم بالعبادة.

الخامسة : قانون الإقرار بان القدرة والتدبير المطلق لله تعالى، والإعلان عن الإستعانة به تعالى في أمور الدين والدنيا، وتدل الإستعانة بالله في مفهومها على إنحصار النفع به سبحانه وهو وحده النافع الضار .

(١) صحيح البخاري ١٩٠/٧.

(٢) سورة آل عمران ١٠٣.

وجاء ذكر الإستعانة مطلقاً في موضوعها من غير تعيين له ، وفيه وجوه :

الأول: انه خاص بالعبادة، فان قيل ان الإستعانة تأتي قبل الفعل، وجاءت هنا بعد الإخبار عن عبادة المسلمين لله ففيه جهات :

الأولى : جاءت الآية لسؤال الله عزوجل الإعانة في المواظبة على العبادة وأداء الفرائض.

الثانية : في الآية سؤال للإنتقطاع الى العبادة وعدم انشغال القلب اثناء الصلاة إلا بذكر الله.

الثالثة : سؤال إطالة العمر والسلامة من الأمراض والآفات للتوفيق في أداء الفرائض من غير موانع.

الرابعة : قانون مصاحبة الإستعانة للعبادة، لأنها لا تتم الا بتوفيق من عند الله عز وجل.

الثاني: قانون الإستعانة بالله في أمور الدنيا، وأسباب الرزق، ودوام العافية ، وفي التنزيل ﴿قُلْ مَنْ يُرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدِيرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾^(١).

الثالث : يفيد الجمع بين العبادة والإستعانة وحصرها بالله تعالى رجاء نيل ثواب العبادة في الدنيا والآخرة.

الرابع : أخبرت الآيتان السابقتان عن ان الله تعالى هو الرحمن الرحيم وان ملك يوم القيامة له وحده سبحانه.

وجاءت هذه الآية للإستعانة بالله تعالى في نيل ثواب العبادة والفوز بالجنة يوم القيامة ليس بالعبادة وحدها، بل بفضل الله ورحمته.

الخامس: قانون إطلاق الإستعانة بالله في أمور الدين والدنيا،
والعبادات والمعاملات والأحكام.

ولا تعارض بين هذه الوجوه ، وتبين الآية لجوء المسلمين الى الله تعالى
جماعات وأفراداً ، وقرارهم بان القوة له جميعاً.
وجاءت الآية بصيغة المضارع في موضوع العبادة والإستعانة لافادة
استدامتها ، وتمسك المسلمين بها وعدم ترك أحدهما.

وتبين الآية حاجة الإنسان الى اللطف والتوفيق الإلهي وفوز المسلمين
بمعرفة حاجتهم الى الله ، وهذا المعرفة حرز من العجب والكبر والغرور،
وكما تقدمت صفات الله الحسنى على الإخبار عن العبادة والمسألة، فقد
تقدمت العبادة على الإستعانة لتكون الأخيرة صادرة من منازل العبودية
والخضوع لله تعالى ، وفيه عون لإحراز الإستجابة، ومقدمة للشكر لله
تعالى على كل نعمة من الله، ويمكن استقراء قوانين كلية في المقام منها
الكم والكيف الكبير للنعم التي تترشح من الإستعانة بالله تعالى سواء
تلك التي تأتي ابتداءً، أو التي تكون إستدامة وزيادة ونماء في النعم.
وفي الآية مسائل :

الأولى : قانون الآية حرب على مفاهيم الشرك في النفوس
والمجتمعات.

الثانية : الآية مانع من مقدمات وأسباب الكفر والضلالة .

الثالثة : فيها دعوة متصلة ودائمة للفرار الى الله .

الرابعة : قانون الآية مدد بلوغ المقاصد .

الخامسة : قانون تحقيق الرغائب بالتوحيد وحصر الإستعانة بالله تعالى
والتوكل عليه.

إفادات الآية

ليس من حد لنعم الله على الإنسان، ويتعذر إحصاؤها، قال تعالى

﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾^(١)، ومن الآيات ان يعجز العبد عن إحصاء منافع وبركات النعمة الواحدة مثل هذه الآية الكريمة ومضامينها التي تتغشى المسلمين جميعاً، ففي كل يوم يتوجه المسلمون إلى الله مرات متعددة بتلاوة ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾

ومن الشواهد على حسن منزلة وشأن المسلمين ، أنهم يرددون هذه الآية في الصلاة اليومية التي هي أم العبادة، وعمود الدين، لتوكيد حقيقة عقائدية وهي إنتفاء النفاق والرياء عن المسلمين متحدين ومتفرقين. لقد أصبحت هذه الآية جزءاً من الواقع اليومي للمسلمين، وفيه تأديب عظيم وإصلاح لأجيالهم، وتوارث للعلم والمعارف الإلهية. فأراد الله عز وجل ان يباهي الملائكة بالمسلمين وهم يتلون هذه الآية ، ومن الآيات ان تلاوتها وترديدها لا ينحصر بالمسجد وزمان مخصوص بل يشمل الدور والأسواق والمتنديات، وينسط على آفات الليل والنهار، وتتجلى في العبادة مفاهيم حب المسلمين لله تعالى ويسمى الحب الإلهي، ويترشح عن كمال المعرفة وإدراك النعم العظيمة التي أنعم الله بها على المسلمين .

فعندما قال الملائكة ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾^(٢)، جاءت بعثة الأنبياء عامة والبعثة النبوية خاصة لتكون مصداقاً لقوله تعالى ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾^(٣)، في بيان أهلية الإنسان لخلافة الأرض، بمواظبة المسلمين على العبادة وتعاهدهم لميراث النبوة، فان قال بعض من الكفار ان الأنبياء نالوا مرتبة الخلافة وبلغوا إسمى مراتب التقوى بالوحي ورؤية الآيات العقلية والحسية، وجريانها على ايديهم، قلنا بان المسلمين

(١) سورة النحل ١٨.

(٢) سورة البقرة ٣٠.

(٣) سورة البقرة ٣٠.

إنقطعوا إلى عبادة الله وأخلصوا في طاعته بتصديقهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم واتباعه وتعاهدوا عبادة الله تعالى في الأرض وحافظوا عليها، فهم بعد الأنبياء حجة على غيرهم من الناس، وداعية إلى الله بعبادتهم وإستعانتهم بالله تعالى.

الآية لطف

هذه الآية من اللطف الإلهي الظاهر والمحسوس، وهي إمام تقود المسلمين إلى منازل التقوى والصلاح، وفيها تجديد للإيمان وتذكير بوظائف العباد أزاء مقام الربوبية، وحجة على الناس جميعاً في لزوم الإنقطاع إلى عبادة الله، كما تبين عز ومنعة المسلمين بعبادته تعالى والتوكل عليه والإستعانة به سبحانه فمع العبادة أشرف الأعمال فقد جمعت معه الآية قانون الإستعانة بالله عز وجل للدلالة على إنقطاع المسلمين إلى الله تعالى في أمور الدين والدنيا، وإظهارهم الإنجذاب التام إلى مقامات الربوبية بالتحلي بمعاني العبودية المحضة.

والآية شهادة على إخلاص المسلمين في عبادتهم لله، وتوجيههم بالشكر له سبحانه على نعمة الهداية، وتبين حاجة الناس إلى القرآن في تعليمهم آداب العبودية والخضوع لله، واللجوء إليه والإستغاثة به سبحانه في المهمات .

لما جاءت الآيات السابقة بالمدح والثناء على الله تعالى وبيان صفاته الحسنى جاءت هذه الآية لتتضمن أموراً:

الأول : قانون الشكر والثناء على الله تعالى بعبادته سبحانه.

الثاني : إظهار القرآن لصفات الله الحسنى سبحانه، وأنه مالك عوالم الدنيا والآخرة.

الثالث : قانون حاجة الإنسان لعبادة الله ، فالله عز وجل هو المالك المطلق وهو غني عن الناس وعن عبادتهم فجاءت هذه الآية لتخبر عن

عبادتنا له سبحانه لحاجتنا لها في النشاطين ، وفي التنزيل ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾^(١).

وتتجلى الحاجة بإعلان الإستعانة بالله سبحانه دون غيره، وهذه الإستعانة مقدمة للإخلاص في العبادة واستدامتها لأنها تدل بالدلالة التضمنية على عدم الخضوع أو الخشوع لغير الله تعالى، لأن الخضوع لغيره قد يكون برزخاً دون العبادة والصدق فيها.

وهذا المعنى من أسرار الملازمة بين العبادة والإستعانة وفيه شاهد على أن الله عزوجل عند حسن ظن المسلمين في الإستعانة به فهو الرحمن الرحيم مالك يوم الدين، وينال المستعين به كل خير ، ويكون في سعادة وغبطة.

لقد أراد الله تعالى للمسلم عبادته بشوق ورغبة وعدم وجود موانع تحول دون أدائه الفرائض والمناسك فجاء سؤال الإستعانة بالله والإخبار عنه شاهداً على بلوغ المسلمين مراتب المعرفة الإلهية، ويأسهم مما في أيدي الناس، وتوجههم إلى الله تعالى وهو الغني الحميد.

من غايات الآية

لقد جمعت الآية بين أمرين بين عبادة المسلمين لله والإستعانة به سبحانه، وقدمت العبادة لأنها الأصل، وبين العبادة والإستعانة بالله عموم وخصوص مطلق فكل إستعانة هي عبادة لأنها تأتي بالإقرار بالعبودية لله والإعتراف بأن مقاليد الأمور بيده سبحانه، ولذا قدمت العبادة على الإستعانة، لتدل الإستعانة على التفاني المحض في عبادة الله تعالى ونيل رضاه تعالى، ولتكون الإستعانة عنواناً للدعاء والمسألة وباباً لنيل الأجر والثواب.

وفي الآية دعوة إلى الله تعالى بالحكمة والموعظة الحسنة، وتخبر هذه الآية عن تقيد المسلمين بأحكامها وهي رسالة سماوية وأرضية إلى الناس جميعاً إذ أنها تؤكد تعاهد المسلمين لمصاديق الآية في الواقع العملي، لتكون ومصادقها الخارجي حرباً على الكفر، وحجة على الكافرين، ودعوة لهم للتوبة والإنابة.

وفي الآية إخبار للمسلمين بوظائفهم العبادية وحينما يصبح الصبي والصبية من المسلمين قادرين على تمييز الكلام والفعل يسمعان هذه الآية ويدركان أن آباءهم وأمهاتهم يتوجهون إلى الله تعالى كل يوم بتلاوتها في الصلاة فتترسخ في أذهانهم منطوقاً ومفهوماً، ويتلقونها كتركة مباركة عظيمة تنفعهم في الدنيا والآخرة.

واذ يتفاوت المسلمون فيما يتركونه لأولادهم وورثتهم من بعدهم من الأموال، فإنهم يشتركون في أعظم وأحسن تركة في تاريخ الإنسانية وهي عبادة الله والاستعانة به، وتلك التركة تنفع الوارث والمورث ومن يأتي بعدهما في الدنيا والآخرة، ولا تكون سبباً للخصومة والشقاق والفتنة، بل بالعكس تكون سبباً لإستدامة الأخوة، ومعاني المحبة والعدل بين المسلمين، قال تعالى ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾^(١).



التفسير

العبادة خضوع للمعبود وانقياد ينبئ عن الذل والإستكانة الناشئة من الإعتقاد بجلال عظمة المعبود وكمال مقامه، والعبادة وظيفة كل انسان والسر الكامن في خلقه والذي يركز عليه نوع المنزلة التي ينالها في الآخرة قال تعالى ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾^(١).

فحددت هذه الوثيقة الإلهية الخالدة مسار عمل الإنسان والجنان في الحياة الدنيا والماهية التسخيرية في أصل هيئة الخلق ووجود الإستعداد الفطري للإنتقهار والإنجذاب لمقام الباري عز وجل.

ولقد تفضل الله عز وجل مرة أخرى فبعث الأنبياء داعين الى عبادة الله قال تعالى ﴿وَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾^(٢)، وتحمل الأنبياء والمرسلون المشاق الكثيرة وقاتل عدد منهم سبيل الله ، قال تعالى ﴿وَكَانَ مِنْ نَبِيِّ قَاتِلَ مَعَهُ رَبِّيُونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾^(٣) (٤)، ولكنهم لم يحققوا مثل الذي ناله النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم من التوفيق والكرامة وأسباب الهداية لأمته.

لقد أعلن المسلمون ومن غير تردد اقبالهم الصادق على عبادة الله عز وجل وحصر العبادة به تعالى دون غيره وظهروا الثبات الدائم على الإخلاص في العبودية بتلاوة هذه الآية وذكرها في الصلاة اليومية وفرائضها الخمسة.

إنها إقرار بالرق والعبودية وإستكانة ظاهرة ومقدمة لسؤال

(١) سورة الذاريات ٥٦.

(٢) سورة النحل ٣٦.

(٣) سورة آل عمران ١٤٦.

(٤) انظر الجزء الرابع عشر بعد المائة من هذا السفر الخاص بتفسير هذه الآية .

الحوائج وسبيل لإنجاحها، فالعبادة مطلوبة من الناس طلباً لازماً، كما وأن التذلل لله تعالى وإعلان الخضوع المطلق لمقام الربوبية سبيل لارتقاء منازل العز والرفعة في الدارين، فانت ترى أن الإسراء جاء بعنوان العبودية، قال تعالى ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى﴾^(١) لبيان منافع العبودية وضرورة إظهار آدابها والإفتخار بملازمة وجوها في مختلف الميادين كدروس في الإيمان ولسان في التوحيد ومفاهيمه العرفانية.

قال النبي محمد صلى الله عليه وسلم: (إتخذني الله عبداً قبل أن يتخذني نبياً)^(٢)، مما يدل على موضوعية العبادة في سلم الكمالات الإنسانية ولعل ما ورد في تسمية الصلاة بانها معراج المؤمن جاء لما تحمله من مضامين العبودية وعناوين الطاعة والخضوع والذل بين يدي الباري عز وجل.

بين العبادة والطاعة

وقيل ان العبادة هي الطاعة للمعبود ولكن العبادة أعظم وأعم، وقد تكون الطاعة من قبل الابن لأبيه في أوامره من غير ان تكون عبادة له، كما يطيع العبد مولاه ولا يكون عابداً له بل يشتركان معاً في عبادة الخالق وطاعته، ويقف الأب وابنه، والسيد والعبد معاً في الصلاة خاضعين خاشعين لله عز وجل، وعبادة الكفار للأصنام ونحوها مما لا يتصور صدور الأوامر من قبلها امر ساقط عن الاعتبار لأنه فعل جهالة وضلالة، فبين العبادة والطاعة عموم وخصوص من وجه وهي النسبة التي تكون بين المفهومين اللذين يلتقيان في بعض المصاديق المشتركة بينهما ويفترقان في مصاديق اخرى يختص كل منهما ببعض منها.

مادة الإلتقاء الإنصياع والإستجابة ، ومادة الإفتراق العبودية

(١) سورة الإسراء ١.

(٢) تاريخ مدينة دمشق ٧٦/٤.

المطلقة في العبادة والتبعية التكليفية المقيدة في الطاعة ويمكن القول أن النسبة بينهما هي العموم والخصوص المطلق بلحاظ أن الطاعة فرع العبادة ومصادق لها.

ولا تختص العبودية لله بالإنسان فقط ، قال تعالى ﴿إِنَّ كُلَّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾^(١) ولكن الإنسان لشرف عنصريه ولما رزقه الله من عقل وما أكرمه به من بين المخلوقات الى جانب ما تحمله من اعباء الأمانة والخلافة في الأرض يجب ان يبادر إلى إظهار معالم العبودية على ظهر الأرض واثناء ايام الحياة وينصب نفسه في منزلة الذل والخضوع والمملوكية لله عز وجل بعيداً عن روح الإستكبار عن عبادته تعالى.

قانون إخلاص العبادة

يتجلى الإخلاص في العبودية بالعمل بما ينافي مظاهر الشرك ومقدماته ، وفي حديث للإمام علي عليه السلام قال: وبالإخلاص يكون الخلاص"^(٢).

لقد تضمنت الآيات السابقة مدحاً وثناء لله عز وجل وإقراراً بعظمة سلطانه في دار الحياة الدنيا وفي الآخرة وربوبيته المطلقة ولوهيته لكل ما في السماوات والأرض وحتمية الرجوع اليه والوقوف بين يديه للحساب في يوم عصيب لا ينفع فيه مال ولا بنون إلا من جاء متوقياً بالعبادة والطاعة لتأتي هذه الآية بياناً لوظيفة الإنسان ضمن مقام العبودية، وعبرة عن الإتيان بالفعل المجدد لها واقعياً.

ليمثل مرتبة متقدمة في الكمال ودرجة في منازل السالكين سبل الإرتقاء في ميادين العقيدة ، ومنها كان الإلتفات^(٣)، في هذه الآية من

(١) سورة مريم ٩٣.

(٢) الوسائل ١٠/١ طبعة حجرية.

(٣) الإلتفات : اصطلاح بلاغي يراد به الإنتقال في أحوال الكلام ومن بعضها إلى

الغنية الى الخطاب لإقتراب القلب والروح إلى منازل الحضور وأبواب التوجه الى الله، وهي إعلان عملي للإعتراف بآلوهيته تعالى وسعي في دروب الطاعة فجاء التصريح بالعبادة بعد تمجيده تعالى كتأخر المعلول عن علته وستبقى تلاوة هذه الآية عنواناً للعلم بقانون وجوب الخضوع والإنقياد لأوامر الله تعالى والإنقطاع اليه حباً وشوقاً .

قال الإمام جعفر الصادق عليه السلام: "ان الناس يعبدون الله عز وجل على ثلاثة أوجه فطبقة يعبدونه رغبة في ثوابه فتلك عبادة الحرصاء وهو الطمع، وآخرون يعبدونه خوفاً من النار فتلك عبادة العبيد وهي الرهبة، ولكني اعبدته حباً له عز وجل فتلك عبادة الكرام وهي الأمن لقوله عز وجل ﴿وَهُمْ مِنْ فَتْحِ يَوْمٍ إِذِ امْنُونُ﴾^(١).

ولقوله عز وجل ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾^(٢).

فمن أحب الله عز وجل أحبه الله تعالى ومن أحبه الله كان من المؤمنين^(٣).

وقد ورد عن الإمام علي عليه السلام بيان لمضمون العبادة وكشف لأسرارها حيث قال : ما عبدتك خوفاً من نارك، ولا طمعاً في جنتك، بل

بعضها الآخر وهي التكلم، والخطاب والغنية لمقتضيات وأسباب ومناسبات تعكس حكمة في الموضوع أو تفتننا في الخطاب أو أسراراً في الكلام وتعدداً في المقاصد.

إلى جانب منافع أخرى منها عدم التزام حالة واحدة ولكي يدفع الملل، وللعمل على الإتيان والزيادة في الإصغاء مع ما في الجديد من لطف ولذة، وصور العدول إلى الالتفات ستة : **أحداها** العدول من الغنية الى الخطاب كما في المقام، ومن أمثلته أيضاً قوله تعالى ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَآئِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ﴾ سورة البقرة ٨٣.

(١) سورة النمل ٨٩.

(٢) سورة آل عمران ٣١.

(٣) الوسائل ١٠/٢ طبعة حجرية.

وجدتك أهلاً للعبادة فعبدتك".

أي ان العبادة لله واجب على الإنسان للزومها بالإستحقاق ، وهي ليست مترشحة عن العناوين الإعتبارية الزائدة التي جعلها الله عز وجل ثواباً أو عقاباً.

ولا يعني هذا الحديث خطأ اختيار العبادة خوفاً من النار او طمعاً في الجنة إذا كان عن إعتراف بان الله عز وجل بيده مقاليد الأمور بل فيه أمران:

الأول : العبادة على مراتب وفضلها ما كانت إقراراً بالربوبية وحباً لله عز وجل.

الثاني : قانون النهي عن جعل الخوف من النار علة تامة للعبادة ، او الطمع بدخول الجنة هو السبب الوحيد والمقتضي للعبادة .

قانون الشكر فرع التقوى

لقد جاء النص في القرآن بالأمر بالعبادة لله عز وجل قال تعالى ﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِيَّ وَأَسِعَةَ فَإِيَّايَ فَاَعْبُدُونِ﴾ (١) وغيرها من الآيات ، جاء الندب والأمر إلى العبادة على لسان الأنبياء والمرسلين في مواطن كثيرة من القرآن منها ما ورد في قوله تعالى ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ (٢) وورد نظير هذه الآية الكريمة في نبي الله هود مع قومه عاد ، وصالح عليه السلام مع قومه ثمود ، وشعيب عليه السلام مع قومه مدين (٣).

أما هذه الآية فجاءت ضرباً من الشكر وإقراراً بالخضوع وإعترافاً

(١) سورة العنكبوت ٥٦.

(٢) سورة الاعراف ٥٩.

(٣) انظر الآيات ٦٥ ، ٧٣ ، ٨٥ من سورة الاعراف.

بأصول النعم من واهب الحياة والخلق وأسباب القدرة والسعي، انها توجه إختياري من أهل الإسلام وباوهم القلوب وأفعال الأركان وهو وجه من وجوه الإخلاص في العبادة وعشق في إنقياد ورضا بمقام العبودية وإستثمار صحيح لملكة العقل وحسن توظيف للإرادة.

وقال ابن القيم: ان الفاتحة خلاصة القرآن ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ خلاصة الفاتحة.

ولكن يمكن إنشاء قانون وهو كل آية من آيات القرآن كيان وكنز عقائدي وعلمي قائم بذاته ليس له بديل او عوض، وان لغة (الخلاصة) لا وجود لها في القرآن لأنه جامع للإرادة التكوينية والتشريعية وقصص الأمم السالفة واشراقات المستقبل والوعد والوعيد، والمطلق والمقيد، والمجمل والمبين، وهو المحدد في كلماته المحيط بالامحدود، بالإضافة الى تفسير آيات القرآن بعضها لبعض، وكل آية شاهد على صدق نزول الآية الأخرى من عند الله تعالى.

وقالوا ان الإستعانة هي التوكل، ولكن بينهما عموم وخصوص مطلق فكل توكل هو استعانة وليس العكس لذا ترى التوكل لم يرد في القرآن الا بالله عزوجل وفي آيات كثيرة، بينما جاءت الإستعانة بالله عزوجل ووجوب عبادته وكواسطة ووسيلة للتقرب إليه سبحانه، قال تعالى ﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾^(١).

وآية البحث من مصاديق الشكر لله عز وجل بالقول والفعل، وهو أمانة على التقوى والخشية من الله.



قانون تسخير العقل للتوحيد

ورد عن الإمام محمد الباقر عليه السلام قال : لما خلق الله العقل استنطقه ثم قال له: اقبل فاقبل، ثم قال له: ادبر فادبر، ثم قال: وعزتي وجلالي ما خلقت خلقاً هو أحب إليّ منك، ولا اكملتك إلا فيمن أحب، أما اني إياك أمر وإياك انهى وإياك أعاقب وإياك أثيب^(١).

فمع نعمة العقل جاءت الفرائض والتي سميت تكليفاً لما فيها من المشقة والعناء، لتكون شكراً على التشريف بالعقل الذي يكون مادة للإرتقاء واقتناء ما هو حسن ونيل الوصف بالمدح.

ان تقديم إياك في الآية الكريمة ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ للعناية بأمر العبادة والتنبيه اليها وتوكيدها باقرار ثابت ودائم، وان تقديم المفعول وإطلاق العبادة يفيد إختصاص وحصر العبادة بالله تعالى وعليه إجماع وإتفاق الملمين، ويتفق أهل البيان في الجملة على إفادة تقديم المفعول الحصر سواء كان مفعولاً او ظرفاً وأفضل مصاديقه ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ معناه نقصدك ونخلصك بالعبادة والاستعانة.

ومنهم من قال (انما أخرت الاستعانة لاجل فواصل السورة)^(٢). ولكن ترتيب ألفاظ القرآن أعم من فواصل الآيات، فلا بد ان الدلالات والمضامين والعلوم لهذا التأخير تتعدى الوجه البلاغي وان كانت بلاغة القرآن إعجازاً مستديماً.

والإستدلال على الحصر لا ينحصر بعلوم اللغة والبلاغة بل ان موضوع العبادة هو الذي يصلح دليلاً لتثيت علوم اللغة وأحكام البلاغة ووجوه البديع والبيان، هو من إعجاز القرآن لأن حجته ذاتية وغيرية، بمعنى أنه حجة لإثبات سماويته ولتثيت العلوم والكتب الأخرى.

قانون تعدد العبادة والاستعانة

(١) الوسائل ٧/١.

(٢) الزركشي / البرهان في علوم القرآن ١/ ٦٣.

لقد جعل الله عز وجل العبادة علة خلق الناس ، والنسبة بين العبادة والإستعانة عموم وخصوص مطلق ، فالعبادة أعم .
ومن مادة الإلتقاء بينهما قانون وجوب كل من العبادة والإستعانة بالله على المكلفين .

والعبادة ليست اختيارية بل لها قواعد وقوانين وانظمة ومنها الصلاة اليومية ، قال تعالى ﴿ أَقِمِ الصَّلَاةَ لَدُلُوكَ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴾^(١).

ولم تقل الآية (إياك نعبد ونستعين) بل تكرر فيها لفظ إياك، وفيه مسائل:

الأولى : قانون تأكيد التعدد والإختلاف بين العبادة والإستعانة.
الثانية : العبادة أمر بين العبد والله عز وجل ، أما الإستعانة فتشمل أمور الدنيا والآخرة.

الثالثة : للعبادة أوقات وأماكن مخصوصة، كما في أوقات الصلاة اليومية ، وإستيعاب الصيام الواجب لشهر رمضان، وأداء مناسك الحج عند البيت الحرام وفي عرفة ومنى والسعي بين الصفا والمروة ، قال تعالى ﴿ فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوا كَمَا هَدَاكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الضَّالِّينَ ﴾^(٢).

أما بالنسبة للإستعانة فتتعلق بعالم الأفعال والأقوال والمكاسب مطلقاً ، وبالأمر الوجودي والعدمي .

الرابعة : لما ورد قوله تعالى (إياك نعبد) تعقبه قوله تعالى (إياك نستعين) للتوفيق في أداء العبادات وتهيئة مقدماتها، وإزاحة الموانع التي قد تحول دونها.

(١) سورة الاسراء ٧٨.

(٢) سورة البقرة ١٩٨.

فيحتاج أداء الصيام الصحة والسلامة من الأمراض ، قال تعالى ﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾^(١)، ويشترط لأداء الحج الإستطاعة في الزاد والراحلة ، قال تعالى ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾^(٢).

ليكون من منافع (إياك نستعين) في باب العبادة سؤال الصحة والسلامة من الأمراض لأداء الصيام في شهر رمضان، والسعة والغنى لأداء فريضة الحج، ومن رحمة الله أن رزقه لا ينحصر بموضوع السؤال، أي أنه تعالى يرزق المسلم والمسلمة الصحة التي تعينهما على أمور الحياة، وتكون سببا في طول العمر، ويرزقهما السعة والنماء في المال لأداء الحج والعبادة في العيش.

بحث كلامي

الآية مدرسة في علم الكلام والفلسفة الإلهية وتتضمن المبادئ الأولية لتقسيم الوجود الى واجب وممكن وحاجة الممكن الى الدائم وعدم استغنائه بذاته ولذاته ، قال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾^(٣).

وتمنع الإنسان من الغرور والتعدي والظلم، وفيها بيان لماهية الصلة بين العبد والخالق وهي الخضوع التام غير المقيد بوصف او شرط او رجاء نفع او دفع ضرر، أي بشرط لا، واننا نعبد الله سبحانه لأنه رب العالمين المستحق للعبادة.

لذا ابتداء نظم القرآن بعد البسملة بقوله تعالى ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ

(١) سورة البقرة ١٨٤.

(٢) سورة آل عمران ٩٧.

(٣) سورة فاطر ١٥.

وفي الآية مسائل :

الأولى : قانون الآية سور عقائدي لأنماط العبادة ، وضروب الفرائض

الثانية : قانون شاهد على إتيان الجوارح والأركان لمسؤوليات
العبودية.

الثالثة : قانون الآية عون على الإجتهد بالطاعة.

الرابعة : قانون ملازمة قصد القربة في الصالحات ، وفي التنزيل ﴿هُوَ

الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (٢).

وللغة الخطاب في الآية مدلولات كثيرة منها :

الأول : قانون تجديد الإيمان.

الثاني : قانون الثبات على الإسلام.

الثالث : قانون إعطاء الميثاق على أداء الفرائض.

والآية تصريح وإقرار بان الله عز وجل معنا يسمع الكلام ويرى
الأفعال وان الحضور في حضرة القدس متحقق ساعة العبادة للغة
الخطاب في الآية ، فلم تقل الآية (اياه نعبد) بل قالت ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ (٣) ، لبيان
قرب الله عز وجل منا وسماعه النجوى والدعاء والتضرع والشكوى.

وقد ورد الضمير اياه في آيات عبادة أيضاً منها ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا

مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ (٤).

وقد ورد (عن مطر بن عكاس قال : قال رسول الله صلى الله عليه

(١) سورة الفاتحة ٢.

(٢) سورة غافر ٦٥.

(٣) سورة الفاتحة ٥.

(٤) سورة البقرة ١٧٢.

وسلم : إذا قضى الله لرجل أن يموت بأرض جعل له إليها حاجة .
وأخرج أحمد عن عامر أو أبي عامر أو أبي مالك : أن النبي صلى
الله عليه وسلم بينما هو جالس في مجلس فيه أصحابه ، جاءه جبريل عليه
السلام في غير صورته ، فحسبه رجلاً من المسلمين ، فسلم فرد عليه
السلام ، ثم وضع يده على ركبتي النبي صلى الله عليه وسلم وقال له : يا
رسول الله ما الإسلام؟ قال : أن تسلم وجهك لله ، وتشهد أن لا إله إلا
الله وأن محمداً عبده ورسوله ، وتقيم الصلاة ، وتؤتي الزكاة قال : فإذا
فعلت ذلك فقد أسلمت .

قال : نعم . قال : ما الإيمان؟ قال : أن تؤمن بالله ، واليوم الآخر ،
والملائكة ، والكتاب ، والنبين ، والموت ، والحياة بعد الموت ، والجنة
والنار ، والحساب والميزان ، والقدر خيره وشره . قال : فإذا فعلت ذلك
فقد آمنت قال : نعم .

ثم قال : ما الإحسان؟ قال : أن تعبد الله كأنك تراه فإن كنت لا تراه
فهو يراك قال : فإذا فعلت ذلك فقد أحسنت .

قال : نعم . قال : فمتى الساعة يا رسول الله؟ فقال رسول الله صلى
الله عليه وسلم : سبحان الله خمس لا يعلمها إلا الله ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ
السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا
تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾^(١) (٢) .
مطر بن عكامس السلمي (يعد في الكوفيين .

قال بن حبان : له صحبة وقال الطبراني : اختلف في صحبته . وقال
عثمان الدارمي : سألت يحيى بن معين عن مطر : ألقى رسول الله صلى
الله عليه وسلم فقال : لا أعلمه^(٣) .

(١) سورة لقمان ٣٤ .

(٢) الدر المنثور ١٠٠/٨ .

(٣) الاصابة في معرفة الصحابة ٩٦/٣ .

والمشهور والمختار أنه لم يلق النبي محمداً صلى الله عليه وآله وسلم. وصحيح أن العبادة لغة هي الخضوع إلا أنها عقلاً وشرعاً واصطلاحاً مرتبة متقدمة على الخضوع ومفاهيمه ، وتتضمن الإقرار بالمملوكية لله عز وجل والإستسلام لإرادته تعالى، والإنقياد المطلق فكراً وعملاً لمشيئته تعالى والإعتراف بأنه الخالق الدائم الباقي الذي إليه يكون الرجوع ويده ملكوت السماوات والأرض، وبأمره يتحدد مصير الإنسان إلى الجنة أو إلى النار، بالإضافة إلى قصر مدة أيام الإنسان في الحياة الدنيا الأمر الذي يضغط عليه بالحاح في وجوب مباشرة العبادة وإتصالها وظهور آثارها على مجمل سلوك الإنسان ليكون بياناً لمعاملها ولسان شهادة في الدارين.

وفي تأريخ الصحابة وأهل البيت والتابعين شواهد كثيرة على الإقبال على العبادة وهي مدرسة عقائدية في الإنقطاع الى الملك المعبود بعد إدراك عائدة جميع الأسباب والوسائط إلى الله تعالى بحسب سلسلة العلل والمعلولات.

وجعل الله عز وجل أدنى مراتب هذه المعرفة تدرك بالعقل وكلمها تقدم الإنسان في ميادين الكسب وصناعة الجدل والكلام فانه يزداد إيماناً و يقيناً.

قانون العبادة سياحة في عالم الملكوت

يزخر التأريخ الإسلامي بمسالك ومصاديق التقوى والإنقطاع إلى العبادة لتكون سيرة الأولياء حجة في لزوم عبادة الله وعدم التفريط في أداء الفرائض من الصلاة والزكاة والحج والصيام والخمس لتشمل العبادة البدن والمال وتنفذ الى الأركان وتدهن النفس بطلاء الإخلاص والتسليم والإمثال في الأحكام الشرعية.

إن قوله تعالى ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ ثورة عارمة ضد الوثنية تحمل سمات الثبات وآيات الدوام اذ هدمت صروح الكفر ومعالم الفكر الوثني بالتوجه العام للجماعات في عبادتها لله عز وجل واعراضها عن غيره،

وهجران الأمم والشعوب لما كان راسخاً من عقائد الشرك واوهام الضلالة.

وقد ورد عن تفسير الإمام : قال الله تعالى: قولوا يا ايها الخلق المنعم عليهم اياك نعبد ايتها المنعم علينا نطيعك مخلصين موحدين مع التذلل والخضوع بلا رياء وسمعة".

ان رائحة الصدق وعبير الإخلاص يفوح من أركان الناطقين بالآية وترددها السماوات والأرض بزهو وافتخار مع القراء لتمتلاً الآفاق بمظاهر العبودية والخضوع لله عز وجل وهو صاحب الفضل والهادي الى هذا السبيل من الرشاد ، وتوظيف البصيرة.

روي عن الإمام الصادق عليه السلام انه قال: في ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ لا نريد منك غيرك ولا نعبدك بالعوض والبدل كما يعبدك الجاهلون بك المغيرون عنك.

إن إعلان العبودية التجاء الى الله عز وجل وسياحة في مواطن التقوى وتوسل ورجاء الأمن لما فيه من خلع لرداء الإستكبار، عن عبد الله بن سنان عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام قال: "قال الخواريون لعيسى بن مريم: يا معلم الخير أعلمنا أي الأشياء أشد؟ فقال: أشد الأشياء غضب الله عز وجل.

قالوا: فبم يتقى غضب الله؟ قال: بان لا تغضبوا، قالوا: وما به الغضب؟ قال: الكبر والتجبر ومحقرة الناس^(١).

لقد جاء الإقرار بالعبودية بلغة الخطاب والخضوع رمزاً للوعي بحقائق التكوين وكأن التدرج يقود الى مقام العلم واليقين بعد طرد الغفلة، وإلى العيان والحضور بعد الغيبة على عادة العرب وقواعد الفصاحة والبلاغة عندهم.

قال ليلى بن ربيعة صاحب احدى القصائد السبعة الجاهليات واللاتي

سميت فيما بعد بالمعلقات :

باتت تشكي الي النفس مجهشة

وقد حملتك سبعا بعد سبعينا^(١)

بحث عرفاني

تتجلى في لغة الخطاب في الآية صيغة في الجد والإجتهد ، وقانون الإرادة المخلصة في التوحيد وقانون البراءة من الشرك وقانون تقديم ما هو مقدم في الوجود ، وقانون الشهادة على معرفة الخالق تعين على تحمل النفس والجوارح لأعباء العبودية وثقل التكاليف.

أما قوله تعالى ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَعِينُ﴾ فقد جاء بعد ان قدمت العبادة بحسب ترتيبها المتقدم في الوجود كوجوب في أصل الخلق والتكوين ، واتخذت وسيلة ضرورية على الحاجات وتيسير الأمور بعد الإقرار بالربوبية وخضوع جميع الأشياء لمشيئته تعالى وانقيادها لحكمه. والآية الكريمة عنوان للشقة المطلقة بقدرة الله تعالى وسلامة الركون إلى التوكل عليه فهو الذي يهدي إلى عمل الصالحات.

واختيار سبل العبادة وأفعالها يحتاج إلى توفيق منه فهو الذي يبعث في الإنسان القدرة والطاقة والإرادة حالاً بعد حال، قال تعالى ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾^(٢).

كما يحتاج أداء مناسك العبادة المستأنفة إلى إعانة ومدد من الله تعالى. لقد جاءت لغة الإستعانة بعد المعرفة وصدق العبودية ورؤية آثار وفيض النعم وعظيم آلاء الله تعالى على الذات الإنسانية والخلائق فكان طلب التمكين وعزيمة الرشاد نتيجة علمية وسؤالاً مهذباً. وفي الخبر لما قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: "أنا بك كان الجواب

(١)العقد الفريد ١/١١٥.

(٢) سورة الاسراء ٩ .

له: إن كنت بي فأنا لك"، فان الباء واللام متعاقبان فعرج به إلى المنازل الرفيعة والمراتب العالية حيث توقفت عنده علوم غيره من البشر وصار في مكان الدنو والإقتراب ليفوز بمناجاة العزة والكبرياء بفضل منه تعالى على نبيه وعلينا معاشر المسلمين، لذا فان الإستعانة باب للإقتراب من رحمته وسعي لنيل الفيض الإلهي، وبلوغ مقام الكمال ومدخل كريم للدعاء ومظنة للإستجابة.

بعد بيان عظمة وسلطان الباري عز وجل وامتزاج جبروته برحمته والإقرار بالخضوع التام لمقام عزه جاءت هذه الآية المباركة إعتراضاً بالعجز والذلة والمشقة بلغة الجمع لأن الحاجة إلى الإستعانة بالله تعالى سور يضم كل الخلائق، بالإضافة إلى ما فيها من بيان وأهمية لموضوع التوكل. وفي الآية الكريمة مضامين وإفاضات ملكوتية يصعب الوقوف على أبعادها، فبعد إعلان الذل والانقياد الواجب والخضوع والتسليم لإرادته تعالى ظهرت أمارات الحب على العبد بالتفويض والإلتجاء المطلق. وعن الإمام علي عليه السلام (إن من أحب عباد الله إليه عبدا أعانه الله على نفسه فاستشعر الحزن ، وتجلبب الخوف، فزهر مصباح الهدى في قلبه... الحديث)^(١).

فمن أسباب الإعانة قهر النفس الأمارة بالسوء ومنعها من القبائح وإصلاحها للطاعات وفعل الخيرات وإستثمار العقل في مسالك الحياة اليومية ودروبها المتداخلة خاصة في هذا الزمان الذي تزاومت فيه الأفكار والآراء في مختلف جوانب الميادين، ولم تستطع مدارك الإنسان أن تبقى في إطار الأسرة والمنزل.

كما وأن بيئة الإنسان ذات التأثير الكبير في سلوكه أخذت أبعاداً واسعة جديدة وآفاقاً عالمية ذات منحنيات متشعبة في الإنشطار دائبة لتصبح المسارعة إلى الإستعانة بالله ضرورة يومية ملحة وسبيل نجاة وسلاحاً وقائياً وعملاً إحترازياً ملازماً على الدوام لصفة العبودية التي يجب أن

تكون صبغة لمجموع أعمال الإنسان وعدم إنحصارها بالفرائض والطاعات ولا تختص بأوان العبادة وأماكنها، وإن كانت العبادة ذاتاً وأداءً تحتاج إلى الإستعانة.

وظائف الواو في آية البحث

من وظائف الواو التي وردت في الآية :

الأولى : عطف ما تتضمنه العبادة على الإستعانة بلحاظ أن المعطوف تتعلق به مزية خاصة، أي أننا نطلب منك الإعانة على عبادتك والتوفيق إلى أدائها على الوجوه المناسبة، وما يوافق شعورنا كعبيد بما يستحقه مقام الربوبية من مراتب العبادة والنسك.

الثانية : الواو حالية، أي نعبدك مستعينين بك.

الثالثة : تكون الواو لعطف الشيء على مرادفه فالإستعانة باعتبارها توكلًا وتفويضاً هي أيضاً وجه من وجوه الهداية والعبادة، وصحيح أن العبادة لا يرقى إلى مستواها أي فعل آخر وان اجتمعت منه أفراد كثيرة إلا أنه يمكن النظر بالمعنى الأعم لتكون من الكليات المشككة فتدخل الإستعانة فيه وإن كانت من العبادة الواجبة وفرائضها.

الرابعة : العطف التلفيقي: فبعد العبادة وصدورها بلغة الخطاب والإستحقاق لابد وان يأتي طلب التمكين وسؤال الرشاد والسداد.

الخامسة : عطف ما تضمنه الأول أو جزء منه دلالة خاصة نحو ﴿حَافِظُوا عَلَيَّ الصَّلَواتِ وَالصَّلَاةِ الوُسْطَى﴾^(١) بلحاظ أن الإستعانة شعبة من شعب العبادة وفروعها.

فمن إعجاز القرآن أن مفردات الإستعانة ذكرت في القرآن ست مرات: أربعاً منها إستعانة بالله عز وجل، ومرتين جاءت الإستعانة بضربين من العبادة وهما أسمى مراتب العبادة، ومنه قوله تعالى

﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾^(١).

السادسة : روي في الكافي والفقيه وتفسير العياشي عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام : إن قوله تعالى ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ﴾ يعني الصيام.

ذخائر لغة الجمع في الآية

لما توجه المسلمون إلى الله عز وجل مستعينين به على حوائج الدنيا والآخرة فإنه هداهم إلى عبادته بالفرائض وقانون منافع الصلاة والصوم الدنيوية والأخروية والأبواب الكثيرة التي تفتح بها. ولتسلط أضواء على عطف الإستعانة على العبادة في الآية الكريمة من سورة الفاتحة القرآن يفسر بعضه بعضاً مما يؤكد أن عبادة الله سبحانه إستعانة به تعالى وأن الإستعانة من ثمراتها فإن الله عز وجل يتكفل شؤون وحاجات المتنسك ويكفي من يلتزم بأداء الفرائض ويقدمها على تلك الحاجات والمشاكل اليومية الأخرى مما يتعلق بالمعاش ونحوه. ولو إنكشف الغطاء لرأى العبد ما دفع الله عنه من البلايا بالصلاة وما صرف عنه من الأسقام بالصيام لما فرط الإنسان في مناسك العبادة، ولبالغ في الحرص على أداء النوافل منها، ولكن قانون الستر والإمهال جزء من اللطف ومقومات الإمتحان باعتبار ملاك الحياة الدنيا وهو وجه من وجوه الرأفة.

عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام قال : في التوراة مكتوب يا ابن آدم تفرغ لعبادتي أملأ قلبك غنى ولا أكلك إلى طلبك وعلي أن أسد فافتك وأملأ قلبك خوفاً مني، وإلا تفرغ لعبادتي أملأ قلبك شغلاً بالدنيا ثم لا أسد فافتك وأكلك إلى طلبك^(٢).

لقد جاءت الآية بلغة الجمع (نعبد)، ولغة الجماعة أقرب للإستجابة وأكثر بياناً وصيغة في التأديب ضمن مقامات السالكين دروب الهدى

(١) سورة البقرة ١٥٣.

(٢) الكافي الكليني ١٢٦/٢.

وفيهما تعبير عن النفس والآخرين من الأهل والأقربين بل المسلمين جميعاً، ويبدو ما فيها من إشراقة بالقراءة في صلاة الجماعة وفيها تلقين للآخرين وتعليم لهم وزيادة في العلم يفيض المسلمون بعضهم على البعض الآخر بها وبآيات القرآن والأوقات اليومية المتكررة لقراءتها من غير أن يتسرب الحرج إلى الصدور، ولغة الجماعة تعين الفرد على الإقبال على وظيفته ضمن المسلك العام لجماعته.

التفسير بالتقدير

يكون تقدير الآية على وجوه :

الأول : إياك نعبد لا نعبد سواك.

الثاني : إياك نعبد في شهادة منا على التنزه عن الشرك.

الثالث : إياك نعبد وحدك سبحانه ، وفي التنزيل ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا

وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾^(١).

الرابع : إياك نعبد فاهدنا للإستعانة بك .

الخامس : إياك نستعين في الإعانة على التوفيق لعبادتك.

السادس : اللهم اشهد أننا إياك نعبد وإياك نستعين .

السابع : إياك نعبد وإياك نستعين مجتمعين ومتفرقين .

الثامن : إياك نعبد وفق ما أمرتنا وإياك نستعين في حوائج الدنيا

والآخرة.

التاسع : إياك نعبد وإياك نستعين اقتداء برسولك الكريم محمد.

العاشر : إياك نعبد وإياك نستعين حتى نفارق الدنيا.

قانون الآية تأديب

تكون الآية الكريمة باب تأديب وسبيل هداية يلزم المسلم في واقعه ومحيطه منذ نعومة أظفاره فيشب مدركاً لحقيقة شمولية خالدة وهي أن لا يعبد إلا الله ولا يستعين إلا به تعالى.

وعليه أن يجعل نظام حياته وأحواله المختلفة منقاداً إلى عالم التوحيد ومرتبطة بأحكام الشريعة في تأثير إيجابي متبادل مع مجتمعه في ذات المفاهيم والقيم، فيكون متأثراً ومستفيداً من التوجه الحسن والإيجابي العام للمجتمع في أطار العبادة ومضامينها ويكون نافعاً ومساهماً في توثيق صروح الإيمان ومشاركاً في حمل لواء التوحيد بما يظهره من سمات العبودية والخضوع والذل لمقام الربوبية، قال تعالى ﴿وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾^(١).

وتبرز الآية الكريمة حقيقة وجوب العبادة وأنه لا مناص من المواظبة على اظهارها والتقيد بالإتيان بشرائعها وما تستلزمه من الفرائض والطاعات والآداب فلما يقرأ المسلم ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾، يرجع الى نفسه محاسباً ومدققاً في تصديق جوارحه ونفسه لما أمر اللسان بنطقه ووفق لإتيانه، وهذا التلطف عبادة وذكر لله عز وجل وان لم يأت به بقصد القرآنية وجزئيته من سورة الفاتحة بلحاظ ان النطق عمل بجراحة اللسان.

وفي مرسله الحسن بن محمد الجمال قال: "بعث عبد الملك بن مروان الى عامل المدينة، ان وجهه الى محمد بن علي بن الحسين ولا تهيجه ولا تروعه واقض له حوائجه.

وقد كان ورد على عبد الملك رجل من القدرية فحضر جميع من كان بالشام فاعياهم جميعاً، فقال ما لهذا إلا محمد بن علي فكتب الى صاحب المدينة ان يحمل محمد بن علي اليه فاتاه صاحب المدينة بكتابه.

فقال له الإمام محمد بن علي الباقر عليه السلام: اني شيخ كبير لا اقوى على الخروج وهذا جعفر ابني يقوم مقامي.

فوجهه اليه فلما قدم على عبد الملك ازدراه لصغره وكبر ان يجمع بينه وبين القدرية مخافة ان يغلبه، وتسامع الناس بالشام بقدم جعفر لمخاصمة القدرية.

فلما كان من الغد اجتمع الناس لخصومتها.
فقال عبد الملك لأبي عبد الله جعفر الصادق عليه السلام: انه قد اعيانا امر هذا القدرى وانما كتبت اليك لأجمع بينك وبينه فانه لم يدع عندنا احداً إلا خصمه.

فقال : ان الله يكفيننا، قال: فلما اجتمعوا قال القدرى لأبي عبد الله الصادق سل عما شئت، فقال له: اقرأ سورة الحمد، قال: فقرأها.
ف قيل : وانا معه ما في سورة الحمد علينا انا لله وانا اليه راجعون، قال : فجعل القدرى يقرأ سورة الحمد حتى بلغ قول الله تبارك وتعالى ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

فقال له جعفر الصادق عليه السلام : قف من تستعين وما حاجتك الى المعونة ان الأمر اليك ﴿فَبِمَتَ الَّذِي كَفَرُوا لِلَّهِ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (١) (٢).

وهذا من اسرار الآية الكريمة وجعلها قرية عند كل مسلم بقراءتها في الصلاة اليومية لتكون سلاحاً حاضراً وحجة قائمة وبرهاناً ساطعاً وحرزاً نوعياً عاماً من دعوة الضلالة.

وصحيح ان الحديث ضعيف السند الا انه صحيح دلالة واستدلالاً، وفيه مدرسة للإحتجاج بالآيات القرآنية المعروفة لدى العامة والغالب من الناس، أي ان كل مؤمن يستطيع ان يجادل بالحكمة وقيم الحجة بما تيسر له من الآيات القرآنية والشواهد الكونية ونحوها وفي التنزيل ﴿فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ﴾ (٣).

مسائل في الآية

- (١) سورة البقرة ٢٥٨.
- (٢) البرهان في تفسير القرآن ٥٢/١.
- (٣) سورة الأنعام ١٤٩.

في الآية مسائل :

الأولى : العبادة عنوان لغاية التعظيم من منازل الرق وتبين الآية عدم اهلية غير الله للعبادة وانفراده باستحقاقها وليس للعباد فيها فضل أو إختيار.

الثانية : فعل العبادة والإستعانة جاء بصيغة الجمع والفعل المضارع الذي يدل على الإستدامة والإتصال والدوام.

فالآية عهد ووثيقة ووعد مثلما هي اقرار واعتراف لذا تضمنت الآية التي بعدها سؤال الهداية للثبات على العبادة والإرتقاء في منازلها.

الثالثة : بعد ان جاءت الآيات السابقة ببيان صفات الله تعالى الرحمن الرحيم ، رب العالمين ، مالك يوم الدين جاءت هذه الآية باعلان الإذعان المطلق لعظمته تعالى ، وكأنه من ترتب المعلول على علته وعدم تخلفه عنها ، وترتب المسبب على السبب ، ولتوكيد عدم وجود أي طريق آخر امام البشر غير عبادته فلا غرابة ان تأتي الآية بصيغة الحصر.

الرابعة : تدل العبادة بالدلالة الإلتزامية على ان الإنعام كله من عند الله تعالى وكأنها شكر واجب له تعالى على مصاديق النعم.

الخامسة : قانون حق الإستعانة بالله تعالى توكيد للحاجة المطلقة اليه تعالى وأنه سبحانه هو الكافي.

السادسة : قانون إعلان العبودية لله يعني بالدلالة التضمنية الإخبار عن ذلة النفس ومهانتها.

السابعة : قال الرازي : ولما كان الله تعالى اشرف الموجودات واعلاها فكانت عبوديته أولى من عبودية غيره^(١).

لكن إنحصار العبودية وإختصاصها بالله عز وجل رب العالمين وحده وبأمر منه تعالى وليس بالأولوية التي تفيد الترجيح بفارق رتبي ، والتضاد بين الخالق والمخلوق يجعل العبادة من المتواطئ المتحد الذي لا يقبل التعدد، وليس من مراتب في استحقاق العبودية، ولم تبين على الأشرفية

(١) تفسير الرازي ٢٢٢/١.

بل على الإنحصار وإنفراده تعالى بإستحقاقها، وفي التنزيل ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾^(١).

الثامنة : الآية نبذ لعبادة الأوثان واتخاذ الأصنام ، واعلان للبراءة من الكفار والمشركين ، وابطال للأضداد والأنداد.

التاسعة : قانون حق الإستعانة بالله تعالى اعتراف بعظيم قدرته سبحانه لأن وجوه الإستعانة متعددة ومتشعبة ولا تنحصر باحوال الإنسان في الدنيا.

العاشرة : لقد اقترنت الإستعانة بالعبادة، والرغبة بالخضوع، والأمل بالخشوع، والرجاء بالتسليم بالربوبية.

الحادية عشرة : اقتران الإستعانة بالعبادة ومجيئها عقبها مباشرة ومن غير فصل في القرآن فضل من الله تعالى له دلالات منها انه تلقين وتعليم لنا جزاء واستحقاقاً، أي ما دتم لا تعبدون الا الله فالزموا الإستعانة به لأنه يعين عبيده الذين اخلصوا له الدين ويقضي حوائجهم في الدارين، وكأن مضامين الآية تتكون من اقرار وتعليم وامثال وجزاء.

الثانية عشرة : الآية ابطال للشرك الظاهر والخفي، فاختصاص الله تعالى بالعبادة يعني النفي المؤبد للشرك والكفر والضلالة لما ثبت في الفلسفة من عدم اجتماع النقيضين، اما حصر الإستعانة به تعالى فانها نفي للشرك الخفي كما عن الصادق عليه السلام ، قال تعالى ﴿قُلِ اللَّهُ أَعْبَدُ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي﴾^(٢).

الثالثة عشرة : ما في الآية من العبادة والاستعانة اعم من الإختصاص ففيه دلالة على التعظيم وانه وحده المعبود من الخلائق جميعها، وليست العبادة حصراً علينا، وفي تقديم العبادة نفي للجهل والغفلة.

(١) سورة الاسراء ٢٣.

(٢) سورة الزمر ١٤.

الرابعة عشرة : في الآية تقديم للمعرفة واطهار لأهمية العلم ونبذ للجهل وعدم المعرفة سواء على القول بان المعرفة والعلم من النظائر او ان بينهما عموماً وخصوصاً من وجه وقانون المعرفة ادراك الجزئيات والعلم ادراك الكليات.

فان الآية جاءت بتقديم المعرفة والعلم واليقين بربوبية الله تعالى وان مقاليد الأمور كلها بيده وانه اهل للعبادة وهي ضرورية للعباد.

الخامسة عشرة : في تقديم ﴿يَاكَ نَعْبُدُ﴾ تخفيف لمشاق العبادة وما فيها من التكاليف وفي تقديمه في شطر الاستعانة توكيد للإلتفات وعدم الغفلة وان اللجوء إلى الله تعالى يأتي عن ادراك وعلم ومعرفة.

السادسة عشرة : العبادة والاستعانة وسيلة للتقرب إلى الله وليست غاية مطلوبة، فالمطلوب وجهه تعالى.

السابعة عشرة : الآية توكيد لمعرفة الطريق القويم للوصول الى مرضاته تعالى ، وفي التنزيل ﴿وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾^(١).

و(عن أبي مسلم الخولاني قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما أوحى لي أن أجمع المال وأكون من التاجرين ، ولكن أوحى إلي أن ﴿سَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾ * وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾^(٢) (٣).

الثامنة عشرة : الآية جهاد في سبيل الله تعالى ودعوة الى نبذ الشرك وسلاح لطرده وحث على الإيمان وفيها موضوع للمباهلة مع الكفار والمشركين فليظروا هل نفعتهم آلهتهم التي يعبدون او الوسائط التي بها يستعينون.

(١) سورة الحجر ٩٩.

(٢) سورة الحجر ٩٨-٩٩.

(٣) الدر المنثور ٦/١١٧.

التاسعة عشرة : في الآية وقراءتها ازالة لسلطان الشرك والكفر والنفاق عن القلب ومنع لتأثيره على النفس، وهي تنقل النفس من مراتب النفس البهيمية والشهوانية الى منازل النفس المطمئنة.

العشرون : النون في ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ تحتمل امرين اما انها للجمع او للتعظيم، والحق انها للجمع إذ تدل الآية على عبادة جميع المسلمين لله عز وجل وانه تعالى يقبل عبادة الفرد وكأنه امة وقد ورد في ابراهيم الخليل عليه السلام قوله تعالى ﴿إِنِّ اِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَاتِلًا لِلَّهِ﴾^(١).

الحادية والعشرون : قانون المسلمون جميعاً في مقام العبادة وهي نقيض التعظيم وتحتاج الى الخشوع والخضوع، ولكن منازل العبودية لا تمنع من التعظيم المقيد الذي اراده الله عز وجل للمسلمين بعبادتهم لله عز وجل، فقوله تعالى ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ تعظيم للمعبود وثناء على العابدين ، قال تعالى ﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾^{(٢)(٣)}.

وفي الآية فخر للعبادين بالمقارنة مع غيرهم من الناس وهي ثناء على المسلمين بعبادتهم بالمقارنة مع غيرهم من الملل فهي عز ومدح بلحاظ الغير ، كما ان العظمة تترشح على المسلم بعبادته لله تعالى فيجعل الله عز وجل له هيبة وحشمة في قلوب الآخرين، قال تعالى ﴿

(١) سورة النحل ١٢٠.

(٢) سورة التوبة ١٢٢.

(٣) انظر الجزء الرابع والأربعين بعد المائتين وفيه عشرات القوانين بخصوص هذه الآية الكريمة.

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا ﴿١﴾
والنون تكون للأعم فيشمل العزة وهو الإنسب في المقام فإن الإنسان
باخلاص العبادة لله عز وجل عزيز مهاب قال تعالى ﴿ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ
وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٢) بصفة الإيمان استحقوا العزة التي تترشح عليهم من
فيض عزته وفضله سبحانه بدليل قوله تعالى ﴿ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا ﴾ (٣).

الثانية والعشرون : إن حصر العبادة بالله تعالى وتقديمه في الآية حرب
على إبليس والشياطين جميعاً.

الثالثة والعشرون : في الآية طرد لوساوس الشيطان ومنع من تسربها
الى النفوس، فالآية تجعل القلوب منقطعة الى حب الله تعالى مغلقة عن
الشوائب والكدورات.

الرابعة والعشرون : بالإضافة إلى قانون الآية إعلان وإقرار وعهد
بالإقامة على عبادة الله تعالى ففيها بالذات ومجردة نوع تقرب اليه تعالى ،
وفي التنزيل ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ
بِالْعَبَادِ ﴾ (٤).

الخامسة والعشرون : العبادة في الآية جاءت على نحو العموم
المجموعي والمراد به ترتيب حكم واحد للجميع على نحو الاتحاد، والعموم
الاستغراقي وهو ترتب الحكم على كل فرد من افراد المفهوم على نحو
مستقل، والاستغاثة من المسلمين جميعاً بدفعة وهيئة واحدة مبنية على
التوحيد واداء الفرائض وايضاً يأتي بها المسلمون على نحو الإنفراد
والاستقلال، وكذا بالنسبة للإستعانة.

(١) سورة مريم ٩٦.

(٢) سورة المنافقون ٨.

(٣) سورة فاطر ١٠.

(٤) سورة البقرة ٢٠٧.

فالمسلمون جميعاً يستعينون بالله سبحانه وهم على نحو الاتحاد والإجماع والسؤال الدفعي المتحد لقضاء حوائج الملة والأمة، وايضاً فانهم جميعاً يستعينون بالله كلاً على انفراد واستقلال لقضاء ذات الحوائج والمسائل الشخصية، هذا بالإضافة الى العموم البدلي الظاهر للوجدان فكل مسلم يأتي بالآية على نحو القضية الشخصية والمفردة وان كانت بصيغة الجمع.

السادسة والعشرون : في الآية فضل من الله تعالى لتدارك التقصير واتمام النقص الواصل في عبادة كل فرد من المسلمين، ففيها رجاء من العبد وأمل بضم عبادته الى عبادة المسلمين وجميع المؤمنين الذين قرأوا الآية في الأزمان السابقة، عسى ان يقبل الله عز وجل العبادة بقبول شطر منها.

السابعة والعشرون : في الآية وجوه :

الأول : إحياء للشريعة .

الثاني : تعظيم لشعائر الله .

الثالث : تعاهد لحفظ صيغ العبادة والتوحيد في الأرض .

الرابع : تأديب للنفس والغير بالتوجه له تعالى .

الثامنة والعشرون : في الآية إعلاء لكلمة الإسلام ورفعته للنبي محمد

صلى الله عليه وآله وسلم في الدارين فان تلاوة الآية من قبل المسلمين

بصدق إخبار واقعي ومصدق عقائدي لصدق نبوته ، وأدائه لرسالته ،

قال تعالى ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ

غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾^(١).

التاسعة والعشرون : في الآية توفير للجهد وتخفيف عن المؤمنين بمنعهم

من اللهث وراء مشاغل الدنيا وحاجاتها باخلاص العبادة وصدق

الإستعانة بالله عز وجل ، وكان لأحد اهل التقوى حاجة فقيل له لو

تذهب الى فلان لقضائها فقال اخشى ان اكون قد كذبت في صلاتي لأنني قلت فيها ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

الثلاثون : قانون الآية حجة علينا في لزوم ملازمة مناسك العبادة وسبل الإستعانة بالله عز وجل وعدم التفريط، ليس فقط بالإستعانة بالغير، بل بالعزة التي جعلها الله عز وجل عند المؤمنين بالعبادة، وهناك أحكام فقهية خاصة تنفرع عن قوله تعالى ﴿وَكُنْ يُجْعَلُ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾^(١)، ومنها قاعدة (نفي السبيل).

الواحدة والثلاثون : لقد جعلت القراءة في الصلاة لتعاهد القرآن وتلك القاعدة الكلية تنحل إلى عدة قواعد فرعية منها ما يتعلق بهذه الآية، فالجيء بها في الصلاة تعاهد للعبادة ولوجوه الإستعانة بالله تعالى.

الثانية والثلاثون : الآية تذكير يومي متصل بلزوم عبادة الله والإستعانة بالله تعالى لا حاجة منه تعالى لعبادتنا ولكن لإتمام فضله ولحثنا على الطاعة والتقوى وإستثمار هذه الآية في القول والعمل وعلى نحو المجموع والإنفراد.

الثالثة والثلاثون : منهم من قال أن العبودية أشرف من الرسالة لأن بها أسري بالنبى صلى الله عليه وآله وسلم إلى السماء ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا﴾^(٢) ولأنها إنصراف من الخلق إلى الحق، وبالرسالة ينصرف من الحق إلى الخلق. وكرره أهل العرفان.

وهذا الإنصراف ليس قاعدة قرآنية كلية أو من السنة كي تبنى عليها المقارنة والأفضلية في مسألة عقائدية وتكوينية وتشريعية، والرسالة

(١) سورة النساء ١٤١.

(٢) سورة الإسراء ١.

إكرام خاص انفرد به أفضل البشر ويتصف بخصوصية تلقي وتبليغ الوحي وأداء الرسالة ، ولقانون الرسل متبعون في مرضاة الله ، قال تعالى ﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ﴾^(١).

والعبودية حالة إنقياد وخشوع ذاتي ، ولم تأت النبوة إلا مترتبة على حسن العبودية وتمام الخضوع وقد انغلق باب النبوة بخاتم النبيين محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، وبقت العبودية تدعو الناس لإقتفاء آثار الأنبياء والإهتمام بسنتهم ، والمتبوع بالوحي في الخير والصالحات اشرف في المرتبة من التابع ، وفي خطاب إلى النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم قال تعالى ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَاحِدٌ﴾^(٢).

الرابعة والثلاثون : الآية عنوان إستبشار ورضا وفرح بفضل الله تعالى على هدايتنا لعبادته ، فعندما يرى المسلم أنه وأخوانه المؤمنون متوجهون إليه تعالى ومنقطعون إلى الكمال والغنى المطلق جاءت الآية بصيغة الخبر السعيد والبشارة الكريمة لهدايته.

الخامسة والثلاثون : الآية دعوة والتماس وتوسل لدوام حال التقوى على المسلمين وبقائهم مقيمين على مسالك التقوى والرشاد.

قوله تعالى ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ الآية ٦

الإعراب

اهدنا: اهد فعل طلب مبني على الوقف ، والهمزة مكسورة لأن ثالث الفعل المضارع منه مكسور.
والفاعل ضمير مستكن فيه يعود لله تعالى ، والضمير (نا) في محل

(١) سورة يس ٢٠.

(٢) سورة الكهف ١١٠.

نصب مفعول أول.

والصراط : مفعول به ثان منصوب بالفتحة ، والمستقيم : صفة تابعة له في حركة آخره.

ولو قلنا (إيانا اهد الصراط المستقيم) لتغير المعنى إذ يصير المعنى اجعل الصراط يهتدي إلينا فيختلف مقصود السؤال تماماً ، انما الحياة الدنيا دار امتحان واختبار ، فنسأل الله ان نكون نحن المهتدين وفيه الصلاح والأجر ، وقد يهتدي الصراط إلينا ايضاً بفضل ولطف من الله خاصة وأن الصراط صراطان في الدنيا والآخرة.

وكما في قوله تعالى ﴿إِذْ يُرِيكُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا﴾^(١) ، فالكاف ضمير مفعول به أول يعود للنبي صلى الله عليه وآله وسلم ، و(هم) ضمير مفعول به ثان ، قليلاً : مفعول به ثالث.

ولو تغير ترتيب المفعول به لتغير المعنى ولو كان الضمير (هم) هو المفعول الأول لتعلقت رؤية القليل بهم ، ولا يصح لأن النبي محمداً صلى الله عليه وآله وسلم هو الذي رأى وهو مفرد ، وأمة وحده ، نعم ورد بعدها بصيغة الجمع خطاب للمسلمين في قوله تعالى ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذْ تَقِفُونَ فِي أَغْنِيَكُمْ قَلِيلًا وَيَقْلِلُكُمْ فِي أَغْنِيهِمْ وَيَقْلِلُكُمْ فِي أَغْنِيهِمْ﴾^(٢).

القراءة

روي عن زيد بن علي والحسن البصري والضحاك أنهم قرأوا صراطاً مستقيماً دون تعريف، وقرأ الإمام جعفر الصادق عليه السلام صراط المستقيم بالإضافة ، ورواه الحلبي^(٣).

ووردت القراءة عن أهل البيت عليهم السلام بالصاد، وكذا قراءة

(١) سورة الأنفال ٤٣.

(٢) سورة الأنفال ٤٤.

(٣) تفسير مجمع البيان ٧٢/١.

الجمهور وهي لغة قريش التي نزل القرآن بها وهي الأفصح، وقرأ حمزة بأشمام الصاد زايًا، والزاي الخالصة لعذرة وكعب، وليكون أقرب إلى المبدل منه، وقيل السين هي الأصل وبذلك قرأ ابن كثير برواية قبل ورويس اللؤلؤي عن يعقوب، وأنها قلبت صادًا لمجيء الطاء بعدها ولحاظ الإنطباع فتكون في الصراط أربع لغات وكلها قد قرئ بها.

قال ابن خالويه: أخبرني دريد عن أبي حاتم قال: اختلف اثنان في السقر والصقر فقال أحدهما بالسين وقال الآخر بالصاد، فسألت أعرابيا: كيف تقول أبالصاد أم السين؟ فقال: أما أنا فأقول بالزاي وانشد ابن دريد في مثله:

ولا تهينني المومة اركبها ... اذا تجاوزت الأزداء بالسحر^(١).

وأخرج البخاري في تاريخه وابن الأنباري عن ابن عباس انه قرأ (اهدنا الصراط) بالسين، والمستقيم مستفعل وقيل الأصل مستقوم: فاستقلوا الكسرة على الواو فنقلت إلى القاف فانقلبت الواو ياء لإنكسار ما قبلها^(٢).

وقال الأخفش: أن أهل الحجاز يؤنثون الصراط كالطريق والسييل والزقاق والسور، ولكن الصراط ورد في القرآن بلغة التذكير والقرآن نزل بلغة قريش وهي أخص من لغات الحجاز، وبنو تميم يذكرونه والتذكير هو الأكثر والغالب.

اللغة

من أسماء الله تعالى: الهادي، قال سبحانه ﴿إِنْ عَلَيْنَا

(١) ابن خالويه المتوفى سنة ٣٧٠ للهجرة/ اعراب ثلاثين سورة من القرآن الكريم/ ٤٠.

والأزداء: الاصداء جمع صدى.

(٢) ن. م.

لِلْهُدَى^(١)، وقد هداه يهديه هدى وهدياً وهداية قاده باتجاه الصواب وبصره سبيل الرشاد، والهدى مذكر وبعض بني أسد يؤنثه وهو ضد الضلال ويأتي بمعنى الدلالة والدعوة.

وتفرد الله عز وجل بالهدى الذي يفيد معنى التوفيق، وذكر التفصيل والقول بأن الهداية أن تعدت إلى المفعول الثاني بنفسها كانت بمعنى الدلالة الموصلة إلى المطلوب، وان تعدت باللام أو إلى كانت بمعنى الدلالة على ما يوصل، ولا دليل على هذا التفصيل.

والصراط: الطريق وقيل أصله بالسين من السرط وهو اللقم، وسمي لقمًا كأن سالكه يتلعه عندما يطويه، أو أن الصراط يتلعه سالكه يؤدي بمن يسلكه إلى مقصده وغايته.

وقام الشيء وإستقام: إعتدل وإستوى فهو مستقيم، وتأتي الإستقامة بمعنى إلزام الطاعة.

وعن الإمام علي عليه السلام (قال : قلت : يا رسول الله أوصني قال : قل ربي الله ثم استقم . قلت : ربي والله وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب . قال : ليهنك العلم أبا الحسن ، لقد شربت العلم شرباً ونهلته نهلاً)^(٢).

في سياق الآيات

بعد إعلان التوجه النوعي والشخصي في العبادة لله تعالى يأتي سؤال الهداية والرشاد وطلب النجاة.

وكان هذه الآية تفسير لإجتماع مضامين العبادة والإستعانة بالله تعالى، وتدل على إنقطاع المسلمين للعبادة، وعشقهم للقاء الله.

فجاءت الآية مصداقاً للإستعانة، وأنها ليست لحب الدنيا، بل لإعمارها بالصالح والتقوى والهداية إلى الصراط المستقيم عبادة لله

(١) سورة الليل ١٢.

(٢) الدر المنثور ٣٣٧/٥.

ومقدمة للعبادة من غير أن يستلزم الأمر الدور بينهما، بل هو فيض من عند الله ونعمة متداخلة.

ولما تقدم قوله تعالى ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾^(١)، فإن هذه الآية تبين طمع المسلمين برحمة الله تعالى وأنهم لم يسألوه الدنيا وزينتها بل سألوه نيل رحمته بالهداية إلى الصراط المستقيم .

ولما جاءت الآية قبل السابقة بالإخبار عن إنحصار الملك في الآخرة بالله تعالى.

جاءت هذه الآية بقانون علم المسلمين بحتمية يوم الحساب والحاجة فيه إلى التقوى والصلاح، فسألوا الله تعالى سلامتهم ونجاتهم من فعل المعاصي، وإنقاذهم من حر نار جهنم.

ولما جاءت الآية السابقة بتسليم المسلمين بالعبودية لله تعالى وعدم انحصار الأمر بأداء الفرائض والعبادة، بل بالإستعانة بالله عز وجل دون غيره في أمور الدين والدنيا.

جاءت هذه الآية لتخبر عن أهم مصاديق الإستعانة وأنه ليس طلب الدنيا بل طلب الصلاح في الدنيا ليكون مقدمة للعيش بالنعيم الدائم في ملك الله عز وجل في الآخرة، فإذا كان الإنسان عامة والظالم والكافر خاصة يحجب عن المؤمن التنعم بالنعيم الدنيوية، فليس من أحد يستطيع حجبها عنه في الآخرة ، قال تعالى ﴿لَيَبْلُوَنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ﴾^(٢).

ولما جاءت هذه الآية بسؤال المسلمين الهداية إلى الصراط المستقيم، نزلت الآية التالية لبيان ماهية هذا الطريق وأنه سبيل الأنبياء والصالحين من الأمم السابقة ليكون الإشتراك معهم في التقوى والصلاح .

(١) سورة الفاتحة ٣.

(٢) سورة آل عمران ١٨٦.

وفي الآية مسائل بيان حاجة المسلمين إلى الله تعالى، فان قوله تعالى ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾^(١) في الآية قبل السابقة لا يعني أن ملك الدنيا يشاركه فيه غيره سبحانه، ولكن ما يحصل من ملك في الأموال والأعيان للناس في الدنيا هو على نحو الإمتحان والاختبار.

وتجبر الآية المتقدمة عن حتمية رجوعه إلى الله تعالى، فسأل المسلمون الهداية إلى الصراط المستقيم في أمور العقيدة والعبادة والمعاملات، وأما في العقيدة فبالثبات على الإيمان وحفظ موارث الأنبياء، والتفقه في الدين وتعاهد آيات وسور القرآن ومنع طرو التحريف عليه نصاً وتأويلاً وتفسيراً.

وأما في العبادات فبالحرص على أداء الفرائض كما جاء بها النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم من غير تغيير أو تبديل، وهذا الأمر من مصاديق تفضيل المسلمين على الأمم الأخرى، فليس من أمة أو أهل ملة تعاهدوا ما جاء به نبيهم إلا المسلمين فلذا إستحقوا الثناء لدعوتهم إلى الهدى والرشاد.

ومن الهداية في باب العبادات قيام المسلمين بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من غير كلل ولا تعب، قال تعالى ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾^(٢).

لقد سأل المسلمون الله تعالى إجتنب الإفراط والتفريط في أمور الدنيا وأحكام الشريعة، وقد انعم الله عز وجل عليهم بالسلامة من الغلو والغفلة ليكونوا في حصن وعصمة من الجهالة

(١) سورة الفاتحة ٤.

(٢) سورة آل عمران ١٠٤.

والضلالة والانحراف عن جادة الهدى، وأما في المعاملات فإن المسلمين يسألون الهداية في أحكام الحلال والحرام والعصمة من ظلم الغير والتعدي.

إعجاز الآية

صحيح أن آيات الفاتحة كلها سؤال ودعاء إلا أن هذه الآية دعاء محض جاء بصيغة الجمع رجاء تثبيت المعرفة الإلهية في أركان وجوانح المسلم وإنعكاسها على الأفعال.

إنها آية البصيرة والتوفيق وهي مطلقة، تشمل صراط الدنيا المبني على الطاعة والإمثال للأوامر الإلهية، وصراط الآخرة المتمثل بجسر على جهنم في الآخرة وعبوره والنجاة من النار.

وتؤكد الآية بأن المسلمين، يسلمون بأن الله سميع بصير، يسمع دعاءهم، ويجيب مسألتهم، ويقضي حوائجهم، وجاءت استعانة المسلمين بالله رجاء الهداية والرشاد، وإحترازاً من الشبهات والضلالة.

ويمكن تسمية هذه الآية بآية "إهدنا الصراط" ولم يرد هذا اللفظ في القرآن إلا في هذه الآية.

الآية سلاح

تبعث الآية الإيمان والسكينة في النفوس، وفيها تأكيد بان أسباب الهداية بيده تعالى.

وتبين الآية حرص المسلمين على تعاهد كلمة التوحيد، وعدم الخروج عن منازل الطاعة لله تعالى، وجاءت الآية بصيغة الجمع مع أن الذي يتلوها أحياناً فرد واحد من المسلمين، وفيه تأكيد على معاني الأخوة بين المسلمين، وأن كل واحد منهم يجب لعموم المسلمين ما يجب لنفسه. وفي قراءة الآية في الصلاة اليومية إلحاح بالدعاء والمسألة، وإخبار عن حاجة المسلمين للهداية والتوفيق، وفي التنزيل ﴿قُلْ مَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ﴾^(١).

وهذه الآية مدرسة في الأخلاق الحميدة، لأن الهداية إستقامة فجاءت الآية لتبين للناس تمسك المسلمين بالأخلاق الحسنة، وهو من وجوه اقتدائهم بالنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم قال تعالى ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾^(٢).

وفيه درس وموعظة للناس جميعاً للإقتداء به، والآية سلاح في الدعوة إلى الله تعالى إذ يسمع الناس ترديد المسلمين كل يوم لهذه الآية فيشتاقون للصراط المستقيم ويعلمون موضوعيته والحاجة إلى بلوغ مراتبه، وسواء كان معنى الصراط المستقيم هو الإسلام والقرآن أو غيرهما من وجوه الهداية فان هذه الآية دعوة للمسلمين للتمسك بمبادئ الإسلام، وحث للناس على دخوله، والسعي في طلب رضا الله تعالى. وفي الآية مسائل :

(١) سورة الفرقان ٧٧.

(٢) سورة القلم ٤.

الأولى : قانون توجه المسلمين إلى الله بالدعاء والمسألة.

الثانية : إنتقال المسلمين بالدعاء من العام إلى الخاص، فبعد أن أعلنوا إنقيادهم التام إلى الله تعالى في أمور الدين والدنيا سألوا الله سبحانه الهداية إلى سواء السبيل.

الثالثة : قانون حاجة المسلمين متحددين إلى رحمة الله تعالى.

الرابعة : إن الصراط المستقيم مرتبة عالية لا يستطيع الفرد والجماعة بلوغها إلا بالإستعانة بالله تعالى، فجاءت هذه الآية لتخبر عن فوز المسلمين ببلوغ مرتبة السؤال لنيل هذه المرتبة.

الخامسة : وصف الصراط بالإستقامة لبيان النفرة من الإعوجاج والميل والتجافي عن الحق والهدى.

السادسة : جاءت الآية بصيغة الجمع، ليكون سؤال المسلم نيابة عن إخوانه المسلمين والمسلمات وسؤال المسلمة نيابة عن المسلمين، وليتعدد الدعاء بصيغة القرآنية في اليوم والليلة بصدوره من المسلمين في الصلاة ، قال تعالى ﴿فَاقْرَءُوا مَا يَسْرَمِنْ الْقُرْآنِ﴾^(١).

السابعة : لقد سأل المسلمون الله التوفيق لأداء الطاعات، وتعاهد العبادات.

وهذه الآية نعمة سماوية على المسلمين أفراداً وجماعات فهي بذاتها وسيلة لهدايتهم وإرشادهم إلى قانون من الإرادة التكوينية ، وهو لزوم سعي الإنسان في مرضاة الله، وبذله الوسع في سبيله تعالى، وإتباعه نهج الأنبياء وتقليده بأحكام الحلال والحرام.

وجاءت هذه الآية لتبين حب المسلمين للقاء الله وتفانيهم في مرضاته ، ولجوئهم اليه، وفرارهم من المعصية ومقدمات الضلالة ، و(عن أنس قال : كان النبي صلى الله عليه وسلم يكثر أن يقول : يا مقلب القلوب ثبت

قلبي على دينك . قالوا : يا رسول الله آمنا بك وبما جئت به ، فهل تخاف علينا؟ قال : نعم . قال : إن القلوب بين أصبعين من أصابع الله يقبلها^(١) . وتتجلى في هذه الآية مضامين الإستعانة وإخلاص المسلمين العبادة لله تعالى ، ويدل السؤال بصيغة الجمع على وحدة المسلمين في مرضاة الله قال تعالى ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾^(٢) ، فيجتمع المسلمون في مسائل الهداية وهو من أحسن معاني الوحدة والإعتصام بالقرآن والسنة ، فحينما أمر الله المسلمين بالتمسك بالقرآن إستعانوا به سبحانه ، وسألوه العصمة العامة لهم بالهداية إلى طريق الرشاد والفلاح ، ونيل المنازل العالية في الجنة.

مفهوم الآية

وهذه الآية من أمهات المعارف الإلهية ومدرسة في انكشاف البصيرة وإرادة اليقين ويمكن اعتبار هذه الآية فرع الآية السابقة بشرطها العبادة والإستعانة لأن عبادته تعالى والإستعانة به هما أهم مصاديق الصراط المستقيم.

ومن إعجاز الآية أنها قيدت الصراط بالمستقيم مع أن الصراط هو الطريق والطرق إلى الله كثيرة وهي بعدد أنفاس الخلائق للإخبار عن اتحادها بصيغة الإستقامة والتقوى وهو الواسع الكريم يهدي ابتداء وتفضلاً من غير مسألة .

مما يدل على أن الصراط المستقيم اسم جنس مثلما هو اسم مفرد من فالام في الصراط للعهد والجنس من غير تعارض بينهما.

فجاءت هذه الآية على نحو الدعاء ليكررها المسلمون في كل يوم بعدد الفرائض والنوافل لتهذيب النفوس وتخليصها من الحجب الظلمانية وإغواء الشيطان ، ولتكون حرباً على الجهل النوعي العام بلحاظ صيغة

(١) الدر المنثور ٢/٢٨٦ .

(٢) سورة آل عمران ١٠٣ .

الجمع فيها (اهدنا) وعلى الجهل الشخصي لقراءة المسلم لها كما يترشح الدعاء النوعي العام على الأفراد وظاهرهم وباطنهم. وهو من منافع وأسرار أداء المسلمين الصلاة جماعة والندب إليها، وهي دفع للعمى وإحتراز من الجحود، وسلامة في الدين والدنيا ومدخل كريم لصالح الأعمال وتثبيت للأقدام. ومن معاني الآية إنها التجاء إلى الله وإنجذاب إلى العبادة وشوق إلى الهداية والحاجة إلى الإيمان وإعلان عن الخوف والوجل من الزل، وبغض الكفر والنفرة والضلالة .

الآية لطف

لقد خلق الله عز وجل الإنسان، ورزقه العقل وسيلة للتمييز بين الحق والباطل، والصحيح والفساد، وطريق الهدى وطريق الضلالة، ثم تفضل وبعث الأنبياء مبشرين ومنذرين لإصلاح النفوس والمجتمعات وجذب الناس لسبل الهداية ، قال تعالى ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾^(١).

وتفضل الله سبحانه ببعثة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم رحمة للعالمين ليقرأ المسلمون هذه الآية في الليل والنهار على نحو الوجوب والندب لتكون عوناً لهم في سلوك سبل الرشاد، ودعوة للناس جميعاً للإقتداء بهم ، فمن التوفيق ان يسأل العبد الهداية من الله تعالى. والآية دعوة متجددة لكل مسلم ومسلمة للإرتقاء في المعرفة، وزيادة التحصيل، لأن الإقرار بان الهداية من عند الله، وانه سبحانه قادر على كل شئ هو كسب ومرتبة عالية في العلم.

الصلة بين أول وآخر الآية

لقد جاءت الآية الكريمة من ثلاث كلمات إذ بدأت بسؤال الهداية من الله (اهدنا) وجاء السؤال بلغة الجمع في إشارة إلى تخلف الهداية الشخصية

عن التأثير في عالم الأفعال والمجتمعات، بل أن المهتدي إذا كان منفرداً فإنه قد لا يقدر على مواجهة أسباب الشر والضلالة، وقد تعرض شطر من الأنبياء لأنواع الضرر والأذى من قومهم ومنهم من قتل مع أنهم جاءوا بالآيات والمعجزات التي تدل على نبوتهم.

فمن إعجاز هذه الآية مجيؤها بصيغة الجمع (إهدنا) وتتعلق هذه الصيغة بمضامين الآيات السابقة لأن الله تعالى هو الرحمن الرحيم فهو الذي يستجيب الدعاء، ويجب أن يكون عاماً شاملاً، والهداية من أعظم مصاديق الرحمة فبالرحمة الإلهية يهدنا الله جميعاً، بما يجعلنا ننال المرتبة والمنزلة الرفيعة يوم الدين حيث الملك لله تعالى وحده.

فالملك يوم القيامة للرحمن والرحيم الذي يهدي المسلمين عموماً إلى فعل الخيرات وإقامة الفرائض، والفوز بالنعيم المقيم، والسلامة والأمن من عذاب النار.

لقد توسل المسلمون بصفة الرحمن والرحيم في سؤال الهداية، وذات الهداية رحمة، ولم ينسبوا الهداية لأنفسهم، وتدل الآية على تخلف الناس عن بلوغ مراتب الهداية إلا بفضل الله، ومن رحمته تعالى أن يجعل أسباب الإستجابة قريبة من الناس، قال تعالى ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾^(١).

أما الكلمة الثانية في الآية فهي (الصراط) وهي مدرسة في علم الكلام، لأنها تدل على وجود نهج وسبيل يحتاج الناس السعي فيه نحو غايات حميدة وتستقرأ موضوعيته من الكلمة التي سبقتها، وهي (إهدنا) والكلمة

التي جاءت بعده وهي (المستقيم) لتدل الآية على عظيم رحمة الله بان يعلم ويرشد المسلمين الى كيفية الدعاء وموضوعه.

وتبين الآية أن القرآن مدرسة للأجيال، والجامعة الكبرى التي يستطيع من يدخلها سلوك سبل النجاة لما تبعته من الضياء الذي ينير وسط وأطراف الصراط المستقيم.

فمن إعجاز الآية أنها قيدت الصراط الذي يسأله المسلمون بأنه (المستقيم) لتكون هذه الكلمة وهي الثالثة والأخيرة في الآية تقييداً مباركاً يجعل المسلمين يرتقون في مراتب المعارف الإلهية.

وتبين الآية إحاطة المسلمين علماً بالصراط وحاجتهم إلى الهداية له ولمصاديقه من أداء الفرائض، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وغيرها من أحكام الشريعة الإسلامية.

لقد توجه المسلمون إلى الله تعالى بسؤال الثبات على دين الحق، وعدم الزيف عنه، لأن الإستقامة تعني عدم الإعوجاج وعدم وجود فترة ضلالة، أو زلل جهتي في باب أحكام التكليف، وفي التنزيل ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾^(١).

وهذا الثبات من أسرار تقييد الصراط بأنه مستقيم، ومن معاني الإستقامة في المقام إستقرار الإيمان في النفوس.

من غايات الآية

تبين الآية حاجة المسلمين جميعاً إلى بلوغ مراتب التقوى والصلاح، ولا تنحصر هذه الحاجة بهم، بل تشمل غيرهم من أهل الملل والنحل من باب الأولوية القطعية لذا فان الآية تأديب للناس جميعاً ولا غرابة أن

يتلوها المسلمون في أقطار الأرض في صلاتهم لتكون مدرسة عقائدية لتنقيح الأعمال وإصلاح الأحوال، وجذب الناس لمنازل الهداية والإيمان. وتدل الآية على أمور :

الأول : قانون تفقه المسلمين في الدين .

الثاني : قانون إخلاص وثبات المسلمين في منازل العبودية لله تعالى .

الثالث : قانون سعي المسلمين لنيل رضا تعالى .

والله سبحانه يهديهم إلى دعائه ومسأله ويرشدهم إلى سبل الهداية، ويدلهم إلى الطريق المستقيم ويقربهم من الطاعات، ويمدهم بعونه وتوفيقه لأداء العبادات ويعصمهم من المعاصي والهلكات، قال تعالى ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونَنِي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ﴾^(١).

التفسير

يرشد الله عز وجل عباده إلى طريق معرفته، ويوفقهم في سبل طاعته ومسالك العبودية والتوحيد ويعينهم على الإقرار بربوبيته وتوحيده. ولقد تفضل سبحانه ببعث الأنبياء والرسل وانزل الكتب السماوية ليهدي الناس إلى طرق الإيمان ويوجههم نحو النجاة والفوز في الدارين بإنتهاج طريق التكليف والإختبار، وليس عن طريق القهر والإجبار بإعتبار أن الحياة الدنيا دار إمتحان وبلاغ إلى الآخرة ويؤكد قوله تعالى ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا﴾^(١).

وليثبت الفعل للعبد وعزيمته وإختياره وفق قضاء الله عز وجل ومشيتته، والآية إبطال للقول بان الفعل كله من العبد ويكون من التفويض، وللقول بانه لا فعل للعبد ويكون من الجبر، وورد عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام: لا جبر ولا تفويض ولكن امر بين الأمرين^(٢).

وفي السيرة عن زيد بن عمرو بن نفيل^(٣)، انه لما خرج هو وجماعة من أصحابه إلى الشام يطلبون الدين الحنيف، فاستمر على فطرته وجانب عبادة الإوثان ودين المشركين ولم يدخل مع أحد من اليهود ولا

(١) سورة السجدة ١٣.

(٢) البحار ١٢/٥.

(٣) مات قبل البعثة بخمس سنين وذكره البغوي في الصحابة ربما لكفاية كونه مؤمناً بان النبي صلى الله عليه وآله وسلم سيبعث، والحديث اعلاه مشهور واخرجه ابو يعلي والطبراني والحاكم وغيرهم بالإسناد عن اسامة بن زيد عن ابيه قال: خرجت مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في يوم حار من ايام مكة وهو مرد فلقينا زيد بن عمرو فقال له يا زيد ما لي ارى قومك سبقوك الى ان قال خرجت ابتغي هذا الدين... الحديث، وقد روى هشام بن عروة فيما بلغه عن زيد بن عمرو انه قال: وانا انتظر نبياً من ولد إسماعيل ثم من ولد عبد المطلب وما ارى اني ادركه وانا اؤمن به واصدقه واشهد انه نبي... الحديث.

النصارى، وأما أصحابه فتنصروا ودخلوا في دين النصرانية لأنهم وجدوه أقرب من دين اليهود اذ ذاك، وكان منهم ورقة بن نوفل حتى هداه الله بنبيه لما بعثه وآمن بما وجد من الوحي.

والهداية إلى الطريق المستقيم ضرورة دائمة للإنسان ضمن النظام الأحسن للموجودات والغايات النهائية لعمار الأرض في الحياة الدنيا، والآية تظهر الحاجة الى الإفاضة الربانية لتقويم سبل الهداية والرشاد للجماعات والأفراد ومن تلك الإفاضات آية البحث فهي حجة ودعاء وبصيرة وإلتجاء إلى الله تعالى.

عن النواس بن سمعان عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: "ضرب الله صراطاً مستقيماً، على جنبي الصراط سوران فيهما أبواب مفتحة، على الأبواب ستور مرخاة، وعلى باب الصراط داع يقول: يا ايها الناس ادخلوا الصراط جميعاً ولا تخرجوا، وداع يدعو من فوق الصراط. فاذا أراد الإنسان ان يفتح شيئاً من تلك الأبواب قال: ويحك لا تفتحه فانك ان تفتحه تلجه، فالصراط الإسلام، والسور حدود الله، والداعي من فوق الصراط واعظ الله في قلب كل مسلم"، رواه ابن ابي حاتم وابن جرير والترمذي^(١).

وجاءت هذه الآية بياناً لحالة الإيمان والتسليم بما جاء به النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بالإضافة الى ما وعد الله به من هداية لأهل الإيمان، قال تعالى ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾^(٢).



(١) انظر ابن كثير / تفسير القرآن العظيم ٤٢/١.

(٢) سورة الحج ٥٤.

من مصاديق الصراط

وفي معنى الصراط ذكرت وجوه ومصاديق :

الأول : أنه كتاب الله، وهو المروي عن النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وعن الإمام علي عليه السلام وعبد الله بن مسعود، وبالإسناد عن الحارث الأعور عن الأمام علي بن ابي طالب رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الصراط المستقيم كتاب الله.

الثاني : الإسلام، وهو المروي عن جابر وابن عباس^(١).

الثالث : دين الله الذي لا يقبل من العباد غيره، وهو المروي عن محمد بن الإمام علي^(٢).

الرابع : سيرة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ومنهاجه واهل بيته على جادة الحق والشرعة، وقد ورد عن الإمام علي عليه السلام في الآية انه قال: صراط محمد واهل بيته.

الخامس : حب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ومودة اهل بيته التي وردت بنص القرآن الكريم بإعتبارها سبيل هداية وطريق فلاح وتمسكاً بعرى الإيمان، لذا ورد عن ابن عباس في الآية قوله: "قولوا معاشر العباد ارشدنا الى حب محمد واهل بيته".

السادس : نهج الأنبياء والمرسلين الذين حملوا راية التوحيد وتغشاهم الله عز وجل بنعمة الهداية والإيمان.

(١) تفسير التبيان ٤٢/١.

(٢) يرد إسمه في الكتب والأخبار منسوباً إلى أمه فيقال محمد ابن الحنفية وهي خولة بنت جعفر من بني حنيفة، وتلك تسمية مخالفة لمنطوق القرآن قال تعالى ﴿ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ...﴾ سورة الأحزاب ٥.

وإذا لم يكن في هذه التسمية تنقيص وانها محض تعريف فان نسبته الى الإمام علي عليه السلام أقرب الى التعريف وفيها تمام الشرف. روى الكشي بالإسناد عن امير بن علي عن الإمام علي بن موسى الرضا قال: "كان امير المؤمنين عليه السلام يقول: ان المحامدة تأبى أن يعصى الله عز وجل، قلت ومن المحامدة؟ قال: -أي الإمام الرضا عليه السلام- محمد بن جعفر، ومحمد بن ابي بكر، ومحمد بن ابي حذيفة، ومحمد بن أمير المؤمنين".

السابع : ورد عن الإمام علي عليه السلام في تفسير قوله تعالى ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ آدم لنا توفيقك الذي به اطعنك في ما مضى من أيامنا حتى نطيعك ايضاً في مستقبل اعمارنا لتكون العبادة متصلة وتستوعب الحياة الدنيا.

الثامن : في العيون ورد عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام في تفسير الآية وما فيها من مضامين الدعاء قال: "يعني ارشدنا للزوم الطريق المؤدي إلى محبتك والمبلغ إلى جنتك والمانع من أن نتبع أهواءنا فنعطب أو أن نأخذ بآرائنا ونهلك".

التاسع : إنه الطريق الحق.

العاشر : عن الإمام الصادق عليه السلام : إنه الطريق إلى معرفة الله عز وجل^(١).

الحادي عشر : جسر محدود على جهنم يعبر المؤمنون عليه بسرعة وأمان وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: آخر من يدخل الجنة رجل يمشي على الصراط مرة، ويكبو أخرى ، ويمشي مرة ويجبو أخرى، وتصفعه النار مرة فإذا جاوزها التفت إليها فقال: الحمد لله الذي نجاني منك لقد أعطاني شيئاً لم يعطه أحد من الأولين، ولن يعطيه أحداً من الآخرين^(٢)، وعن عبد الله بن مسعود قال: الصراط على جهنم مثل حد السيف فتمر الطائفة الأولى كالبرق، والثانية كالريح، والثالثة كأجود الخيل، والرابعة كأجود الإبل والبهائم، ثم يمرون والملائكة تقول: رب سلم سلم^(٣).

الثاني عشر : وعنه أيضاً: "أن الصراط المستقيم في الدنيا ما قصر عن الغلو وأرتفع عن التقصير واستقام، وفي الآخرة طريق المؤمنين إلى الجنة".

(١) البحار ٦٦/٨.

(٢) الأحاد والمثاني لابن أبي عاصم ٢٤٩/١.

(٣) المستدرک على الصحيحين ٦٩/٨.

الثالث عشر: من معاني الصراط المستقيم الدفاع عن النبوة والتنزيل كما جاهد النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه دفاعاً عندما قام كفار قريش وأعدائهم بالهجوم والغزو في كل من معركة بدر وأحد والخندق ، إذ أنها غزوات للمشركين وليس للنبي محمد .

وسياتي مزيد كلام في الأجزاء (١٥٩-١٦٠-١٦١-١٦٣-١٦٤-١٦٥-١٦٦-١٦٧-١٦٩-١٧١-١٧٢-١٧٣-١٧٥-١٧٦-١٧٧-١٧٨-١٨٢-١٨٥-١٨٨-١٩٢-٢٠٠-٢٠٨-٢١٢-٢١٨-٢٢٦-٢٣٨) من هذا السفر ، والخاصة بقانون (لم يغز النبي (ص) أحداً).

مسائل في الصراط

يؤكد ظهور التداخل والتقارب بين الوجوه أعلاه من التفسير شمول الآية في تأويلها للمتعدد من السبل وان كلاً منها طريق مؤدية الى مرضاة الله وسبيل إلى محبته وطاعته.

وقال الرازي: قال بعضهم: الصراط المستقيم: الإسلام وقال: بعضهم: القرآن، وهذا لا يصلح لأن قوله "صراط الذين أنعمت عليهم" بدل من الصراط المستقيم، إذا كان كذلك كان التقدير إهدنا صراط من أنعمت عليهم من المتقدمين، ومن تقدمنا من الأمم ما كان لهم القرآن والإسلام وإذا بطل ذلك ثبت أن المراد إهدنا صراط المحقين المستحقين للجنة^(١).

هذا من جهة نسبة القول والسند، أما من جهة الدلالة فلا يلزم في الآية التطابق في مصاديق الصراط ، بل يكفي الالتقاء في موضوعه وإتحاد جنسه، فكل يكون صراطه المستقيم بحسب تكليفه والمأمور به والكتاب الذي بين يديه .

والجمع بين الآيتين بلحاظ التفسير الوارد للصراط في هذه الآية هو الأظهر وتتفرع عنه آية إعجازية وهي إرتقاء المسلمين ونيلهم لمراتب من الشرف لم تصل إليها الأمم السالفة والممل السابغة الأمر الذي إستلزم قراءة الآية في الصلاة فتحتسب عند الله تعالى دعاء وتضرعاً وأهلية لحمل

الرسالة وإستحقاقاً لهذه المنزلة الرفيعة.

ومن مسائل وسنن الصراط :

الأولى : لقد جاء الصراط في خمس وأربعين آية من القرآن ، كلها في الهداية إلى سبل معرفة الله والعمل الصالح بإستثناء موضع واحد منها متعلق بالآخرة في قوله تعالى ﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾ * مِنْ دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ ﴿١﴾.

الثانية : ورد الصراط بنعت الإستقامة في ثلاث وثلاثين آية منها ، كما ورد بالإضافة الى الباري عز وجل وأسمائه الحسنی ، وفي آيتين منها صراطاً سوياً مرة من غير تعريف ، وأخرى بتعريف بقوله تعالى ﴿فَسَتَلْمِزُونَنِي مِنْ أَصْحَابِ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَى﴾ (٢).

الثالثة : يفسر القرآن بعضه بعضاً رحمة من الله تعالى ، وهو بيان وباب هداية وسبيل توفيق وطريق رشاد ، وأماناً في مسالك التأويل ، وورد في القرآن تفسير الصراط بقوله تعالى ﴿قُلْ إِنِّي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (٣).

الرابعة : جاء الصراط بعنوان العبادة والثبات على الإلتزام بالتوحيد وفي التنزيل ﴿وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ (٤).

قانون الحاجة إلى الهداية

إن الإقرار بالعبودية لله عز وجل والإيمان بإنعدام الشريك والتسليم

(١) سورة الصافات ٢٢-٢٣.

(٢) سورة طه ١٣٥.

(٣) سورة الأنعام ١٦١.

(٤) سورة آل عمران ٥١.

بما جاء به الأنبياء والرسول وان الآخرة حاصلة قطعاً وجزماً هو الاعتقاد الصحيح الذي يجب ان يتجسد في واقع الأفعال وميادين الأعمال بالالتزام بأداء الفرائض وإتخاذ جادة الحق سبيلاً ومنهاجاً ودليلاً، والتمسك بأحكام الشريعة وإجتنب ما نهى الله عنه من الفواحش والسيئات في سعي حثيث بدأب ووعي إيماني ورشاد وتسديد نابع من روح التوكل والهداية كسبيل مبارك تتغشاها البشارة بسلامة الوصول إلى الغايات السعيدة في الدار الآخرة.

لقد جاءت الآية مناسبة وكنزاً وسلاحاً للهداية والتوفيق الى هذا السبيل ولتؤكد في مضامينها ضرورة الإلتزام بالصلاة والصيام وإتيان الفرائض حيث الحاجة للهداية الى العبادة قائمة في كل وقت وملازمة للعبد في ساعات حياته في دار الدنيا حتى وإن كان متلبساً في أداء العبادة ذاتها، والقول بان هذا تحصيل لما هو حاصل فيه عدم التفات للحاجة المتجددة إلى الهداية والرشاد بتجدد الفرائض والواجبات مع توالي الأيام.

وقال أحد علماء التفسير: واما في الأعمال فنقول: "من بالغ في الأعمال الشهوانية وقع في الفجور، ومن بالغ في تركها وقع في الجمود، والصراط هو الوسط وهو العفة"^(١)، وايضاً "من بالغ في الأعمال الغضبية وقع في التهور، ومن بالغ في تركها وقع في الجبن، فالصراط المستقيم هو الوسط وهو الشجاعة، وانه عموماً الوسط الحقيقي بين الأخلاق المتضادة كالسخاء بين التبذير والبخل، والإقتصاد بين الإسراف والتقتير، والتواضع بين التكبر والمهانة ونحو ذلك، فان الوسط بين هذه السجاياء المتناقضة هو السبيل المحمود وان طرفي التفريط والإفراط مذمومان وان الصراط المستقيم هو الوسط الحق الذي لا ميل له الى احد الطرفين ولا عوض له وهو اذق من الشعر، هكذا قال الحكماء.

وهذا القول فيه نظر وتأمل وهو غير مناسب لتفسير الآية الكريمة ولا

يرقى الى مستوى التأويل، وصحيح ان الوسط كثيراً ما يكون هو المناسب وفعله صحيح إلا أن صحة الفعل بالمعنى الإصطلاحي والعبادي لا تنأتى من كونه وسطاً بل لأنه يأتي مطابقاً لأحكام الشريعة.

إذ أن ملاك الأعمال وأشكالها تحددها الشريعة وما تضعه للمسلمين من ضوابط وأحكام تلتقي مع هذا القول في مواطن كثيرة في الحياة الدنيا من غير ان تكون له الحكومة عليها.

وقد يكون الوسط أدنى مرتبة في الصالحات وقد لا ينفع العبد في عبادته فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قد لا ينفع فيه إلا أعلى مراتبه مع إمكانها وعدم الحرج فيها.

وقد تترتب المفسدة على ترك تلك المرتبة العالية، والعبادات المشروطة والمقيدة لابد ان يؤتى بها جامعة للشرائط ، وفي التنزيل ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ﴾^(١).

قانون الصراط الأخروي

معنى الصراط في الآية أوسع من أن ينحصر بالوسط من الأفعال، وموضوعه يختلف معه ، وان كان الوسط في الغالب من مصاديق الصراط .

وجاءت السنة في ظاهرها بإمتناعه عن الحد بهذا التعريف، ويحتاج المرء احياناً للمبادرة الى فعل يتعد عن الوسط يميناً او يساراً لمصلحته في دينه، عزة في الله أو تقية دون أن يخرج عن الصراط وإختيار منهاج العمل لا يأتي من عنوان الوسطية ونحوها بل بإعتبار التكليف الشرعي والأمر الإلهي.

ويحتاج دوام الهداية لدى العبد إلى فضل من الله تعالى ورحمة وفي التنزيل ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ

(قال أنس بن مالك : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكثر أن يقول : يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك، قلنا : يا رسول الله أمنا بك فهل تخاف علينا. قال : إن قلب ابن آدم بين إصبعين من أصابع الرحمن يقلبه كيف شاء إن شاء أقامه وإن شاء أزاعه) (٢).

والدعاء ورد من منزل الهداية لسؤال الثبات على الدين في مستقبل الأعمال ولمنع مغادرة الإيمان أو أن يكون مستودعاً ليس مستقراً ولدفع البلاء والإمتحان الذي تحضر معه ملكة الصبر وإرادة التحمل لكي لا تزل القدم في الآخرة.

إذ جاءت الروايات والأخبار بوجود صراط في الآخرة يمشي عليه الناس يوم الحساب وهو آية من آيات الآخرة وربما ليس له أبعاد ثابتة، وإتساعه وضيقه ومجموع هيئته يختلف بالنسبة إلى العباد حسب أعمالهم في الدنيا وإلتزامهم بأحكام وآداب الصراط المستقيم فيها وتقيدهم بسنن الشريعة إذ أن الدنيا دار عمل وإختبار وإمتحان وهي السبيل إلى المقام في الآخرة والترابط بين الدارين معروف وظاهر.

وفي رواية يصف فيها الإمام الصادق الصراط الأخروي بأنه دقيق ولكن قدرة العبد على اجتيازه تتعلق بأعماله في الحياة الدنيا، فالتقيد التام بالفرائض وأحكام الدين يجعل العبد يمر عليه مسرعاً وهكذا فإن مروره على الصراط يتناسب مع حاله وأعماله في الدنيا.

قال : هو اداق من الشعر، واحد من السيف، فمنهم من يمر عليه مثل البرق، ومنهم من يمر عليه مثل الفرس، ومنهم من يمر عليه ماشياً، ومنهم من يمر عليه حبواً، ومنهم من يمر عليه متعلقاً فتأخذ النار منه شيئاً وتترك

(١) سورة آل عمران ٨.

(٢) الثعلبي / الكشف والبيان ٣٢/٦.

وظاهر الخبر أن الصراط واحد ومتواطئ وإن الاختلاف بين الأفراد في اجتيازه بحسب الأعمال وفعل الصالحات.
ومن هذا أهوال هذا الموقف طول الصراط ومدته ، فقد ورد عن جعفر بن نبات قال وصف الإمام جعفر الصادق عليه السلام الصراط فقال: "ألف سنة صدور، وألف سنة هبوط، وألف سنة حُدال"^(٢).
ولعل شدة الإمتحان فيه تكمن في مواضع دقيقة منه تمثل نقاط عبور وحيدة لا يمكن تركها إلى غيرها أو إستبدالها تكون حال العبد فيها بمثابة باب من أبواب العبادة في الدنيا ففي قوله تعالى ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبَلِإِصْرٍ صَادٍ﴾^(٣) قال عليه السلام: إن قنطرة على الصراط لا يجوزها عبد بمظلمة وقال: ما مظلمة أشد من مظلمة لا يجد صاحبها عليها عوناً إلا الله تعالى^(٤).

قانون سبل اجتياز الصراط

لقد أنعم الله على أهل الأرض بالنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم الذي أرسله رحمه للعالمين، فجعله يخبر المسلمين بسبيل اجتياز الصراط الأخروي ونوع العمل الصالح الذي يجب أن يتسلح به الإنسان للنجاة من الهاوية.

ومن فلسفة الصراط أنه داعية إلى الحق وسبيل هداية في الدنيا لما في الأخبار عنه من وعد ووعيد، في الكافي عن الإمام محمد الباقر عليه السلام عن أبي ذر رضي الله عنه قال: "سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: حافتا الصراط يوم القيامة الرحم والأمانة، فإذا مر

(١) تفسير علي بن ابراهيم ٢٩/١.

(٢) الحُدال - بضم الحاء - كل شيء أملس.

(٣) سورة الفجر ١٤.

(٤) جامع السعادات ٢٢٧/٢.

الوصول للرحم المؤدي للأمانة نفذ الى الجنة، وإذا مر الخائن للأمانة القطوع للرحم لم ينفعه معها عمل وتكفى به الصراط الى النار" (١). ولعل الأمانة هنا أعم من الأمانة التمليكية والوديعة إذ أن أهم أفراد الأمانة هي الأمانة العقائدية وتعاهد لواء التوحيد الذي يتمثل بابهى صورة بأداء الفرائض العبادية.

ولا تخرج الآية الكريمة ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ (٢)، عن مدار الإيمان فهي مرتبطة مع الآية التي قبلها بلحاظ أن الإقرار بالعبودية لله عز وجل توسل اليه تعالى وإقتراب من رحمته وباب للهداية الى الصراط المستقيم، قال تعالى ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَهُدٍ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (٣).

وقراءة الآية السابقة وهي ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ (٤)، والإعتقاد بمضمونها وثيقة عبادية وخطوة في طريق التوحيد وجاءت هذه الآية لسؤال الهداية التي وعد الله بها أهل الإيمان والمنة التي تفضل بمنحها للذي يتمسك بعرى التوحيد، وكأن الآية السابقة هي آية الإيمان والآية اللاحقة التي نحن بصدد تفسيرها هي آية الهداية فمن أراد من الله عز وجل ان يرشده الى سبيل الرشاد والسداد والفوز في الدار الآخرة فعليه ان يعبد الله الذي له ملك السماوات والأرض ويستعين به في جميع شؤونه.

وبالجمع بين الآيتين يظهر أن الإنسان لا يستطيع اجتياز الصراط إلا بفضل الله وإعانتة تعالى سواء بالهداية إلى الأعمال والأسباب المؤدية إلى عبور الصراط وإجتيازه أو بالإعانة يوم القيامة على عبور الصراط لأن العمل وحده لا يكفي فيحتاج العبد حينئذ الدعاء سواء الدعاء للهداية والرشاد أو على تقدير مضاف أي أهدنا اجتياز الصراط المستقيم.

(١) حق اليقين / ١٤٣.

(٢) سورة الفاتحة ٦.

(٣) سورة الحج ٥٤.

(٤) سورة الفاتحة ٥.

قانون أفراد الصراط

الصراط مفرد، ويجمع في الكثرة على صراط ككتاب وكتب، وفي القلة قياسه: صرطة، ولكنه لم يرد في القرآن إلا بلغة المفرد وفيه بيان ومنع للإختلاف في التأويل وإخبار إلهي بأن طريق الحق والسلامة في الدارين واحد.

والظاهر أن لغة المفرد في الصراط مع كثرة مفاهيمه المتقاربة ومواضعه في القرآن مصداق للأخبار القائلة بأن الشريعة المحمدية ناسخة للشرائع الأخرى وأنها سبيل النجاة وجادة الحق وسنامه ومن منفعة العباد أن يسألوا الإعانة على التمسك الدائم بأحكامها والثبات في مسالكها المقدسة وأن يطلبوا الزيادة في الهدى لتتغشى الإفاضات الربانية تفاصيل الحياة الشخصية وميادينها المختلفة، قال تعالى ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى﴾^(١).

وفي الآية الكريمة ضوء مبارك على النظام الذي يجب ان يلتزم به أهل الأرض وهو روح الهداية والسعي في سبلها بإخلاص سواء في الإعتقاد أو العمل مما يظهر مؤثراً وحساساً في النشأة الآخرة حيث ينعدم التكليف ويكون العبور وضعياً.

هذا وقد ورد عن النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: "إذا مر المؤمن على الصراط فيقول بسم الله الرحمن الرحيم طفيت لهب النار وتقول: جزيا مؤمن فان نورك قد اطفى لهبي"^(٢). وفيه بيان إضافي لأهمية البسملة والمواظبة على إتيانها في الحياة الدنيا وأوان الحاجة المتصلة في الآخرة.

مسائل في الآية

الأولى : من أسماء الله تعالى الشكور فهو الذي يشكر العباد

(١) سورة محمد ١٧.

(٢) البحار ٢٥٨/٨٩.

ويجازيهم على عبادتهم، ولأن شكره وإحسانه تعالى لا ينحصر بالحياة الدنيا بل يشملها والآخرة فأننا نطمع بثوابه العاجل والآجل على العبادة وحصر الإستعانة به تعالى.

الثانية : في الآية إخبار عن تعقب فضل الله تعالى لحسن الإمثال والطاعة، فليس ثمة فاصلة زمانية بينهما، وتنتهي العبادة والإستعانة من العبد بإنقطاع أيامه في الدنيا لأن العمل محصور بها بينما طلب الهداية والرشاد إلى الصراط المستقيم مطلق وشامل للحياة الدنيا والآخرة وهو الأمر الذي يؤكد سعة جزائه سبحانه.

الثالثة : الآية تأديب وتعليم للدعاء وإختيار قهري لنوع المسألة ضمن عموم التكليف فبعد أن استجاب المسلم لأداء الصلاة جاءت هذه الآية بالدعاء والسؤال والرجاء مما يدل على أن تفكيك التكاليف يدل على أنها رحمة وحرز وكنز وإدخار.

الرابعة : لغة الجمع في الآية عنوان الصلاح والإجتماع ونبذ الفرقة، فالآية حرب على التشتت والنفرة والقطيعة بين المسلمين سواء كان المعنى سؤال الهداية للمسلمين أو الهداية لكل مسلم على نحو الإستقلال والإنفراد.

الخامسة : في الآية رحمة مستحدثة وهي الإنتفاع من دعاء الغير واحتسابه في الشريعة مما لا ينكر محمد صلى الله عليه وآله وسلم: ادعوا الله بالأسنة ما عصيتموه بها، قالوا يا رسول الله ومن لنا بتلك الأسنة، قال: يدعوا بعضكم لبعض، لأنك ما عصيت بلسانه وهو ما عصى بلسانك^(١).

السادسة : في لغة الجمع في هذه الآية والآية السابقة تأسيس ودعوة للعمل الجماعي والإنضواء تحت لواء الجماعة والحرص على اداء الصلاة جماعة.

السابعة : لم ترد الآية بسؤال الصراط وحده وان كان نعمة عظيمة،

بل قيده بالإنستقامة، وفيه إعجاز وفضل إلهي لأن الله تعالى يعطي بالأوفى والأتم والأكمل وأن المسلمين يستحقون هذه الدرجة سواء في باب السؤال أو باب العطية والجزاء.

الثامنة: الآية دعوة للناس للانتماء إلى الإسلام لأن الإنستقامة والهدى ينحصران به.

التاسعة: قانون في الإسلام سلامة الاختيار والطريق الذي يوصل إلى الغايات الحميدة.

العاشر: قانون الإنستقامة عنوان الرشاد وعدم الإعوجاج أو التيه والضلال.

الحادية عشرة: الآية ثناء على الله عز وجل لما فيها من الإلتجاء إليه وحسن الظن به وبعظيم قدرته وسعة رحمته.

قانون تعدد معاني اللفظ القرآني (بحث أصولي)

هناك صلة وملازمة بين اللفظ والوجود الذهني لمعناه الذي يستحضر بمجرد سماع اللفظ، ونوقش في العلاقة بين اللفظ والمعنى وذكرت فيها أقوال منها:

الأول: وجود عامل خارجي مترشح عن الجعل والتخصيص للعلاقة بين ذات اللفظ والمعنى، ويطلق عليه الوضع وهو المشهور لأن دلالة الألفاظ على المعاني ليست ذاتية.

الثاني: العلاقة السببية بين اللفظ والمعنى، أي ان اللفظ سبب لوجود المعنى لذا يستحيل تخلف المعنى عن اللفظ.

الثالث: من النظريات التي تفسر الصلة بين اللفظ والمعنى نظرية التعهد ومضمونها التوافق النفسي والتفاهم على معنى معين، وسميت بنظرية التعهد بلحاظ أن المتكلم والمتلقي تعاهدا على ملازمة مخصوصة بين اللفظ والمعنى، وأصبحت حجة على كل منهما على نحو الإخبار والقصد، لذا فهي من الدلالة التصديقية وليس من الدلالة التصويرية.

ومن إعجاز القرآن ان اللفظ القرآني يتعهد بالإنلتزام المتعارف على

معنى مخصوص أو عدة معان متعارفة مما ينحل إليها المشترك اللفظي، ففي الحرف القرآني معان ظاهرة وأخرى متجددة ومستحدثة من غير خروج عن أصل اللغة ومدلولاتها وقواعد النطق والنحو والتصريف، تسمعها وتذكر أنها جديدة لكن أصولها ظاهرة وكأنها تنكشف للملأ لأول مرة من غير أن تكون من الرأي في القرآن.

وعن عبد الله بن مسعود (قال : إن القرآن أنزل على نبيكم صلى الله عليه وسلم من سبعة أبواب على سبعة أحرف ، وأن الكتاب قبلكم كان ينزل من باب واحد على حرف واحد)^(١).

ويدل اللفظ الواحد في تركيبه على معنى معين في اللغة، وقد ينتقل إلى غيره مجازاً، بينما يدل اللفظ القرآني على عدة معان تتعدى حدود الملازمة بين اللفظ والمعنى، وبذا تكون علوم القرآن غير متناهية تنقدح منها للأبصار والبصائر مضامين قدسية مستحدثة على نحو دفعي أو تدريجي.

قوله تعالى ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ الآية ٧

القراءة والإعراب

منهم من قرأ (ولا الضالين، بهمز الألف، لكرهية التقاء الساكنين الألف واللام، فحرك الألف لالتقاءهما فانقلبت همزة لأن الألف حرف ضعيف واسع المخرج لا يتحمل الحركة)^(١)، عن أبي أيوب السخيتاني. والصحيح هو المرسوم في المصاحف بالألف، ولا تصل النوبة إلى ضرورة تحريكه وقلبه إلى أقرب الحروف إليه وهو الهمزة وإذا كانت الألف في بعض الكلمات تقرأ أيضاً بالهمز مثل مآده وشأبه، فلا يعني هذا قراءة الألف مطلقاً بالهمز.

بالإضافة إلى حجة القراءة المتواترة والموروثة عن النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم في قراءة الضالين بالألف على نحو الإستغراق مع كثرة قراءته صلى الله عليه وآله وسلم لها في الصلاة اليومية، واتبعه على ذات القراءة الصحابة وأهل البيت والتابعين وأئمة المسلمين.

صراط: بدل من الصراط في الآية السابقة وهو بدل الكل من الكل. الذين: اسم موصول في محل مضاف إليه. أنعمت: فعل ماض وفاعل.

عليهم: جار ومجرور، وجملة (أنعمت عليهم) صلة (الذين) وبها يتم اسم مفرد يكون في موضع جر بإضافة صراط إليه، والضمير في ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ على وجوه ثلاثة وفق الصناعة النحوية:

- الأولى : بدل عن الضمير (هم) في عليهم.
- الثانية : بدل من الذين.

(١) لسان العرب ٣٩٠/١٢.

الثالثة : صفة للذين.

الظاهر أن الوجه الثاني هو الأقرب، لأن نعم الله على جميع الناس متصلة، وبعض منها إستدراج ومنها ما لا تقابل بالشكر ولتعدد فضل الله تعالى وإكرامه وتشريفه للمؤمنين، وحكي شاذاً اللذون بدل الذين كما حكي الشياطون في حال الرفع لكلمة الشياطين.

وقرأ ابن مسعود وزيد بن علي صراط من انعمت عليه وهو المروي عن عمر وعبد الله بن الزبير، وقد اورد اهل اللغة في عليهم لغات عديدة:
الأولى : كسر الهاء واسكان الميم وهي قاعدة الجمهور ولغة نجد.

الثانية : ضم الهاء واسكان الميم وهي قراءة حمزة.

الثالثة : كسر الهاء والميم وياء بعدها (عليهمي) وهي قراءة الحسن وكذلك بغير ياء وهي قراءة عمرو بن فائد.

الرابعة : كسر الهاء - والميم والياء بعدها (عليهم).

الخامسة : كسر الهاء وضم الميم بواو بعدها عليهم وهي قراءة ابن كثير.

السادسة : ضم الهاء والميم وواو بعدها وهي قراءة الأعرج ومسلم بن

جندب وجماعة.

السابعة : وضمها - بغير واو - نسبت لابن هرمز.

الثامنة : كسر الهاء وضم الميم بغير واو نسبت للأعرج والخفاف عن

ابن عمرو.

التاسعة : وضمها وكسر الميم بعدها وكذلك بغير ياء وقرئ بهما ايضاً

وحاصلها ضم الهاء مع سكون الميم او ضمها باشباع او دونه او كسرهما

باشباع او دونه.

وفي (غير المغضوب) روى الخليل عن عبد الله بن كثير بالنصب، وقال

الأخفش ان (غير) نصب على الحال وان شئت على الإستثناء، وقال

الكوفيون: لا يكون إستثناء لأن بعده (ولا) ولا تزداد (لا) في الإستثناء،

وقال أبو العباس: هو إستثناء ليس من الأول.

وتتعلق المسألة بعلم التفسير فان الغضب في الإستثناء الأول صادر من

مقام العزة والجبروت، بينما الضلالة صادرة في الإستثناء الثاني من العبيد، وأن أسباب غضبه وسخطه تعالى مختلفة بتباين نوع الفعل الذي يقترفه العبد مما نهى عنه تعالى، والضلالة من الكليات المشككة والغضب الإلهي أعم من أن تنحصر أسبابه بالضلالة، ولا يحتسب (الضالين) عطف بيان الذي يأتي فيه المعطوف تابعا لتوضيح متبوعه ويخصصه.

وقال ابن مسعود: خط لنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم خطأ وقال: "هذا سبيل الله، ثم خط خطأ عن يمينه ويساره هذه سبل وعلى كل سبيل شيطان يدعو إليه، ثم قرأ قوله تعالى ﴿وَأَن هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ﴾" (١).

(لا) زائدة عند البصريين جاءت لتوكيد النفي وبمعنى (غير) عند الكوفيين.

وهمز أيوب السخيتاني الضالين فقرأ (ولا الضالين) بقلب الألف إلى همزة ثم تحريكها على طريقة بعض العرب في التخلص من إلتقاء الساكنين، وقيل أن الأصل في الضالين: الضاللين ثم أدغمت اللام في اللام فاجتمع ساكنان لأن في الألف مدة والثاني مدغم.

وروي أن عمر بن الخطاب والزبير كانا يقرءان وغير الضالين، وذكر الزمخشري أن الإمام علي عليه كان يقرأها (٢)، وعن الخليل أن النصب بفعل محذوف أعني، وقال بعضهم بوجود حذف في الآية الكريمة والتقدير غير صراط المغضوب عليهم.



(١) محمد بن محمد بن الحسين الرازي توفي ٦٠٦ هـ مفاتيح الغيب ١/٢٢٧.

(٢) انظر الزمخشري / الكشف عن حقائق التنزيل وعيون الاقاويل في وجوه التأويل

اللغة

قد تقدم معنى الصراط في الآية السابقة، والنعمة والنعيم والنعماء: الخفض والدعة والمال، والنعمة: الصنيعة والمنة والعطاء الجزيل. و(غير) لفظ يأتي لبيان المغايرة وقيل انه من مفردات اللغة العربية ومبتدعاتها اذ لا تشاركها فيه اللغات السامية الأخرى.

وهو في الأصل صفة تفيد في مضمونها مغايرة مجرورها الذي يليها لموصوفها السابق لها ذاتاً او صفة، فتقول مثلاً: العالم غير الجاهل وتقول: المتحرك غير الساكن.

وفي مواضعها لا يصح استعمال (إلا) التي تفيد معاني الإثبات والنفي، ولكن (غير) يمكن أن تأتي محل (إلا) في المغايرة نفيًا واثباتًا بغض النظر عن خصائص الذات والصفة مع اختلاف يسير في المعنى للحصر والإستثناء الذي يكون فيما بعد (لا) وللسعة والشمول الذي يكون قبل (غير).

وقد يستعمل لفظ (غير) للكناية والتعريض وهناك فرق بين (انا لا افعل الفواحش) و (غيري يفعل الفواحش) ففي الجملة الأولى يثبت الإنسان او يدعي نزاهته ونفى المنكر عن شخصه وذاته وفي الجملة الثانية أضاف إلى هذا النفي نسبة أتيان الفواحش إلى شخص أو أشخاص آخرين .

وقال أهل اللغة بخلو المقام من التعريض او قصد انسان بعينه، ولكن هذه اللغة تستعمل في الجدال والخصومة وقد يفهم منها اولوا الألباب التعريض بالمخاطب او غمز شخص او جماعة معينة.

ومن الفقهاء من رتب عليها حكم القذف وليس بتام لأصالة البراءة ولطرد احتمال ارادة عدم التعريض والجرح.

و(عن عائشة قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ادرءوا الحدود عن المسلمين ما استطعتم فإن كان له مخرج فخلوا سبيله فإن الإمام

أن يخطئ في العفو خير من أن يخطئ في العقوبة^(١).
ولقد وردت (غير) في الآية الكريمة معرفة لمكان الإضافة ولأنها جاءت بين متضادين معرفتين، والمعروف أن غير إذا اضيفت الى معرفة له ضد واحد تكون معرفة لإنحصار الغيرية بفرد واحد وكأنه من ملحقات السبر والتقسيم في البلاغة.

ويقال غضب عليه يغضب غضباً فهو غضبان والغضب نقيض الرضا، والغضب عند الإنسان عبارة عن حالة الإنفعال وشدته مع تولد إرادة الإنتقام، ولكن غضب الله سخطه على أهل المعصية بعد قيام الحجة عليهم وإستحقاقهم لما يعرضون أنفسهم له من العقاب، وفي الحديث القدسي عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم (قال : لما قضى الله الخلق كتب في كتاب وهو عنده فوق العرش : إن رحمتي سبقت غضبي)^(٢).

والرحمة والغضب من صفات الفعل وليس من صفات الذات، وفي حديث الإمام الباقر عليه السلام: "أن الله خلق الرحمة قبل أن يخلق الغضب".

والمفاعيل إذا تقدمت الصفات فإن التذكير والتأنيث والجمع يلحق الأخيرة لتترك المفاعيل على هيئاتها، تقول: هو مغضوب عليه، وهي مغضوب عليها: وهم مغضوب عليهم.

والضلال والضلالة ضد الرشاد والهدى، والضلال: الضياع والسير في دروب الهلاك والإتجاه نحو الهاوية، ويقال: ضل الشيء يضل ضلالاً إذا ضاع، وضل عن الطريق: إذا جار.



(١) سنن الترمذي ٣٣/٤ .

(٢) الثعلبي / الكشف والبيان ٢٠٢/٥ .

في سياق الآيات

بعد ان كان موضوع الآية السابقة سؤال الهداية والرشاد جاءت هذه الآية الكريمة بلغة الوقاية التي تتضمن النجاة من مسالك الضلالة. بعد تأكيد الآيات على ان الله عز وجل هو الرحمن الرحيم، وإن مفاتيح الرحمة بيده تعالى، وما من مخلوق إلا وتتغشاه رحمة الله ابتداء وإستدامة وليس من عبد إلا وهو محتاج إلى رحمته في الدنيا والآخرة، وأنه مالك يوم القيامة، وإليه يتوجه السؤال بالنجاة يوم القيامة بالهداية إلى سواء السبيل وطرق السلامة من العقاب.

وجاءت هذه الآية لوصف وتفصيل الصراط الذي يسأل المسلمون الله عز وجل الإهتداء له، ومن الآيات أن المسلمين جميعاً وفي أجيالهم المتعاقبة وإلى يوم القيامة يسألون الله عز وجل ذات الصراط مما يدل على سعة رحمة الله وأنه سبحانه يهدي المسلمين جميعاً إلى الصراط، وهو يسعهم من غير تزاحم أو ضيق فهو مصداق لرحمة الله تعالى وأسباب الهداية والنجاة التي خص بها المسلمين.

إعجاز الآية

تدل الآية على وجود صراط هدى، وهو أمر يدرك بالوجدان بطريق الحق والرشاد الذي يقود الى الجنة، أما طريق الضلالة فانه يسوق إلى النار.

وفي الآية براءة من الكفار والجاحدين، وتنزه عن أفعالهم لتكون حرزاً وتحذيراً دائماً من الركون إليهم.

لقد أظهرت الآية رحمة الله عز وجل بالمسلمين وتلقينه إياهم صيغ الدعاء بقصد القرآنية والتلاوة ليكون فيها أجر مضاعف، وهي لطف ورأفة ورحمة بكل مسلم ومسلمة ووسيلة سماوية للتفقه في الدين والإرتقاء في مراتب المعرفة الإلهية.

ويمكن تسمية هذه الآية بآية "صراط الذين" ولم يرد هذا اللفظ إلا في هذه

الآية سلاح

تهدي الآية إلى صدق الإيمان والتقيد بأحكام العبادة والتنزه عن الشرك الظاهر أو الخفي، وتساهم في تهذيب النفوس بالإنقطاع إلى الله لعبادته والإستعانة به.

لقد جعل الله عز وجل الدنيا دار إمتحان وإختبار، وصراع بين الخير والشر، وبين الإيمان والكفر، ولم يترك القوتين تتصارعان على نحو مجرد، مع ظهور الحسن الذاتي للخير، والقبح الذاتي للشر، بل تفضل وبعث الأنبياء والرسل، وأنزل الكتب من السماء.

وجاءت هذه الآية لتبين التباين والتضاد بين أهل الإيمان وأهل الكفر في العمل والمنهج والسبل، وثبات المسلمين في السعي للفوز بالدرجات العالية في الجنة.

مفهوم الآية

الآية تضرع إلى الله والحاح بالدعاء وبيان للمسألة بلغة الخشوع والمسكنة ، وإحتراز من الغواية ، وإدراك لضعف النفس الإنسانية، وإعلان عن عدم الإعتماد عليها في الإختيار والحسم ، فقد لا تهتدي بذاتها إلى الطرق الرشيدة والغايات الحميدة.

ومن مفاهيم الآية أنها إخبار عن عظيم نعمة الله تعالى على أمم وجماعات المؤمنين في الملل السالفة بالهداية إلى دين التوحيد وعقيدة الإيمان.

وفيها سعي لتثبيت دعائم الإسلام بإظهار الحرص على التقوى واللجوء الى الله عز وجل، وفيها إعلان عن كره الضلالة ولزوم الإلتفات الى لزوم الحذر منها وإجتناّب غضب الله وبطشه تعالى، إنها دعوة إلى الإسلام وإظهار لحال الخشوع والخضوع له تعالى بلسان الشوق إلى سبل الصلاح والإنجذاب إلى مسالك الإستقامة.

وفي الآية مسائل:

الأولى: ذكر صفة واقعية للصراط المستقيم بأن يكون معلوماً ظاهراً لأن الأنبياء والصالحين ساروا فيه.

الثانية: قانون الإقرار بأن الهداية إلى الصراط المستقيم نعمة وفضل وإحسان من عند الله مما يستلزم الشكر من المسلمين على الهداية إليه.

الثالثة: قانون الملازمة بين إستقامة الطريق وبين الإقتداء بالأنبياء والصالحين وإقتفاء آثارهم.

الرابعة: سؤال النجاة من الكفر والضلالة وطريق الذين جحدوا بالربوبية، وأنكروا النبوة، وأصرّوا على المعاصي.

الخامسة: قانون لجوء المسلمين إلى الله تعالى للنجاة من غضبه تعالى والحلول في سخطه.

السادسة: قانون إدراك المسلمين للقبح الذاتي لمفاهيم الضلالة ولجوئهم إلى الله تعالى لدوام النجاة منها.

إنفاذات الآية

هذه الآية فرار إلى الله تعالى، وغرق في أنوار جلال قدسه وإقرار بان الهداية والنجاة، والفوز أمور بيد الله تعالى، وهي دعوة للناس جميعاً للتدبر في الخلق والتدارك والإنابة، وإجتنب أسباب الضلالة والفسوق.

لقد أراد الله عز وجل بيان حقيقة في هذه الآية وهي وجود سبيل سلامة وأمن سار عليه الأنبياء والصالحون من الأمم السابقة، وأن المسلمين يرثونهم في ذات النهج بالدعاء والتضرع والمسألة إلى الله تعالى.

ومن أعظم النعم على الإنسان الهداية ، والتي تجعل قلب المسلم أشرف البقاع، ويرى ببصره وبصيرته الصراط المستقيم فيقتضي آثار الأنبياء بإتباع أحكام القرآن وسنن النبوة .

ويفزع كل مسلم الى الله كل يوم من الضلالة والغواية ويلجأ الى الله تعالى للأمن من غضبه سبحانه.

الآية لطف

لقد أراد الله عز وجل للمسلمين وراثة الأرض وحفظ لواء الوحي إلى يوم القيامة، فتفضل عليهم بهذه الوثيقة السماوية لتكون مدرسة في الهداية، وواقية من مسالك الغواية والضلالة، وهو من عمومات قوله تعالى ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾^(١).

وتبين الآية ماهية الحياة الدنيا وأنها دار إمتحان وإختبار، ولكنها تهدي إلى إجتياز ما فيها من الإبتلاء والإفتتان باللجوء إلى الله تعالى، وتلاوة آيات القرآن وإرتداء لباس التقوى والسعي في دروبها.

ومن الآيات أن الآية تقسم الناس إلى قسمين:

الأول: الذين هداهم الله إلى الصراط المستقيم.

الثاني: أهل الكفر والجحود وهم على شعبتين:

الأولى: الذين غضب الله عليهم.

الثانية: أهل الضلالة الذين إختاروا العناد والكفر.

ولم تكتفِ الآية بالإخبار عن القسمين بل جاءت بصيغة الدعاء والمسألة واللجوء إلى الله عز وجل للنجاة من دروب الضلالة واذ كان هناك تضاد بين صراط أهل الإيمان وضلالة الكفار فلماذا لم تكتفِ الآية بسؤال صراط الهداية والرشاد، فيه مسائل:

الأولى: البيان والتفصيل.

الثانية: إظهار الخشية من الله، وتوكيد حب المسلمين لله تعالى.

الثالثة: الحذر والحيلة من الضلالة وأهلها ومسالكها.

الرابعة: السعة والزيادة في الدعاء والتفصيل في المسألة والمناجاة، مع

الإلحاح الذي يتجلى بقراءة المسلمين جميعاً للآية في كل صلاة.

الصلة بين أول وآخر الآية

جاءت هذه الآية متعلقة بمضامين الآية السابقة، وآيات سورة الفاتحة الأخرى، إذ ان البسملة باب كريم للمسألة والدعاء، وإستفتاح باسم الله وهو الرحيم والهادي والمنعم، والبسملة طلب لنيل مرتبة العمل بالأحكام الشرعية، ثم جاء قوله تعالى ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾^(١) لبيان أدب العبودية، ويفيد الجمع بينه وبين هذه الآية التوسل والتضرع للثبات في منازل الشكر لله تعالى.

إن وضع القدمين على الصراط المستقيم تبصرة وأمن وهداية، ولأن الله تعالى هو الرحمن الرحيم فقد هدى الأمم السالفة من الموحدين الى الصراط المستقيم، وجعله طريقاً مألوفاً سالكاً معروفاً لدى الصالحين بل وغيرهم من الناس، إذ ان الطريق السالكة الآمنة يعرفها الناس جميعاً ويتناقلون أخبارها وتستقر إليها نفوسهم وإن لم يسيروا فيها ويروا معالمها. فجاءت هذه الآية وما فيها من ذكر للأمم السابقة دعوة وترغيباً للناس بالصراط المستقيم، وتبين الآيات حاجة المسلمين والناس جميعاً الى رحمة الله تعالى فهو الرحمن الرحيم.

ومن رحمة الله سماع الدعاء والهداية إلى الصراط المستقيم، وهذه الحاجة أعم من ان تنحصر بالدنيا او الآخرة وحدها، بل تشمل الدنيا والآخرة لذا جاء قوله ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾^(٢) قبل ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾^(٣) لإفادة عموم الرحمة الإلهية متصلة في أفراد الزمان والعوالم الطولية

(١) سورة الفاتحة ٢.

(٢) سورة الفاتحة ٣.

(٣) سورة الفاتحة ٤.

المتباينة ، فيحتاج الناس رحمته في الدنيا وعالم البرزخ ومواطن يوم القيامة.

وفي الآية إخبار بأن الهداية إلى الصراط المستقيم نعمة عظيمة فاز بها المسلمون من الأمم السالفة، والذين آمنوا بنبوّة محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، ومن رحمة الله تعالى أنه إذا أنزل رحمة لأهل الأرض فانه أكرم من أن يرفعها، قال تعالى ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ﴾^(١).

ثم جاءت خاتمة الآية والسورة معاً باللجوء والاستعاذة بالله تعالى من مكر أهل الضلالة والجحود عموماً الذين إستحقوا اللعنة والعقاب بسوء إختيارهم وإقامتهم على المعاصي، وكما سأل المسلمون الهداية الى الصراط المستقيم فانهم سألوا العصمة من السيئات والمعاصي، وخلط العمل الصالح بالسيئ والقيح.

من غايات الآية

جاءت الآية خاتمة كريمة لسورة الفاتحة وهي تتضمن دروس الحكمة والموعظة، والسؤال لحاجات الآخرة والنجاة فيها، ولا يعني هذا ان المسلم لا يلتفت ولا يكثرث بالدنيا مطلقاً.

فورود الآية بذكر إسمين من الأسماء الحسنی ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾^(٢)، عنوان لرجاء فضل الله تعالى في الدنيا والآخرة، ومهما يبذل الإنسان من الجهد والسعي والكسب في الدنيا فانه لا يستطيع بلوغ غاياته ومقاصده وتحقيق آماله، وتحصيل الأحسن له، لذا يلتجأ المسلمون إلى رحمة الله تعالى الواسعة، ويرجون خير الدنيا والآخرة، ويسألون الفوز بالبقاء على

(١) سورة النساء ٦٩.

(٢) سورة الفاتحة ٣.

وتبين الآية القبح الذاتي للذنوب والفواحش، وتحث المسلمين على إجتنبها والإبتعاد عنها، والتوقي منها بالدعاء والصلاة وتلاوة آيات القرآن والتدبر بما فيها من المعاني الإعجازية .

لقد سأل المسلمون الوقاية من إغواء الشيطان على جانبي الطريق وفي التنزيل ﴿قَالَ فَمَا آغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾^(١).

فتفضل الله تعالى ولقن المسلمين بآيات سورة الفاتحة المباركة كلمات النجاة والأمن في النشاطين باللجوء اليه وطلب الهداية الى طريق الايمان والخضوع الى الله تعالى والتقيّد باداء الفرائض والعبادات.

التفسير

بعد ان بدأت سورة الفاتحة بالبسملة المباركة والحمد والثناء من موضع الخضوع ولبلباس الذل ولسان الخشوع لمقام الربوبية والسلطان المطلق على جميع المخلوقات والتقرب إلى الله تعالى بأعظم صفاته وما نحن بحاجة دائمة إليه من الرأفة والعفو والرحمة في الحياة الدنيا والدار الآخرة بأن الأمر كله يومئذ لله عز وجل بعد غلق باب العمل وفرصه وختم سجله لتبرز أمام الإنسان حقيقة ثابتة وهي وجوب استثمار الحياة الدنيا للعمل الصالح كسبيل إلى النجاة في الآخرة.

فجاءت صيغة الدعاء وسؤال الهداية في قوله تعالى ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾^(٢) جامعة لوجوه الصلاح والمسألة، ومانعة للإنغماس في المعصية، ولغة الإجمال فيها كالتفصيل المنجز بفضل الله تعالى، وهذا من اعجاز القرآن ان يرد السؤال وموضوع الآية مجملًا فيكون أثره ومنافعه متعددة ومستديمة ، فوردت الآية أعلاه بمفهوم الإجمال لتأتي آية

(١) سورة الاعراف ١٦.

(٢) سورة الفاتحة ٦.

البحث ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾^(١)،
بعناوين التوكيد والتفسير والتكرار والإشعار للعزيمة في السؤال والصدق
في الإيمان ، والإخلاص في النية والعمل.

ولتكون بياناً وتزييناً لروح الإيمان وإدراكاً لمطان الدعاء وعظيم ما
أنعم الله به على المسلمين وتبييناً وإرشاداً إلى تلك النعم ، وتذكيراً بها
وتحريضاً للفكر الإنساني على إستحضارها والإقرار بها وعدم نكرانها،
ولكي يكون المسلمون بعيدين عن أولئك الذين ذمهم الله تعالى في القرآن
بقوله ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَةَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ﴾^(٢).

وفي الآية إعراف من المسلمين بأن ما عندهم من النعم الفردية
والجماعية إنما هي من عند الله سواء الظاهرة منها او الباطنة ليحول هذا
الشعور الذاتي والإعتراف الدائم دون الغرور والجحود وليكون عنواناً
لشكر قال تعالى ﴿ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيْتُ عَلَيْهَا عِلْمٌ...﴾^(٣).

لقد كان القرآن صريحاً بذهمه للذين لم يضعوا النعمة في منزلتها
الحقيقية ولم يؤدوا ما يجب عليهم أزاءها من الشكر والعرفان، ومن
أجلى مصاديقه إلتزام جادة الحق وسواء السبيل، قال تعالى ﴿وَإِذَا
أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ...﴾^(٤).

وجاءت الآية إحترازاً من هذه الصفة التي كانت متفشية بين الناس،
وواقية تفضل الله عز وجل بهداية المسلمين إلى إتخاذها سبيل رشاد
وطريق نجاء وإستعانة به تعالى لإتتمام النعم مع توارث وظيفة غرس هذا
الإعتراف في الأجيال المتعاقبة وبقائه مصدر إشعاع وهداية لأهل الأرض

(١) سورة الفاتحة ٧.

(٢) سورة النحل ٨٣.

(٣) سورة الزمر ٤٩.

(٤) سورة الإسراء ٨٣.

ويحتاج هذا الإعتراف الى تجسيد في واقع الأفعال وعالم الأعمال بانتهاج طريق الحق والصلاح والحرص الدائم على مظاهر العبودية والإخلاص في العبادة، لذا جاءت هذه الآية ببيان مضمون الهداية في المقام وكيفية سؤالها ، والأمل المبتغى في سنخ الطريق الذي يرضي الله عز وجل وفيه الشكر على النعم والفوز في الآخرة والنجاة من صحبة ومحاكاة أهل الكفر والضلالة.

مصاديق الصراط

في تفسير أهل الصراط المستقيم الذين أنعم الله عليهم عدة وجوه وأقوال:

الأول: صراط الإسلام^(١).

الثاني: عن ابن عباس هم اصحاب موسى قبل ان يغيروا^(٢)، وفي قول أضيف لهم أصحاب عيسى قبل التحريف والنسخ.

الثالث: هم الأنبياء.

الرابع: إنه كتاب الله.

الخامس: الذين تلو آيات القرآن واتبعوا احكامه.

السادس: وبالإسناد عن ابن عباس: طريق من أنعمت عليهم من الملائكة، والنبين، والصديقين، والشهداء، والصالحين الذين أطاعوك وعبدوك^(٣)، قال تعالى ﴿فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا﴾^(٤).

(١)الكشاف ٤٨٣/٥.

(٢)الكشف والبيان ٤١/١.

(٣)الدر المنثور ١١/١.

(٤) سورة النساء ٦٩.

السابع: روي عن الإمام علي عليه السلام: "ان معنى ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ﴾ الآية أي قولوا اهدنا صراط الذين انعمت عليهم بالتوفيق لدينك وطاعتك لا بالمال والصحة فانهم قد يكونون كفاراً او فساقاً، قال وهم الذين قال الله ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصَّدِيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا﴾^(١).

الثامن: هم المؤمنون مطلقاً.

التاسع: هم أصحاب وأهل بيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم^(٢).

العاشر: المعنى صراط من انعمت عليهم بطاعتك.

الحادي عشر: ان النبي محمداً صلى الله عليه وآله وسلم هو المقصود. ولا تعارض بين هذه الاقوال فكل آية من القرآن تتضمن في منطوقها نعمة أو أكثر، وتتعدد النعم بلحاظ المفهوم والدلالات الثلاث المطابقة والتضمنية والالتزامية.

قانون توالي النعم

لقد ورد لفظ (النعمة) من الله تعالى على عباده بصيغة المفرد والجمع في خمسة وستين موضعاً من القرآن، منها ما كان يعم جنس الإنسان ويتعلق باصل الخلق والتكوين، قال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَانْصُرُوهُ﴾

(١) سورة النساء ٦٩.

(٢) الكشف والبيان ٤١/١.

تُفَكَّرُونَ ﴿١﴾.

ومنها ما كان ذا تخصيص ومتوجها، إلى فرد شريف من البشر، قال تعالى ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ۚ لَوْلَا أَن تَدَارَكْهُ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ۙ﴾ (٢).

ومنها ما كان يخص جماعة معينة لما إمتازوا به من إرادة الإيمان، وبركات الهداية وأنوار النبوة، قال تعالى ﴿كَذَبَتْ قَوْمٌ لُّوطَ بِالنُّذُرِ * إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ * نِعْمَةٌ مِّنْ عِنْدِنَا كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ ۙ﴾ (٣)، ومن النعم ما كانت خاصة بقوم أو شعب قال تعالى ﴿يَا بَنِي إِسْرَآئِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ...﴾ (٤).

وجاء القرآن بدم الذين أساءوا إستقبال النعم ، ولم يؤدوا ما تستلزمه من وجوه الشكر و جلبوا على أنفسهم وأهليهم ومن بناحيهم البلاء والوبال، قال تعالى ﴿أَلَمْ تَرَىٰ إِلَىٰ الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ﴾ (٥) لذا يمكن إعتبار الآية الكريمة من سورة الفاتحة حرزاً ووقاية من هذه العواقب ، وإجتنباً للجحود ، وطرداً للكفر ووجوهه وصيغته بلحاظ إستثناء وإخراج الذين باءوا بغضب الله والذين ضيعوا طريق الهدى وضلوا عن جادة الصواب وسبيله والتوسل بالدعاء وقراءة القرآن من الإقتداء بهم.

ومن مصاديق عجز الناس عن إحصاء النعم كما في قوله تعالى

(١) سورة فاطر ٣.

(٢) سورة القلم ٤٨ - ٤٩.

(٣) سورة القمر ٣٣-٣٥.

(٤) سورة البقرة ١٢٢.

(٥) سورة ابراهيم ٢٨.

﴿وَإِنْ تَعَدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾^(١)، أنه مع الإشتغال بالنعم تتوالى أفراد منها أكثر من التي يعدها الناس ، فاذا عدوا مليون نعمة في الدقيقة فان أضعافها تأتي للناس في ذات الدقيقة.

قانون الهداية إلى الصراط

لقد جاءت الآية الكريمة بسؤال الإهتداء إلى طريق أصحاب النعم وهو غير النعمة، فالنعم أمر وهبة نازلة من عند الله عز وجل. وهناك مغايرة بين الطريق وذات الغاية.

والصراط: الطريق الذي إختاره هؤلاء لسيرتهم في الحياة الدنيا وضمّنوا به الأمن من سخط الله وامتنعوا به من الهلاك فكانوا مثلاً إيمانياً يشع نوراً وعلماً للهدى، ودرّباً للتوفيق والفوز سالكاً.

إن ورود الآية وطلب الهداية بلغة الجمع (اهدنا) رحمة تتغشى عامة المسلمين فهم أهل السؤال من الله وانهم يطلبون الإقتداء بغيرهم ممن توالى عليه نعم الله ومنه فأدى شكرها بالسير على جادة الحق والصواب.

ويمكن أن يكون المسلمون بالمعنى الأعم المقصودين بأهل الصراط الذي أنعم عليهم في الآية الكريمة ، سواء الذين أظهروا التسليم بالربوبية وإتباع الأنبياء السابقين ، أو الأوائل بالنسبة للطبقات اللاحقة من الأمة. أما ما جاء في الوجه الثاني أعلاه وأنهم أصحاب موسى قبل أن يغيروا فأن بني إسرائيل نالوا قسطاً وافراً من النعم المخصوصة التي جاءتهم متوالية، ولم يظهر تمسكهم بالصراط السوي على نحو العموم الإستغراقي، والإقرار بأنهم قد غيروا ، وفيه دعوة لمعرفة أوان وكيفية هذا التبدل والتغيير من القرآن والسنة.

وأما ما ورد في الوجه الثالث وأن الأنبياء هم المقصودون في الآية الكريمة ، فلم يرد مخصص متصل أو منفصل يكون دليلاً عليه أو أمارة

تشير الى الأنبياء دون أتباعهم من أهل الإيمان ، قال تعالى ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾^(١).

ومع الإقرار بأن الأنبياء مقدمون بالأولية القطعية بمنطوق هذه الآية ومفهومها إلا أنها تشمل ايضاً غيرهم من المؤمنين الذين حملوا راية التوحيد وتعاهدوا مبادئها في الأرض فكانوا من الذين أنعم الله عليهم وسلكوا الطريق السوي وسبيل الرشاد والفوز ولم يكونوا ممن عرضوا أنفسهم لغضب الله أو ضلوا عن مسالك الهداية.

وما ورد في الوجد الرابع وأنه القرآن ربما يرجع الى ما أخرجه البيهقي في شعب الإيمان والأنباري في المصاحف وابن مردويه وغيرهم عن الإمام علي عليه السلام انه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول ستكون ستكون فتن.

قلت: وما المخرج منها.

قال: كتاب الله فيه نبأ ما قبلكم، وخبر ما بعدكم وحكم ما بينكم هو الفصل وليس بالهزل وهو حبل الله المتين وهو ذكره الحكيم وهو الصراط المستقيم هو الذي لا تزيغ به الأهواء ولا تلتبس به الألسن ولا يشبع منه العلماء ولا يخلق على كثرة الرد ولا تنقضي عجائبه: هو الذي لم تنته الجن اذ سمعته حتى قالوا انا سمعنا قرآناً عجباً يهدي الى الرشاد، من قال به صدق ومن عمل به أجر، ومن حكم به عدل ومن دعا اليه هدى الى صراط مستقيم^(٢).

ولا تعارض بين هذه الوجوه لعموم المعاني المباركة للآية ، وليس علي نحو الحصر حكماً وموضوعاً ، قال تعالى ﴿وَأَنْ أَعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ

(١) سورة الحج ٥٤.

(٢) الترمذي ١٥٨/٥.

مُسْتَقِيمٌ ﴿١﴾ لقد انعم الله على نعر من خلقه فاجتباهم لدينه وكانوا حريصين على الإلتزام بأحكام العبودية وأداء مناسك الطاعة بهداية وتسديد منه تعالى.

ولقد ورد في تفسير للصراط المستقيم في قوله تعالى ﴿قُلْ إِنِّي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيمًا لِإِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (٢).

سؤال السلامة من غضب الله

إن نزول قوله تعالى ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ (٣)، رحمة عامة باجيال المسلمين لبيان سخط الله عز وجل على المشرك والفساق والظالم وإن استمتعوا في الحياة الدنيا ، وفي التنزيل ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَنَّوْنَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مُمْسِيَةٌ لَهُمْ﴾ (٤). وتبين الآية تفقه المسلمين في الدين وإقرارهم بالعالم الآخر ، الذي هو دار حساب وجزاء .

والإيمان وأداء الفرائض والعمل الصالح واقية من غضب الله .
(وعن أبي أمامة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : صنائع المعروف تقي مصارع السوء ، وصدقة السر تطفئ غضب الرب ، وصلة الرحم تزيد في العمر .

وأخرج الطبراني في الأوسط عن أم سلمة قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : صنائع المعروف تقي مصارع السوء ، والصدقة

(١) سورة يس ٦١ .

(٢) سورة الانعام ١٦١ .

(٣) سورة الفاتحة ٧ .

(٤) سورة محمد ١٢ .

خفياً تطفئ غضب الرب ، وصلة الرحم تزيد في العمر ، وكل معروف صدقة ، وأهل المعروف في الدنيا هم أهل المعروف في الآخرة ، وأهل المنكر في الدنيا هم أهل المنكر في الآخرة ، وأول من يدخل الجنة أهل المعروف^(١).

أما غضب الله عز وجل فقد نال قوم قسطاً يسيراً منه في الحياة الدنيا كما أخبر القرآن إجمالاً وتفصيلاً مع البيان عن الأفعال السيئة التي تكون سبباً لاستحقاق غضب الله تعالى ﴿وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾^(٢).

وهناك آيات أخرى تؤكد غضب الله عز وجل على الذين إنحرفوا عن سواء السبيل ولم يلتزموا بما جاء من الشرائع والأحكام ، قال تعالى ﴿مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾^(٣).

ومنهم كفار قريش الذين حاربوا النبي محمداً وسعوا في قتله ومنع نزول آيات القرآن التي كانت تنزل نجوماً وعلى التوالي والتعاقب ، قال تعالى ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾^(٤).

وفي الآية دلالة على إمكانية معرفتهم السوء والانحراف في مسارهم لظهور الشر في أفعالهم والضياع والته في أعمالهم بما رزق الله الإنسان

(١) الدر المنثور ٢/٢١٦.

(٢) سورة البقرة ٦١.

(٣) سورة المائدة ٦٠.

(٤) سورة الأنفال ٣٠.

من ملكة التمييز والفرز العقلي وما سلحه به من أصول ملكة الهداية التكوينية.

ولقد إختار شطر من الكفار طريق الجحود والإلحاد فظلموا أنفسهم والقوا بأبدانهم في محن العذاب، قال تعالى ﴿وَلَكِنْ مِنْ شَرِّ أَكْفَرُ صَدْرًا فَاعْلَمْتُمْ غَضَبُ مِنْ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾^(١).

ومنهم أصحاب النفاق وأهل الشرك الذين ساءت عقائدهم، قال تعالى ﴿وَيُعَذِّبُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّالِمِينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾^(٢).

ترى هل تقدم أصالة العموم بحكم جريانها في تحديد المقصود ام يتجه إلى إبراز المراد الواقعي الحقيقي بقريئة ما ورد في السنة النبوية الشريفة التي هي بيان وتفسير للقرآن، ولتكون هناك أولوية وتخصيص لبعض المعاني، ويقدم الأظهر على الظاهر، المختار هو الأول، ويكون الثاني في طوله.

ويكون النص بياناً وتخصيصاً وتفسيراً، وقد يكون من باب الفرد الأقرب والمثال الواضح والتطبيق وإلا فان الآية أعم، وفي إطلاق الوصف وعدم حصره بقوم أو طائفة من أهل الكفر والضلالة فضل إلهي ونوع تفويض إلى الله في الإلتجاء إليه من جميع العقائد الباطلة والأعمال القبيحة والأخلاق المذمومة والسبل التي تحجب الأجر والثواب وتؤدي إلى النار، والإجمال وعدم حصر وتعيين جماعة (المغضوب عليهم) دعوة للتفكر والتدبر والغوص في أعماق التاريخ لدراسة أحوال الناس وعقائدهم وما حل بالكافرين والجاحدين من العذاب والسخط الإلهي

(١) سورة النحل ١٠٦.

(٢) سورة الفتح ٦.

معالم الإيمان / الجزء الأول _____ ٣٣١
وللتوقي والحذر بالإحتراز بالفرائض والإلتجاء إلى الله عز وجل.

الوجوه والنظائر

لفظ ضلال ذكرت له في الوجوه والنظائر^(١) ثمانية وجوه وهي :

الأول : الغي .

الثاني : الخسران .

الثالث : الشقاء .

الرابع : إبطال الأعمال .

الخامس : الخطأ .

السادس : الجهل .

السابع : النسيان .

الثامن : الزلل عن الحق وجادة الصواب.

ولكل وجه من هذه الوجوه جيء بمثل وآية تكون شاهداً عليه ففي

قوله تعالى ﴿إِنَّهُمْ أَفْوَاهٌ آبَاءُهُمْ ضَالِّينَ * فَهُمْ عَلَى آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ * وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ﴾^(٢)، قيل ان الأولين غووا فكفروا.

أما الضلال في قوله تعالى ﴿أَتَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرَدَّنَا الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تَغْنِي عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً وَلَا يُنْقِذُونَا * إِنِّي إِذَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾^(٣) فقليل أن معناه الخسران^(٤).

(١) الوجوه والنظائر مصطلح يراد منه ان للكلمة التي وردت في مواضع متعددة معاني وتفسيراً ومراداً مختلفاً، فتكرار اللفظ يسمى النظائر، والمعاني المختلفة لها باختلاف المواضع تسمى الوجوه.

(٢) سورة الصافات ٦٩ - ٧١.

(٣) سورة يس ٢٣-٢٤.

(٤) أنظر كتاب الوجوه والنظائر لهارون بن موسى المتوفى سنة ١٧٠ هجرية مادة ضلال.

وهكذا بقية الوجوه مع الشواهد على كل منها من القرآن الكريم واستبدال بعض تلك الوجوه ببعض الآخر من حيث الموضع لا يجانب الصواب ولا يبعد المرء عن الحق في التفسير.

وتدل الأمارات على جواز انطباق عدة وجوه ومفاهيم للفظ في كل موضع منها، وترى إمكان تطبيق كل من الوجوه المذكورة أعلاه على كلمة ضلال في الآية المتقدمة وإن معناها لا ينحصر في الخسران.

وهكذا يمكن القول بالنسبة إلى كلمات القرآن الأخرى والمعاني المتعددة لألفاظه ومنها كلمة (الضالين) الواردة في هذه الآية الكريمة من سورة الفاتحة خاصة وإنها جاءت بلسان وصيغة الدعاء الذي يستحب أن يكون شاملاً جزيلاً ورجاء السلامة والله واسع كريم يجب أن يسأل من فضله.

روي أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: يدخل الجنة رجلان كانا يعملان عملاً واحداً فيرى أحدهما صاحبه فوقه فيقول: يارب بما أعطيتني وكان عملنا واحداً فيقول الله تعالى سألتني ولم تسألني، ثم قال أسألو الله وأجزلوا فإنه لا يتعاضمه شيء^(١).

التقسيم السماوي للفاتحة

لقد وردت الرواية بطرق متعددة كلها عن النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: قال الله عز وجل: قسمت فاتحة الكتاب بيني وبين عبدي فنصفها لي ونصفها لعبدي ولعبدي ما سأل.

إذا قال العبد: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قال الله جل جلاله: بدأ عبدي بإسمي وحق علي أن أتم له أموره وأبارك في أحواله.

فاذا قال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ قال الله جل جلاله: حمدني عبدي وعلم أن النعم التي له من عندي وأن البلايا التي دفعت عنه

بتطولي أشهدكم أنني أضيف له الى نعم الدنيا نعم الآخرة ، وأدفع عنه
بلايا الآخرة كما دفعت عنه بلايا الدنيا.

وإذا قال: ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ قال الله جل جلاله: شهد لي عبدي
أنني الرحمن الرحيم أشهدكم لأوفرن من رحمتي حظه ولأجزلن من
عطائي نصيبه.

فاذا قال: ﴿مَالِكِ يَوْمَ الدِّينِ﴾ .

قال الله تعالى: أشهدكم كما إعترف باني أنا المالك يوم الدين لأسهلن
يوم الحساب حسابه ولأتقبلن حسناته ولأتجاوزن عن سيئاته.

فاذا قال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾

قال الله عز وجل: صدق عبدي إياي يعبد أشهدكم لأثبينه على
عبادته ثواباً يغبطه كل من خالف في عبادته لي.

فاذا قال: ﴿وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾

قال الله تعالى: بي استعان عبدي وإلي التجأ أشهدكم لأعينه على
أمره ولأغينته في شدائده ولأخذن بيده يوم نوائبه.

فاذا قال: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ الى آخر السورة.

قال الله عز وجل: هذا لعبدي ولعبدي ما سأل وقد استجبت لعبدي
وأعطيته ما أمل وأمنته مما منه وجل^(١).

وفي الرواية بيان وكشف لعظمة هذه السورة ومنافعها المتصلة في
الدارين وإستقلال كل آية بخصوصية ومنزلة سامية ويتعقبها ثواب وعطاء
وفضل الهي قبل الإنتقال الى الآية الأخرى كما وان التدبر في مضامينها
والغور في اسرارها يؤكد أنها جبل متين في سلم العبودية والسالكين سبل
مرضاة الله تعالى.

أخرج الطبراني في الأوسط عن ابي بن كعب قال: قرأ رسول الله

صلى الله عليه وآله وسلم فاتحة الكتاب ثم قال: قال ربكم: ابن آدم أنزلت عليك سبع آيات ثلاث لي وثلاث لك وواحدة بيني وبينك، فاما التي لي ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ * مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴾، والتي بيني وبينك ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ منك العبادة وعلي العون لك واما التي لك ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴾.

علوم الشريعة

العلوم التي نشأت على أسسها الشرائع أربعة تتجسد معالمها في سورة الفاتحة، فعلم الأصول الذي يستند إلى معرفة الخالق عز وجل وصفاته تأتي الإشارة اليه في السورة بـ ﴿ رَبِّ الْعَالَمِينَ * الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴾. ومعرفة النبوة والرسالة يتضمنها قوله تعالى ﴿ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾.

ومعرفة المعاد واليوم الآخر تأتي في قوله تعالى ﴿ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴾. وعلم العبادات يرد مفهومه في الآية الكريمة ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾.

وعلم السلوك وهو توجيه الإنسان وأفعاله في سبل الشريعة وأحكامها يرد في ﴿ إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ * اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾. وعلم القصص وهو معرفة أحوال الأمم السالفة واخبار الأيام الماضية من اجل التدبر والإعتاظ والرشاد جاء بيانه بقوله تعالى ﴿ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴾.

لقد جاءت سورة الفاتحة جامعة لهذه المقاصد الشريفة وفيها بيان

مختصر لمضامين الكتاب لتكون واجهة وإشراقاً من الإعجاز الذاتي والغيري للقرآن.

ولم تقل الآية "غير المغضوب عليهم والضالين" مع ان لفظ "غير" يفيد النفي، وعطف الضالين على المغضوب عليهم يكفي في التبرئة والتنزه من الضلالة ومن أفعال روادها، ولكن الآية جاءت بلفظ "لا" في قوله تعالى ﴿ولا الضالين﴾ لتوكيد النفي، وزيادة التوسل إلى الله تعالى بالعصمة من مسالك وأفعال القوم الضالين.

وليكون فيها تشديد لمعنى النفي الذي تفيد "غير" في قوله تعالى ﴿غير المغضوب عليهم﴾ وفيه نكتة إضافية تستقرأ من هذا التشديد وهي أن الحاجة إلى السلامة والوقاية والإبتعاد عن أهل الضلالة والكفر أشد من الحاجة إلى الإبتعاد عن المغضوب عليهم مع إتحادهما في الجحود والعناد.

ولم يرد لفظ "المغضوب" في القرآن إلا في هذه الآية، وإرادة فريق من أهل الكتاب، قال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾^(١) وجاء التشديد والتغليظ في الوعيد على الكفار وأهل الجحود والضلالة، قال تعالى ﴿لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ﴾^(٢).

وعن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: من لم يسأل الله يغضب عليه^(٣).

قانون القراءة في الصلاة (بحث فقهي)

لقد فرض الله عز وجل على المسلمين الصلاة فرض عين على كل مكلف خمس مرات في كل يوم وفي أوقات مخصوصة لكل منها لتكون عنواناً للهداية وسبيلاً للمزيد منها ووسيلة لمحو الذنوب. وتتكون الصلاة من أفعال واجبة وأخرى مندوبة، والقراءة في الصلاة

(١) سورة الممتحنة ١٣.

(٢) سورة آل عمران ٩٠.

(٣) تفسير ابن كثير ١/١٢٥.

من أجزائها الواجبة ولكنها ليست ركناً بمعنى أن الصلاة لا تبطل بنقصها أو زيادتها سهواً أو نسيانها وعدم تذكرها إلا بعد الوصول إلى حد الركوع، فيجب قراءة سورة الفاتحة وسورة أخرى أو ما تيسر من القرآن في كل من الركعتين الأولى والثانية من كل صلاة فريضة، كما تجب قراءة فاتحة الكتاب في صلاة النافلة.

ومشهور المسلمين أن قراءة السورة بعد الفاتحة مستحبة وإن تركها سهواً أو عمداً لا يبطل الصلاة ولا يستلزم سجدة السهو، وقال بوجوب قراءتها المالكية، واختلفوا هل تبطل الصلاة بترك السورة عمداً أم لا.

إن قراءة فاتحة الكتاب في الصلاة آية في فلسفتها، ومدرسة عبادية وفعل يومي يتغشى ربوع الأرض وآفاقها المختلفة وليتعاهد أهل الأرض القرآن ويبرهنوا على التزامهم جانب الحرص في الحفاظ عليه ودفع ما ينزل من البلاء ببركته وتلاوته من الجماعات والأفراد.

عن الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام قال: "أمر الناس بالقرآن في الصلاة لئلا يكون القرآن مهجوراً مضيعاً وليكون محفوظاً مدروساً فلا يضمحل ولا يجهل"^(١).

لقد إقترنت قراءة سورة الفاتحة ببدايات أداء النبي صلى الله عليه وآله وسلم للصلاة، وجاءت الرواية بأن تشريعها في ليلة الإسراء بالنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وإرتقائه في عالم الملكوت.

عن إسحاق بن عمار قال: "سألت موسى بن جعفر عليه السلام كيف صارت الصلاة ركعة وسجدين، وكيف إذا صارت سجدين لم تكن ركعتين؟، فقال: إذا سألت عن شيء ففرغ قلبك لفهم أن أول صلاة صلاها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إنما صلاها في السماء بين يدي الله تبارك وتعالى قدام عرشه جل وجلاله -إلى أن قال- قال: يا محمد أدن من صا د فاغسل مساجدك وطهرها وصل لربك، فدنا رسول

الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى حيث أمره الله تبارك وتعالى فتوضأ وأسبغ وضوءه ثم إستقبل الجبار تبارك وتعالى قائماً، فأمره بافتتاح الصلاة ففعل. فقال يا محمد اقرأ: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾. إلى آخرها، ففعل ذلك، ثم أمره ان يقرأ نسبة ربه تبارك وتعالى ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ﴾، ثم أمسك عنه القول، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾... الحديث^(١).

وتبرز موضوعية بشأن الفاتحة في الصلاة بضرورة الاتيان بها في كل ركعة منها، إذ تسقط السورة التي معها عن المريض والمحتاج إلى الإستعجال والذي ضاق وقته والخائف من أمر ينجم عن مضي الوقت بقراءتها، ونحوه من أفراد الضرورة فان وجوب قراءة سورة الفاتحة يبقى قائماً في صور المشقة المتقدمة.

وتجب في الصلاة قراءة سورة الفاتحة بصورة صحيحة مع الحرص على إتقان النطق بالحروف من مخارجها حسب أصول اللغة العربية والتقيد بحركات الإعراب وغيرها من أحكام القرآن.

ويجب على المكلفين من الرجال قراءة سورة الفاتحة والسورة في صلاة الصبح والركعتين الأولىين من المغرب والعشاء بصورة جهرية، وإخفات القراءة في الركعة الثالثة من صلاة المغرب، وفي الركعة الثالثة والرابعة من صلاة العشاء، والإخفات أيضاً في صلاة الظهر والعصر من الصلاة اليومية عدا صلاة الجمعة فيستحب الجهر فيها وفي ظهرها، أما النساء فلا يجب عليهن الجهر في الصلاة ولكن تتخير المرأة في الجهرية بين الجهر والأخفات.

وفي حين تسقط قراءة السورة في الصلاة عند العجز عن تعلمها، فان

سورة الفاتحة وقراءتها لها ملاك وحكم خاص ، فإذا تعلم المكلف بعض سورة الفاتحة وضاق الوقت عن تعلم الباقي منها، فعليه ان يقرأ في الصلاة هذا البعض الذي تعلمه، والأحوط إستحباً ان يقرأ من سور القرآن الأخرى ما يتناسب والمقدار الذي عجز عن قراءته منها، وإذا لم يستطع المكلف أن يتعلم سورة الفاتحة فيجوز له أن يقرأ عوضاً عنها آيات من القرآن وبقدر سورة الفاتحة، وإذا كان عاجزاً عن قراءة شيء من القرآن له ان يأتي بدلاً عن السورة بالتكبير والتسبيح.

وورد بالاسناد عن عبادة بن الصامت انه قال: "قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: لا صلاة لمن لم يقرأ فاتحة الكتاب"، وايضاً ورد عنه: "ان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: أم القرآن عوض عن غيرها، وليس غيرها عوضاً عنها"^(١)، وهذا الحديث قاعدة فقهية وتصلح أيضاً للإستنباط.

والأمر بالإتيان بسورة الفاتحة في الصلاة أمر مولوي^(٢) من أجل الالتفات إلى جزيئتها من الصلاة ، ووجوب قراءتها فيها ، وعدم تعمد تركها.

وروي عن النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم انه قال: "كل صلاة لم يقرأ فيها بفاتحة الكتاب فهي خداج"^(٣) غير تام.

من أحكام القراءة

الأولى : يجب في صلاة الصبح والركعتين الأوليتين وسائر الفرائض قراءة سورة الفاتحة وسورة كاملة أو ما تيسر من القرآن بعد الفاتحة.

الثانية : لا يجوز تقديم السورة على الفاتحة، سواء قرأها مرة أخرى بعد الفاتحة ام لم يقرأها ولو فعله عمداً فعليه اعادة الصلاة، ولو قدمها

(١) السيوطي / الدر المنثور / ١ / ١١٨.

(٢) الامر المولوي امر الهي نافذ وهو امر تأسيسي.

(٣) خداج: نقصان، وجاء الوصف بالمصدر مبالغة يقال: خدجت الناقة فهي خادج اذا القت ولدها قبل أوانه وان كان تام الحلقة.

سهواً وتذكر قبل الركوع قرأ الفاتحة ثم اعاد السورة او غيرها، اما لو تذكر بعد الدخول في حد الركوع صحت صلاته.

الثالثة : في النوافل يجوز الإقتصار على الفاتحة ولا يجب قراءة السورة ، وتكون السورة المعنية الوارد بها النص في نوافل مخصوصة ولكن على نحو الإستحباب غالباً لأن المستحب لا يعني التقييد بل الأرجح والأولى من تعدد المطلوب.

الأقوى عدم وجوب تعيين السورة قبل الشروع فيها ولكنه الاحوط، أي حينما تبدأ بالبسملة تعرف انك ستقرأ أية سورة، وصحيح ان مذهب أهل البيت عليهم السلام وجمع من الصحابة وأئمة المذاهب جعل التسمية في أول كل سورة جزء منها، ولكنه أعم من إستحضار ذات السورة عند الإبتداء بالقراءة لأصالة البراءة وقاعدة نفى الحرج ولخصوصية البسملة بتكرارها في أول كل سورة، واحتمال ان هذا المبحث مستحدث خصوصاً وان النصوص لم تتعرض له مع انه عام البلوى.

الرابعة : لو كان معتاداً على قراءة سورة معينة فيكفي قصده الاعتيادي في الاتيان بالبسملة، نعم لو عين البسملة لسورة معينة فانها لم تكف لغيرها، فلو جاء بالبسملة بنية قراءة سورة معينة ثم عدل الى غيرها فعليه ان يعيد البسملة.

الخامسة : يجب على الرجال الجهر بالقراءة في الصبح، والركعتين الأولىين من المغرب والعشاء، ويجب الإخفات في الظهر والعصر الا في صلاة الجمعة فيستحب مؤكداً الجهر فيها، ويستحب ايضاً الجهر بصلاة الظهر ليوم الجمعة على الاقوى.

السادسة : يستحب مؤكداً الجهر بالبسملة في الظهرين للفاتحة والسورة.

السابعة : إذا جهر في موضع الإخفات الواجب، أو أخفت في موضع الجهر الواجب عمداً عليه الإعادة، وان كان ناسياً أو جاهلاً ولو بالحكم

صحت صلاته.

الثامنة : يلحق القاصر المعذور بالجاهل كما لو لم يتضح عنده أن صلاة الصبح مثلاً جهرية أو إخفائية ، وإن كان يدرك تقسيم الصلاة إلى جهرية وإخفائية، وكذا من كان جاهلاً بمعنى الجهر والإخفات، أو كان مأموماً ولكنه جاهل بوجوب الإخفات في الركعة الثالثة والرابعة من الصلاة.

التاسعة : لا يجب على المرأة الجهر في الصلوات الجهرية، فتتخير بينه وبين الإخفات فيها إذا لم يسمعها الأجنبي، وفي حال وجود الأجنبي فالأحوط لها الإخفات، أما في الصلاة الإخفائية فيجب عليها الإخفات كالرجل، وتعذر في ما يعذر فيه.

العاشر : لو إختارت المرأة الجهر في القراءة الجهرية وسمعها من يحرم عليه الإستماع لصوتها فإنها تؤثم، ولكن صلاتها صحيحة.

الحادية عشرة : إذا أمت المرأة النساء تجهر بقدر ما تسمع المأمومات قراءتها في الصلاة الجهرية مع إعتبار عدم سماع من يحرم إستماعه لصوتها.

الثانية عشرة : مناط الجهر في القراءة ظهور جوهر الصوت ورفعته على نحو يسمعه نفسه ومن كان بجانبه، ولا يجوز الصياح وما يشبهه، أما الإخفات فهو عدم اظهار جوهر الصوت وإن سمعه من كان قريباً منه.

الثالثة عشرة : من لم يكن حافظاً للفاحة او السورة يجوز أن يقرأ في المصحف.

الرابعة عشرة : يجوز للمصلي اتباع من يلقيه آية فآية عند تعذر الحفظ والإتقان أو خوف اللحن والخطأ وعدم القدرة على التلفظ لآفة في اللسان، وإن كان الأولى في هذه الحالات الإهتمام.

الخامسة عشرة : الأخرس يحرك لسانه ويشير بيده إلى ألفاظ القراءة بقدرها والأولى له الجماعة.

السادسة عشرة : من لا يحسن القراءة يجب عليه التعلم وإن كان متمكناً من الإهتمام، وكذا يجب تعلم سائر أجزاء الصلاة، وإن ضاق

الوقت فالأحوط الإتيان.

السابعة عشرة : لو دار أمره بين الإتيان في أول الوقت أو الصلاة في آخر الوقت بالميسور من القراءة مع اللحن، أو التسبيح وأن كان عن تقصير في التعلم، فالأولى صلاة الجماعة لعموم إستجابها النفسي المؤكد ولأنها في أول الوقت ولقاعدة نفي الحرج في الدين ولأنها من أحسن مصاديق مطابقة المأتي به للمأمور به.

الثامنة عشرة : القادر على التعلم إذا ضاق وقته ولم يصل جماعة قرأ من الفاتحة ما تعلم، وقرأ من سائر القرآن عوض ما بقي من السورة، وإذا لم يعلم من الفاتحة شيئاً قرأ من آيات القرآن بمقدار آيات الفاتحة حروفاً وكلمات، وأن لم يعلم من القرآن شيئاً سبح وكبر وذكر بقدرها، والأحوط أن يأتي بالتسبيحات الأربعة أي سبحان الله والحمد لله ولا اله الا الله والله اكبر، وتكرارها بما يعادل سورة الفاتحة أو آياتها التي لا يستطيع الإتيان بها.

التاسعة عشرة : وجوب التعلم لا ينحصر بسورة الفاتحة بل يجب تعلم السورة التي يقرأها بعدها والظاهر عدم وجوب البدل لها في ضيق الوقت.

العشرون : الأحوط عدم جواز أخذ الإجارة عند تعليم أجزاء الصلاة الواجبة ومنها سورة الفاتحة والسورة إلا أن يكون تعلمهما أو أحدهما لغير الصلاة والواجب مطلقاً، ويجوز أخذها على المستحبات تعليمياً وأداءً.

الحادية والعشرون : يجب الترتيب بين آيات الحمد والسورة، وبين كلماتها وحروفها كما تجب الموالاة.

الثانية والعشرون : لو اخل بشيء من الكلمات أو الحروف أو بدّل حرفاً بحرف فإن كان عن عمد بطلت تلك الكلمة ويستأنف على الوجه الصحيح وتصح الصلاة على الأقوى وإن لم يستأنف عليه إعادة الصلاة، وأن كان عن سهو أو نسيان وتذكر في المحل وجب الإستئناف ايضاً، وإن تذكر بعد الدخول في الركن اللاحق كما لو تذكر في الركوع صحت

صلاته لحديث لا تعاد وحديث الرفع، وقاعدة نفى الحرج في الدين، وقاعدة التجاوز.

الثالثة والعشرون : يجب حذف همزة الوصل في الدرج مثل همزة اسم الجلالة والرحمن الرحيم من الأسماء الحسنی في البسملة وهمزة اهدنا ونحوها، ويجب اثبات همزة القطع كهمزة أنعمت، ولو خالف عن سهو او نسيان او جهل او عدم قدرة صحت صلاته.

الرابعة والعشرون : الأقوى جواز الوقف بالحركة والوصل بالسكون والاحوط تركه، لأن الأصل عدم الوجوب، واجماع علماء اللغة على أن إعتبار الوجوب لم يثبت وليس من دليل تعبدی عليهما.

الخامسة والعشرون : المدار في اخراج الحروف على صدق التلفظ بها، فلا تجب معرفة مخارجها وفق ما ذكره علماء التجويد لأنه نوع طريق لإحراز صدق التلفظ، وليس من دليل تعبدی على لزوم تلك القواعد كجعل أول احدى حافتي اللسان وما عليها من الأضراس مخرجاً للضاد، وطرف اللسان وطرف الثنايا للظاء والذال والشاء.

السادسة والعشرون : المد الذي يتوقف اداء الكلمة مادة او هيئة عليه مثل (الضالین) واجب بالمقدار الذي يصدق معه صحة اللفظ وافادة المعنى، اما المد الذي يكون بعد احد حروف المد، وهي الواو المضموم ما قبلها، والياء المكسور ما قبلها، والألف المفتوح ما قبلها فهي من المحسنات في الجملة وبحسب المتعارف تكون من المستحبات كما لو كان المد بمقدار حرف الألف مرتين ، وقيل أربع مرات والمدار على عدم خروج الكلمة عن معناها.

السابعة والعشرون : يجوز الإهتمام بمن لا يتقيد تماماً بأحكام المد ونحوها من المحسنات، الا اذا كانت قراءته مخالفة للوجه العربي الصحيح او الحركات الإعرابية والسكون ونحوه، ولا يظهر الحركات ويبينها بياناً شافياً.

الثامنة والعشرون : إذا حصل فصل بين حروف كلمة واحدة اختياراً أو إضطراراً بحيث خرجت عن الصدق بطلت الكلمة ووجب

التاسعة والعشرون : مما تعارف في احكام القراءة ترقيق اللام من اسم الجلالة اذا كان قبله مكسوراً وتفخيمه اذا كان قبله مفتوحاً او مضموماً وجعلها الفقهاء قاعدة كلية لإعتبارهم ما تكون له موضوعية عند القراء وعلماء النحو، ولم يثبت عندي وجوبه، بالإضافة الى ان اسم الجلالة واحد هيئة ومادة، ولكن إعتبار ترقيق اللام من خصائص هذا الاسم الشريف إجلالاً وتكريماً وتعظيماً، والإتيان بما هو متعارف عند القراء يجعلان إستحبابه أمراً راجحاً.

الثلاثون : يجوز قراءة مالك ومالك يوم الدين، والصراط بالصاد والسين لا لأن كلاً منهما قرأ به بعض القراء السبعة فحسب بل لورود النص بخصوصهما، والأولى قراءة مالك بالألف، والصراط بالصاد لضبطه ورسمه في المصاحف ولأنه المتعارف .

الحادية والثلاثون : في الركعات الأخيرة من الصلاة وهي الثالثة من صلاة المغرب والثالثة والرابعة من صلاة الظهر والعصر والعشاء، يتخير في كل ركعة منها بين قراءة الفاتحة او التسيبحات الأربعة وهي "سبحان الله والحمد لله ولا إله الا الله والله أكبر"، والأقوى كفاية الإتيان بها مرة واحدة، ويستحب ثلاث مرات، ويجوز إضافة الإستغفار إليها.

الثانية والثلاثون : إذا كان المكلف قادراً على قراءة سورة الفاتحة ولا يعرف التسيبحات تعينت الفاتحة حيثئذ، وكذا العكس لقاعدة التعيين عند تعذر التخيير.

الثالثة والثلاثون : اذا نسي الفاتحة في الركعتين الأوليتين فالأحوط استحباباً قراءتها في الأخيرتين، ولو جاء بالتسيبحات فيها صحت صلاته والمشهور بقاء التخيير.

الرابعة والثلاثون : يجوز أن يقرأ في إحدى الأخيرتين الفاتحة وفي الأخرى التسيبحات للإطلاق وعدم لزوم اتحاد القراءة فيهما.

الخامسة والثلاثون : يجب الإخفات في الركعتين الأخيرتين سواء قرأ

الفاتحة أو جاء بالتسيّحات وهو المشهور، والأقوى الجهر بالبسملة إذا قرأ الفاتحة فيهما، ويجوز الإخفات بها أيضاً.

السادسة والثلاثون : إذا كان عازماً من أول الصلاة على قراءة الفاتحة يجوز له أن يعدل عنها إلى التسيّحات وكذا العكس، بل يجوز العدول في أثناء أحدهما إلى الأخرى.

السابعة والثلاثون : لو قصد الفاتحة فسبق لسانه إلى التسيّحات أو جاء بها عن غفلة وخلاف عادته اجتزأ بها وصحت صلاته، وكذا العكس لحصول قصد الإمثال وتحقيقه إجمالاً وإرتكازاً.

الثامنة والثلاثون : إذا قرأ الفاتحة بتخيل أنه في إحدى الأوليتين فذكر أنه في إحدى الأخيرتين اجتزأ بقراءته ولا يلزم الإعادة أو قراءة التسيّحات وإن كان قبل الركوع، ولو قرأ معها السورة كسورة القدر قطعها حيث يلتفت ويكبر للركوع، والأقوى عدم وجوب سجدة السهو. التاسعة والثلاثون : لو قرأ التسيّحات بتخيل أنه في إحدى الأخيرتين ثم ذكر قبل الركوع أنه في إحدى الأوليتين يجب عليه قراءة الفاتحة مع السورة، ولو تذكر بعد الدخول في حد الركوع صحت صلاته.

الأربعون : يستحب السكوت القليل بين الفاتحة والسورة، وكذا بعد الفراغ من السورة أي بينها وبين التكبير للركوع أو القنوت.

الحادية والأربعون : يستحب أن يقول بعد فراغ الإمام من قراءة الفاتحة إذا كان مأموماً "الحمد لله رب العالمين".

الثانية والأربعون : يجوز قراءة المعوذتين في الصلاة، وهما جزء من القرآن.

الثالثة والأربعون : سورة الفاتحة سبع آيات والبسملة آية منها، ومنهم من عد انعمت عليهم آية مع تقيده بالعد سبع آيات لأنه لا يعد البسملة آية.

الرابعة والأربعون : قصد القرآنية شرط في صحة القراءة، ولو قصد معه انشاء الخطاب أو الدعاء فالأقوى الجواز لعدم التنافي أو التعارض بينهما كما في الآية الكريمة ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، والآية ﴿

اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١﴾.

الخامسة والأربعون : لو تحرك حال القراءة قهراً بحيث خرج عن حال الاستقرار لا يجب عليه إعادة ما قرأه في تلك الحالة ولكنها أحوط.
السادسة والأربعون : اذا شك في صحة قراءة آية او كلمة يجب إعادتها إذا لم يتجاوز المحل.

السابعة والأربعون : إذا شك في حركة كلمة او مخرج حروفها لا يجوز ان يقرأ بالوجهين مع فرض العلم ببطلان أحدهما، نعم له ان يختار احد الوجهين مع البناء على إعادة الصلاة لو كان باطلاً، او يقطع قراءتها ويقرأ غيرها مع الإمكان.

البسملة بين الجهر والاضفات

لقد تقدم الكلام عن عظيم منزلة بسم الله الرحمن الرحيم وذكر الروايات التي تؤكد ما لها من قدسية وانها عنوان التوحيد ولواء من ألوية الدعوة الى الله عز وجل وفق الله المسلمين لحسن تعاهدها والانتفاع من بركاتها.
وقد جاءت الروايات بان النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان يجهر بقراءة بسم الله الرحمن الرحيم في الصلاة، وهو ايضاً مذهب أهل البيت عليهم السلام، كذلك ورد عن احمد بن حنبل ان عمر بن الخطاب جهر بالبسملة وكان الامام علي عليه السلام يجهر بها.
روي الجهر بالبسملة عن الامام علي بن الحسين والامام محمد الباقر عليهما السلام، ومن الصحابة رواه ابو هريرة وابن عمر وابن عباس، ومن التابعين محمد بن علي بن ابي طالب وسعيد بن جبيرة وعكرمة ومجاهد وسالم وعطاء وطاووس ومحمد بن كعب القرظي، الى جانب الروايات التي تؤكد ذلك منها ما تقدم عن ام سلمة قالت: "كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقطع قراءته بيسم الله الرحمن الرحيم"، وروي عن ابن عباس "ان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان يفتح

الصلاة بيسم الله الرحمن الرحيم" (١). واحتج القائلون بالاخفات في البسمة في الصلاة بما روى عن انس بن مالك قال: "صليت خلف النبي صلى الله عليه وآله وسلم وابي بكر وعمر وعثمان فكانوا يفتتحون بالحمد لله رب العالمين ولا يذكرون بسم الله الرحمن الرحيم في أول قراءة ولا في آخرها" (٢).

ومع ضعف سند الحديث فقد جاءت الرواية ايضاً عن انس بالجهر مما يؤدي الى التعارض، والقول المروي عنه بالاخفات علل بالخوف من بني أمية، وقيل بجواز نسبة الاخفات الى جهة راوي حديثه، لقد وردت الاخبار بان معاوية بن ابي سفيان لما جاء الى المدينة المنورة وصلى بالناس صلاة يجهر بها قرأ الفاتحة ولم يقرأ بسم الله الرحمن الرحيم، فلما قضى صلاته ناداه المهاجرون والانصار من كل ناحية انسيته؟ أين بسم الله الرحمن الرحيم حين استفتحت القرآن؟ فاعاد معاوية الصلاة وقرأ بسم الله الرحمن الرحيم" (٣).

وهذا الخبر وثيقة يتجلى فيها حرص المسلمين الاوائل على ضرورة اتيان الصلاة بتمامها وكما كانت على عهد النبي صلى الله عليه وآله وسلم فلم يترددوا في اجبار معاوية على الجهر بالبسمة في الصلاة، الامر الذي يؤكد ايضاً اجماع الصحابة على ان البسمة من القرآن وانها جزء من سورة الفاتحة، وان تركه للبسمة لم يكن عن دليل.

(وروي ان الدارقطني صنف كتاباً في الجهر فاقسم عليه بعض المالكية ليوفه الصحيح فقال: لم يصح في الجهر حديث) (٤)، وذيل الرواية فيه تأمل فالكتاب دراية وشهادة، ونقل قول منسوب اليه مغاير لمضمون الكتاب منطوقاً ومفهوماً ورواية من الصعب التسليم به خاصة وانه من

(١) ابن كثير / تفسير القرآن العظيم ٢٥/١.

(٢) ابن كثير / تفسير القرآن العظيم ٢٦/١.

(٣) مفاتيح الغيب ١/ ١٩٦.

(٤) روح المعاني في تفسير القرآن والسبع المثاني ٣٩/ ١.

رجال الحديث وبعض كتبه مما يرجع اليه.

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ آية من سورة الفاتحة وهو ظاهر نظم الآيات وجاءت به الأخبار وفيه إجلال وإكرام لمنزلة هذه الآية، وفي عيون أخبار الرضا عن الإمام علي عليه السلام: "أنها من سورة الفاتحة وإن رسول الله صلى الله عليه وآله كان يقرأها ويعدها آية منها ويقول فاتحة الكتاب هي السبع المثاني".

وفي قراءة البسملة في الصلاة وجوه :

الأولى : روي عن أحمد بن حنبل أن التسمية آية من الفاتحة إلا أنه يسر بها في كل ركعة.

الثانية : وأما الشافعي فقال بأنها آية من سورة الفاتحة ويجهر بها وعنده أنها آية من سورة الفاتحة ومن كل سورة وكذا قراء مكة والكوفة وفقهاؤهما. الثالثة : لم يقل أبو حنيفة في جزئية البسملة أو عدمها فظن بعضهم أنه يقول البسملة ليست من السورة، ويدل على خلافه أن محمداً بن الحسن سئل عن البسملة فقال: ما بين الدفتين كلام الله ونسب إلى أبي حنيفة إلا أنه يسر بها في كل ركعة.

قال: مالك لا ينبغي أن يقرأها في المكتوبة لا سراً ولا جهراً، وأما في النافلة فإن شاء قرأها أو أن شاء ترك.

واحتج القائل بأن التسمية ليست آية من الفاتحة بما روته عائشة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه كان يفتح الصلاة بالتكبير والقراءة بالحمد لله رب العالمين ولكن الحمد لله رب العالمين اسم من أسماء الفاتحة فلعلها تشير إلى اسم السورة وليس إلى إبتداء اللفظ فيها وهو الظاهر من قولها (بقراءة) وعلى فرض أنه مجرد احتمال فإنه يكفي للتوقف بالإستدلال بها.

لذا قال الشافعي: لعل المراد من قول أنس كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يستفتح الصلاة بالحمد لله رب العالمين أنه كان يقدم هذه السورة في القراءة على غيرها من السور فقوله الحمد لله رب العالمين المراد منه تمام هذه السورة ، والظاهر والمتسالم آنذاك عند السامع الإتيان

بالبسمة عند قراءة الفاتحة.

وورد عن أبي هريرة أنه قال: "كنت مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم في المسجد إذ دخل رجل يصلي فافتتح الصلاة وتعوذ ثم قال (الحمد لله رب العالمين) فقال: يا رجل، قطعت على نفسك الصلاة، أما علمت أن {بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ} من الحمد؟ فمن تركها فقد ترك آية، ومن ترك آية منه فقد قطعت عليه صلاته"^(١).

وقال الرازي: نقل ان علياً رضي الله عنه كان مذهبه الجهر بيسم الله الرحمن الرحيم في جميع الصلوات، واقول ان هذه الحجة قوية في نفسي راسخة في عقلي لا تزول البتة بسبب كلمات المخالفين^(٢).

بحث بلاغي

فواصل القرآن جمع فاصلة وهي الكلام المنفصل عنه ما بعده وفي القرآن قد يكون رأى آية أي أن النسبة بين الفاصلة ورأس الآية عموم وخصوص مطلق فالفاصلة أعم.

تقسم فواصل القرآن إلى قسمين :

الأولى : المتماثلة مثل قوله تعالى ﴿وَالطُّورِ * وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ * فِيهِ رَقِ مُشْشُور * وَأَلْبَيْتِ الْمَعْمُورِ﴾^(٣).

الثانية : المتقاربة مثل ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾^(٤).
وأختلف في وقوع السجع في القرآن او عدمه، ويتعلق بفواصل الآيات المتماثلة كما في قوله تعالى ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنُسِ * الْجَوَارِي الكُنُسِ * وَاللَّيْلِ إِذَا

(١) الكشف والبيان ١٩/١.

(٢) مفاتيح الغيب ٢٠٤/١.

(٣) سورة الطور ١-٤.

(٤) سورة الفاتحة ٣-٤.

عَسَسَ^(١)، وقوله تعالى ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ * وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾^(٢)، وسيأتي مبحث مفصل عن فواصل الآيات في الجزء العشرين ، وأن نظم القرآن أرقى من إصطلاحات الشعر والنثر ولا بد من إختيار إصطلاح مناسب للنظم القرآني يتناسب وإنفراده بالإعجاز المطلق.

والإجماع على احتساب وعدّ سورة الفاتحة سبع آيات إلا أن الإختلاف حصل في كيفية التقسيم وفي أحد مواضع رؤوس الآي على قولين: إختيار الشافعي إعتبار قوله تعالى ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾^(٣)، آية واحدة، أما أبو حنيفة فجزءها إلى آيتين وعدّ ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ آية ، وقوله تعالى ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ آية.

والسبب ان الشافعي جعل البسمة آية مستقلة وهو المشهور والمختار ، أما أبو حنيفة فقد أسقط البسمة من الفاتحة خلافاً للمشهور، والأولى أن يكون الإختيار بلحاظ النقل، وما ورد عن النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم في قراءته الشريفة وسنته المباركة، وتعدد وجوها يعني المندوحة والسعة بمعنى أن ما وقف عليه النبي صلى الله عليه وآله وسلم دائماً فهو فاصلة ، وما كان يقف عنده أحياناً دون أحيان أخرى ، فالوقف فيه على نحو الجواز، وفيه سعة في القراءة ولتعليم الأمة والإخبار عن مكان إختيار الوقف للإستراحة أو لغيرها بما لا يتعارض مع آداب وقواعد التلاوة.

^(١) سورة التكويد ١٥-١٧.

^(٢) سورة الضحى ٩-١٠.

^(٣) سورة الفاتحة ٧

الفهرس

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
٣	المقدمة	٤٤	الثالث عشر : الشافية
١٤	سورة الفاتحة	٤٥	الرابع عشر : الوافية
١٦	فضل الفاتحة	٤٥	الخامس عشر : الأساس
٢٥	بحث أصولي	٤٥	السادس عشر : الكافية
٢٦	الأول : فاتحة الكتاب	٤٦	السابع عشر : سورة الكنز
٢٨	الثاني : سورة الفاتحة	٤٦	الثامن عشر : الرقية
٢٩	الثالث : سورة الحمد	٤٨	التاسع عشر : القرآن العظيم
٣٠	الرابع : الحمد لله رب العالمين	٤٩	العشرون : السبع
٣١	الخامس : أم القرآن	٤٩	الحادي والعشرون : سورة الحمد الأولى
٣٣	السادس : أم الكتاب	٤٩	الثاني والعشرون : سورة الحمد القصرى
٣٥	السابع : السبع المثاني	٥٠	الثالث والعشرون : فاتحة القرآن
٣٦	الثامن : المثاني	٥٠	الرابع والعشرون : سورة السؤال
٣٩	التاسع : الصلاة	٥١	الخامس والعشرون : سورة تعليم المسألة
٤٢	العاشر : سورة الدعاء	٥١	السادس والعشرون : سورة النور
٤٣	الحادي عشر : سورة الشكر	٥١	السابع والعشرون : سورة المناجاة
٤٣	الثاني عشر : الشفاء	٥٢	الثامن والعشرون : سورة التفويض

الفهرس

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
٥٥	التاسع والعشرون : سورة النساء	٥٩	الثاني والأربعون : الحاضرة
٥٥	الثلاثون : سورة الإقتران	٦٠	الثالث والأربعون : سورة الذكر
٥٦	الحادي والثلاثون : سورة الإبتداء	٦٠	الرابع والأربعون : سورة العوض
٥٦	الثاني والثلاثون : سورة المناسبات	٦٠	النزول
٥٦	الثالث والثلاثون:سورة العقود	٦٧	عدد كلمات وحروف
٥٦	الرابع والثلاثون : سورة العلوم	٦٨	قوله تعالى ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾
٥٦	الخامس والثلاثون : المنجية	٦٨	الإعراب واللغة
٥٧	السادس والثلاثون : سورة الأصول والفروع	٧٢	في سياق الآيات
٥٧	السابع والثلاثون:السورة البكر	٧٢	إعجاز الآية
٥٧	الثامن والثلاثون : الميسرة	٧٤	إفاضات الآية
٥٧	التاسع والثلاثون:سورة الكمال	٧٦	الآية لطف
٥٨	الأربعون: الواقعة	٧٨	من غايات الآية
٥٩	الحادي والأربعون:سورة الإتحاد	٧٩	الآية سلاح

الفهرس

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
٨٠	بحث أصولي	١١٤	قانون النطق بالبسملة جهاد
٨٢	مفهوم الآية	١١٧	قانون قدسية التنزيل
٨٥	التفسير	١١٨	قانون عموم منافع البسملة
٨٦	بين الاسم والمسمى	١٢٠	قانون البسملة نجاة في الشأتين
٨٨	قانون الإبتداء باسم الله إلتجاء وإستجارة	١٢١	قانون البسملة تركة مباركة
٨٩	قانون البركة إفاضة	١٢٤	قانون الإكثار من البسملة أمان
٩٠	قانون فيوضات اسم الجلالة	١٢٥	رسم البسملة
٩٢	قانون اسم الجلالة أمن وسلام	١٢٧	قانون تنزيه كتابة البسملة
٩٣	إفاضات البسملة	١٢٩	قانون البسملة عز
٩٥	قانون البسملة رحمة في الشأتين	١٣١	البسملة وبلقيس
٩٧	اسم الجلالة	١٣٣	سبق نزول البسملة على الرسالة الخاتمة
١٠٠	بحث فلسفي	١٣٥	البسملة حجاب
١٠١	اسم الرحمن	١٣٩	الفرق بين الضاد والظاء
١٠٥	اسم الرحيم	١٤٠	علم المناسبة
١٠٦	قانون البسملة جزء من السورة	١٤١	بحث منطقي
١٠٩	نصوص في البسملة	١٤٢	بحث فقهي
١١٢	قانون البسملة وثيقة سماوية	١٤٣	قانون تعاهد البسملة كتابة وخطاً وفتحة

الفهرس

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
١٤٦	قوله تعالى ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾	١٧١	الحمد في القرآن
١٤٦	القراءة والإعراب واللغة	١٧٣	قانون الحمد لله إقرار بالنعمة
١٤٩	في سياق الآيات	١٧٦	قانون وجوب إستدامة الحمد لله
١٥٠	إعجاز الآية	١٧٩	تفسير ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾
١٥٢	الآية سلاح	١٨٣	الرب من أمهات الأسماء الحسنى
١٥٣	مفهوم الآية	١٨٤	قانون توحيد الربوبية
١٥٥	إفاضات الآية	١٨٧	بحث فلسفي
١٥٧	الآية لطف	١٨٩	بحث كلامي
١٦٠	من غايات الآية	١٩٠	بحث أخلاقي
١٦١	التفسير	١٩١	بحث عرفاني
١٦١	قوله تعالى ﴿الحمد﴾	١٩١	بحث تاريخي
١٦٢	أقسام الحمد	١٩٣	علم المناسبة
١٦٤	قانون الحمد لله دعاء	١٩٦	الصلة بين أول وآخر الآية
١٦٥	قانون شكر المنعم واجب	١٩٨	قوله تعالى ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾
١٦٧	أقسام أل الجنسية	١٩٨	القراءة والإعراب واللغة
١٦٩	قانون الحمد لله على ربوبيته المطلقة	١٩٨	في سياق الآيات
١٦٩	قانون أمر وتدبير الخلائق لله وحده	١٩٩	إعجاز الآية

الفهرس

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
٢٠٠	الآية سلاح	٢٢٩	إفاضات الآية
٢٠٢	مفهوم الآية	٢٣١	الآية لطف
٢٠٣	إفاضات الآية	٢٣٢	الصلة بين أول وآخر الآية
٢٠٤	الآية لطف	٢٣٤	من غايات الآية
٢٠٤	الصلة بين أول وآخر الآية	٢٣٥	التفسير
٢٠٧	من غايات الآية	٢٣٨	قانون يوم الدين
٢٠٩	التفسير	٢٤٠	قانون اختصاص الملك في الآخرة لله وحده رحمة
٢١٣	الفرق بين ﴿الرحمن﴾ و﴿الرحيم﴾	٢٤٢	مسائل في آية ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾
٢١٤	قانون سعة وتعدد رحمة الله	٢٤٤	قوله تعالى ﴿إِنَّا كُنَّا نَعْبُدُ وَإِنَّا نَسْتَغِيثُ﴾
٢١٥	علم المناسبة	٢٤٤	الإعراب واللغة
٢١٩	قوله تعالى ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾	٢٤٥	في سياق الآيات
٢١٩	القراءة والإعراب واللغة	٢٤٧	إعجاز الآية
٢٢٣	في سياق الآيات	٢٤٨	مفهوم الآية
٢٢٤	إعجاز الآية	٢٥٢	إفاضات الآية
٢٢٥	الآية سلاح	٢٥٣	الآية لطف
٢٢٦	مفهوم الآية	٢٥٤	من غايات الآية

الفهرس

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
٢٥٦	التفسير	٢٨٦	اللغة
٢٥٧	بين العبادة والطاعة	٢٨٧	في سياق الآيات
٢٥٨	قانون إخلاص العبادة	٢٨٩	إعجاز الآية
٢٦٠	قانون الشكر فرع التقوى	٢٩٠	الآية سلاح
٢٦٢	قانون تسخير العقل للتوحيد	٢٩٢	مفهوم الآية
٢٦٣	قانون تعدد العبادة والإستعانة	٢٩٣	الآية لطف
٢٦٥	بحث كلامي	٢٩٤	الصلة بين أول وآخر الآية
٢٦٧	قانون العبادة سياحة في عالم الملكوت	٢٩٦	من غايات الآية
٢٦٩	بحث عرفاني	٢٩٧	التفسير
٢٧١	وظائف الواو في آية البحث	٢٩٩	من مصاديق الصراط
٢٧٢	ذخائر لغة الجمع في الآية	٣٠١	مسائل في الصراط
٢٧٣	التفسير بالتقدير	٣٠٣	قانون الحاجة إلى الهداية
٢٧٤	قانون الآية تأديب	٣٠٤	قانون الصراط الأخروي
٢٧٦	مسائل في الآية	٣٠٦	قانون سبل اجتياز الصراط
٢٨٤	قوله تعالى ﴿ اِهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾	٣٠٨	قانون أفراد الصراط
٢٨٤	الإعراب	٣٠٩	مسائل في الآية
٢٨٥	القراءة	٣١٠	قانون تعدد معاني اللفظ القرآني (بحث أصولي)

الفهرس

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
٣١٠	قوله تعالى ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾	٣٢٥	مصاديق الصراط
٣١٠	القراءة والإعراب	٣٢٦	قانون توالي النعم
٣١٣	اللغة	٣٢٨	قانون الهداية إلى الصراط
٣١٥	في سياق الآيات	٣٣٠	سؤال السلامة من غضب الله
٣١٥	إعجاز الآية	٣٣٣	الوجوه والنظائر
٣١٨	الآية سلاح	٣٣٤	التقسيم السماوي للفتحة
٣١٦	مفهوم الآية	٣٣٦	علوم الشريعة
٣١٧	إفاضات الآية	٣٣٧	قانون القراءة في الصلاة (بحث فقهي)
٣١٨	الآية لطف	٣٤١	من أحكام القراءة
٣٢١	الصلة بين أول وآخر الآية	٣٤٥	البسمة بين الجهر والاضفات
٣٢٢	من غايات الآية	٣٤٨	بحث بلاغي
٣٢٣	التفسير	٣٥٢	الفهرس

رقم الإيداع في دار الكتب والوثائق ببغداد ٢١٣ لسنة ١٩٩٦